

جميع أعداد
أحمد فارس

اليوم الآخر
في ظلال القرآن



مؤسسة الرسالة

اليوم الآخر

في ظلال القرآن

جميع وإعداد

أحمد فائز

مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة الرسالة
ولا يحق لأية جهة أن تطبع أو تعطي حق الطبع لأحد.
سواء كان مؤسسة رسمية أو أفراداً.

الطبعة السابعة عشر

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحية
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب. ٧٤٦٠، بركية، بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الله . والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصوراً ، وخلقاً ، وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً - إلا عليها وبها ..

إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه .. « يتكامل » ويتناسق فيه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية .. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة - في التصور الاسلامي - ليست هي الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة - في التصور الاسلامي - تمتد طويلاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة .. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة — في التصور الاسلامي — تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المحدودة المشهودة — فترة الحياة الدنيا — وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ، وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها إلا الله وتمتد الحياة في حقيقتها؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى . . في الجنة وفي النار سواء . . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا ولا تساوي الدنيا — بالقياس إليها — جناح بعوضة !

والشخصية الانسانية — في التصور الاسلامي — يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات ، ويتسع تصورهما للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الانساني ، ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات . . بينا أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضائل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الانساني ، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراهم في ذلك الحجر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !.

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم . . ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ؛ وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصوراً واعتقاداً وخلقاً وسلوكاً وشرعية ونظاماً . .

إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض يفوته ، ولا لجزء عما يفعله وما يفعله به .. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس ! إن اتساع التصور وعمقه ينشئ سعة في النفس وكبراً الاهتمامات ورفعة في المشاعر ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ، استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلاح خلق الفرد واستقام سلوكه — متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الاسلامي — وصلت الأوضاع والأنظمة، التي لا يتوكلها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يجرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يجرمهم كذلك العوض في الآخرة ! فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخالطون بين عقيدة الآخرة — كما هي في التصورات الكنسية — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . فالدنيا — في التصور الاسلامي — هي مزرعة الآخرة والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى . فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو

تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح وال عمران .. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سليبين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الإسلام — فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ؛ وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سليماً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان . إنما يزال المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيبتها أو يزهدها فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافع الشر والفساد والظلم محتلاً الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة .. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى . وكل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتخرج وتقوى ، وما تنشئه في النشاط الانساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الاسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة .

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لاتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتدادات الذات الانسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير

هذه الآماد المحسوسة . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراتهم . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . « العالمية » كما يصر أهلها على تسميتها ! « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

وكان الله — سبحانه — يعلم أن الإعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلتصق الإنسان بالأرض ، وتلتصق تصوره بالمحسوس منها كالبيمة .. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقلاها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات المابطة الصغيرة ، التي لاتكاد تبلغ نزوات البهيمة ! .. وهذه الأنظمة والأوضاع التي تنشأ في الأرض منظوراً إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان .. إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضاً ، وتصارع الطبقات بعضها بعضاً ، وتصارع الأجناس بعضها بعضاً . وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً عن انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهده اليوم في عالم « الحضارة » .. في كل مكان .. كان الله — سبحانه — يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدّر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة .. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ...

ولهذا كانت ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولاً لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشرعية ونظاماً .

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة

ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة .. كذلك هي ضرورة لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة ..

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس «الإنسان» وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك «الحيوان» ، وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة ! . لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً .. وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيادة الراشدة التي وعها التاريخ الإنساني ! .

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن .. الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ، فتفتح نوافذها وتستيقظ أجهزته الإستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقي والإستجابة .. ذلك كله فضلاً على أنها تمثل الحقيقة .

لإنها إيقاعات عنيفة عميقة . إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بينوّم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكاري مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بيلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من هذا القرآن بنذير واحد . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا تدبروا .. إن هنالك إلهاً . وإن

هنالك تقديرآ . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حساباً وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعيماً كبيراً . . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . وهكذا مرة أخرى . وثالثة . ورابعة وخامسة . . وعاشرة . . ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً ؛ ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ، وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب . وفي القرآن تركيز على مشاهد القيامة العنيفة الطامة . الصاخة . القارعة . الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تفرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في هولها وضخامتها . .

كثيرون هم المسلمون اليوم . . ولكن قليل من يؤمن بالآخرة عن يقين . . قليل من يخشى ذلك اليوم ويعمل له . .

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والاسلام عقيدة متحركة ، لا تطبق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالنبوع الأصل .

وكثيرون هم الذين يقولون . « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » . . يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيتولون ناكسين ؛ يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » . .

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم ، والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ، ثم يدعها ويمضي إنما هو تكيّف في النفس وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير .

يقول الحسن البصري « هيهات هيهات ، أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ،

ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استعملوا ، إنما دين أحدكم لعقّة على لسانه إذا سئل أمّؤمنين أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك الدين .

إن من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم وكتبساً في رفق ، وتحملاً في فاقة ، وقصداً في غنى ، وسفقة في نفقة ، ورحمة لجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، لا يلمز ولا يغمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه . . .

يقول بلال بن سعد : « عباد الرحمن : يُقال لأحدنا أحب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيُقال : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، ويقول سوف أعمل ، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل ، وأحب شيء إليه أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر عنه عرض الدنيا . » ويقول : « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء ، أنتم لم تخلقوا للفناء ، إنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم إلى الخلود في الجنة أو النار . .

إن صور الآخرة هي لإشعار البشر بهولها وضخامتها وجدّيتها ، وأصالتها في التقدير الإلهي ، إنها صور لذلك الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . فرُبّ مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار . فيا ويلاً له روحاً ، ويا ويلاً له جسداً .

يقول بلال بن سعد : « انكم تتكلمون ويوشك الله أن يتكلم وتسكتوا ، ثم يشور من أعمالكم دخانٌ تسود منه الوجوه » وانتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

« عباد الرحمن : لو غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو علمتم بما تعملون لكنتم عباد الله حقاً ! لكاننا قوم لا يعقلون ! لكاننا قوم لا يؤمنون !

« تنادى النار يوم القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتغي ، يا نار انضجي ، يا نار كئي ولا تقتلي ، يا نار سوّهي ! ويقول ميمون بن مهران : يا ابن آدم خفف عن ظهرك ، فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا وأكل مال هذا ، وستثم هذا .. كل هذا تحمله على ظهرك فتخفف ! » .

يقول الأوزاعي : « ليست ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها إلا انقطعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرّت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم وليلة مع ليلة ؟ » ..

فكّر فيما كنت تكابد من ألم الطاعة ، فإذا الألم سيذهب ويبقى الثواب ، وانظر فيما استمتعت به من لذة المعصية ، فإذا هو سيذهب ويبقى الحساب .. فستندم على كل لحظة لم تجعلها في طاعة .

إن المقاييس كلها تتبدل ساعة الموت ، وإذا كل ما كنت أحبه وأنازع عليه ، قد سار عدماً ! وإذا أنا لم آخذ منه معي شيئاً ، بنيت داراً فما حملت معي منه حجراً ، واقتنيت مالا فما كان لي منه إلا ما ظننت من قبل أني خسرتة ، وهو ما أخرجته لله ، وعرفت لذائذ الحياة كلها ، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت من لذائذ الحياة كلها ؟

ونحن لا نعرف من الموت إلا ظاهره دون حقيقته ، نراه عدماً ، وتندب القريب والحبيب إن وضعناه في حفرة باردة ، وخلصناه وحيداً ، تأكله الدود ، وليس حبيبك الذي أودعته الحفرة ، ولكن جسده ، والجسد ثوب يخلع بالموت ، كما تخلع الحية ثوبها ، فهل يبكي أحد على ثوب خلع ؟

وما الموت إلا انتقال إلى حياة أرحب وأوسع ، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل ، ولو كان الموت فناءً لكان نعمة .. فإذا كان الموت سفرة لا بد منها ، فالعاقل من تهيأ لها ، وأعد لها الزاد والراحلة ، وذكرها دائماً كيلا ينساها، ونظّر في كل شيء ، فإن كان بما يستطيع أن يحمله فيها حرص عليه ، وإن كان مجبراً على تركه وراءه زهّد فيه وانصرف عنه . ونحن في هذا العصر نرى أن المجتمعات الاسلامية قد افترستها المادية ، واستحوذت عليها الشهوات ، وأصبحت بالاغراق في الترف والامعان في الأماني .

ونحن في حاجة ملحة إلى مواظب الآخرة التي تكشف الغطاء عن العيون وتمسّ القلوب .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية ، وقد بَوَّبْتُهُ مستعيناً بهدي النبي ﷺ الذي كان الصورة الحية عن القرآن الكريم . وبهذا البيان القرآني والهدي النبوي أصبح العالم الآخر الذي وعدّه الله للناس بعد هذا العالم الحاضر ليس موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً .

لقد عاش المسلمون في ذلك العالم .. رأوا مشاهدته وتأثروا بها .. فلا بد لنا من استعراض مشاهد العالم الآخر حتى نؤمن به أنه ليس عالماً مستقبلاً بل واقعاً مشهوداً نقيم على أساسه كل تصوراتنا وكل أعمالنا ..

والله ولي التوفيق .

(١) وقد اعتمدت في تخريج الأحاديث الشريفة على جامع الأصول في احاديث الرسول ، وكتاب الترفيب والترهيب ، سائلاً الله التسديد والتصويب .

البَـئِـيِّنَاتُ الْـأَوَّلَى

طريق الآخرة

١ - أهمية الآخرة في التصور الاسلامي

إن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية ؛ قاعدة تقوم عليها العقيدة ، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله بالتوجه في هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء للعمل ، وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض فيؤجل للحساب الحتمي بعد نهاية الرحلة كلها . فلا بد إذن من عالم آخر ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر . وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الاسلام أبداً .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة لا يستقيم منهجها إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الانسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجبياً من قضية

البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور .. « وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآبائنا أإنا لنخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين » .. ولم تكن معجزة بدء الحياة التي لا تُنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة . وتستمرى الجحود والمعصية وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب ولا يعلم الغيب إلا الله .. « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيا ن يعثون ، بل ادرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

لقد وقف الانسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ اليه علمه ، ولا يعرف بما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وإلّا موعد البعث غيب فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقيناً ، ولا يشعرون به حين يقترب شعوراً . فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحد يعلمه في السموات ولا في الأرض ..

لقد كانت هذه العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائماً : أإذا فارقتنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت في القبور ، وصارت تراباً .. أإذا وقع هذا كله — وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة — أإذا وقع هذا وآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض اختلط رفاتنا بترابها فصار تراباً ؟ .

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً . ولا يدري أحد أين كانت الخلایا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى .

فلقد كانت مفارقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواء الفضاء ، فنها ما جاء

من تربة الأرض ، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبعث من جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره في الهواء .. ثم تمثلت هذه الخلايا في طعام يأكلونه ، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به .. ثم إذا هذا الشئ الذي لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصي مصادره إلا الله ، يتجمع في هيكل إنسان ، وهو ينمو من بويضة عالقة في رحم ، حتى يصير جسداً مسجى في كفن .. فهؤلاء في خلقهم أول مرة فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف .

وإنكار الذين كفروا بالآخرة ناشيء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء ، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته .. « قال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربى لتأتينكم » .. فكل من يدرك الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره .. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة . « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ! افترى على الله كذباً أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ..

هل ندلكم على رجل غريب عجيب ينطق بقول مستنكر بعيد ، حتى ليقول : إنكم بعد الموت والبلى والتمزيق الشديد تخلقون من جديد وتعودون للوجود . فما يقول هذا الكلام - بزعمهم - إلا كاذب يفترى على الله ما لم يقله .. فهو يهذي أو ينطق بالغريب العجيب ولم هذا كله ؟ لأنه يقول لهم : إنكم سوف تخلقون خلقاً جديداً ! وفي العجب وهم قد خلقوا ابتداءً ؟ إنهم لا ينظرون هذه النظرة العجيبة الواقعة وعجيبة خلقهم الأول . ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد ، ولكنهم ضالون لا يهتدون .

إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء ، ولا عوض عما يلقاه في الحياة . وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء ، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر ، الذي لاتضيع فيه صغيرة ولا كبيرة . والذي يحرم هذه النافذة المضيئة النذية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال . يعيش فيها وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه .

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى . إن الحياة في نظر الذين لا يؤمنون بالآخرة هي هذا الشوط الذي يروونه في الدنيا رأي العين . جيل يموت وجيل يحيا . وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد الموت ، إنما هي الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات ، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون . . « وقالوا : ما هم إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر ، ولا تبحث عما وراءها من أسرار . وإلا فمن أين جاءت إليهم الحياة ، وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ، والموت لا ينال الأجسام وفق نظام محدود وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة . فالأطفال يموتون كالشيوخ ، والأصحاء يموتون كالمرضى ، والأقوياء يموتون كالضعفاء . ولا يصلح الدهر إذن تفسيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ويحاول أن يعرف وأن يدرك حقيقة الأسباب . إنهم يظنون ظناً واهياً ، لا يقوم على تدبر ولا يستند إلى علم .

٢ - حقيقة الآخرة وأثرها في النفس الانسانية

ما أقصه الحياة الدنيا وما أضيفها حين تمس النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ؛ ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة .

إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الغاني ، المحدود الأجل الواسع الأمل . وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة — فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى — هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يفد عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعوداً إلى جوار الله .

والإعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفسي القلق والسخط والقنوط .. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض ، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة .. إن الحساب الختامي هناك ، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزات الله . ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لا بد واقع . وما الله يريد ظمأً للعباد . والإعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات ، بلا تخرج ولا حياء . فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت . وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ، وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود .

إن القرآن يلمس القلب البشري لمسة قوية ، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من ماله الأوائل وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك .. يقول — سبحانه — : .. « ثم جعلناكم فئاتاً في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

لأنها أيام يقضيها الإنسان فيه ، بمتحناً بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسباً

على ما يكسب بعد بقاء فيه قليل .. إن هذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري .. فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى ، هي صمام الأمن له وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه .

إن شعور الانسان أنه مبتلى ومنتحن بأبامه التي يقضيها على الأرض ، وبكل شيء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاعتزاز والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الدنيا ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه ومنتحن فيه وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به والتي يصورها قول الله — سبحانه — : .. « لننظر كيف تعملون » .. ليجعله شديد التوقي ، شديد الحذر ، شديد الرغبة في الاحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان !

وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الاسلام في القلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية ، والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها !.. فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الاسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة .. لا يمكن أن يلتقي في تصوره للحياة ، ولا في خلق ، ولا في حركة ، كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان !

والحياة في الاسلام حياة متكاملة القواعد والأركان . ويكفي أن نذكر فقط مثل هذه الحقيقة الأساسية في التصور الاسلامي وما ينشأ عنها من آثار في حركة الفرد والجماعة .. وهي من ثم لا يمكن خلطها بحياة تقوم على غير هذه الحقيقة ، ولا بمنتجات هذه الحياة أيضاً .

والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لا كتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ، ومن ثم لا بد أن يلقي جزاءه ، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها . أما الذين يزيغون عن منهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب .. وفي هذا ضمان للفطرة السليمة

ألا تنحرف . فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلج في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر ، وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير . فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الآخرة فحسب — كما يعتقد بعض الناس — إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا . والحافز على إصلاحها وإغنائها . على أن يراعى في هذا البناء أنه ليس هدفاً في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتحقيق حياة لا ثقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرّمه على كثير من خلقه ، ورفعته عن درك الحيوان ، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحيوانات ، ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته . وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ، والتي تشعر الإنسان أنه ليس لقي مهماً ، وأنه لم يخلق عبثاً . ولن يترك سدى ، وإن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، ويفي إلى إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود . وكل صفة من هذه الصفات ذات قيمة في الحياة الإنسانية . ومن ثم كانت هي صفة من صفات المؤمنين .

وهناك تساوق وتناسق بين صفات المؤمنين جميعاً ، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة يقول الله سبحانه : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

فالتقوى شعور في الضمير ، وحالة في الوجدان ، تنبتق منها اتجاهات وأعمال ، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره . وتشف معها الروح فتقل الحجب بينها وبين الكلّي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة ، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول . ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين

الظاهر والباطن ، فإن الايمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة ، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه . ومع التقوى والايمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها ، وجعلها صلة بين العبد والرب . ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين .

واليقين بالآخرة هو الضمان لبقظة القلب البشري وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الدنيا ، ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليل ، والوصول إلى درجة الاحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقال تعالى : « ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

تصور . . وتصور

إن الايمان بالآخرة والتصديق بيوم الدين ترسم خطأ أساسياً في ملامح النفس المؤمنة يقول سبحانه عن المؤمنين : « والذين يصدقون بيوم الدين » . فالتصديق بيوم الدين شطر الايمان وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .

المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا . ويقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات ، نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها .

والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، يتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينظر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة ، وهو بالئس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في

هذا الشطر من الحياة يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، وقد لا يكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً ما لم يضاف إليه حساب الشطر الآخر ، وهو أكبر وأطول ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحاً . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الايمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الاسلام .

ودرجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون » .

درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جنباب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله ﷺ - وهو من عند الله - وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله ، وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمته . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحداً عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمديني الله برحمته » (١) . والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته واضحة . وباب التوبة مفتوح ليس عليه مغالقة ! وهذا هو قوام الأمر في الاسلام بين الغفلة والقلق . والاسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصل بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال . والمؤمن أبداً في خوف من الآخرة ، يقول الله سبحانه : « آمن هو قانت آتاه الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

إنها صورة القلب الخائف الرجل الذي يذكر الله ولا ينساه في السراء والضراء ، والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة ، وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله . وهذه الحساسية المرهفة - وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - وهذا الصفاء وهذه

(١) رواه الشيخان والنسائي .

الشفافية التي تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي . هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر . إنه القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجبة الحاسمة . هذا هو الطريق .

إن الايمان بالآخرة هو أحد مقتضيات الايمان بالله وفق التصور الاسلامي . فالمصير اليه في كل عمل . فلا ملجأ من الله إلا اليه ، ولا عاصم من قدره ، ولا مرد لقضائه ولا نجاة من عقابه إلا برحمته وغفرانه . والمؤمن أبدأ في خوف من عذاب الله يوم القيامة في وجل من ناره يناديه : « فَمِنَّا عَذَابُ النَّارِ » .

إن إدراك الحق في تصميم هذا الكون وفي ظواهره ، معناه - عند أولي الألباب - أن هناك تقديرآ وتديبرآ ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقآ وعدلاً وراء حياة الناس في هذا الكوكب . ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقوم الناس من أعمال ، ولا بد إذن من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل في الجزاء . لذا يتجهون إلى ربهم ليقبهم عذاب النار .

لأنها تشي بأن خوفهم من النار ، إنما هو خوف - قبل كل شيء - من الخزي الذي يصيب أهل النار . وهذه الرجفة التي تصيبهم هي أولاً رجفة الحياء من الخزي الذي ينال أهل النار ، فهي ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، فهي أشد حساسية به من لزع النار ! كما أنها تشي بشعورهم القوي بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالمهم من أنصار .

والايمان باليوم الآخر هو الايمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء ، وبأن حياة الانسان على هذه الأرض ليست سدى ، ولا فوزى بغير ميزان . وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء .

وشعور الانسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة وبمجازيه بغير من تصوراته ومن حوافزه ومن أهدافه ، ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن

ثم يقوى الانسان ويسيطر على تصرفات هذا الكائن ، لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي .

إنها مسألة كبيرة هذا الايمان والايمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنما إما أن تكون فيكون « الانسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان .

وحين تفرق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام . ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صعبة أو شركة أو تعارف ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

وهو موجه ابتداء إلى الرسول ﷺ - وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من تولى عن ذكر الله ويعرض عن الايمان به ، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الانسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ، ويقم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الانسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة

والمؤمن بالله وبالاخرة لا يستطيع أن يشغل باله - فضلاً على أن يعامل أو يعايش - من يعرض عن ذكر الله ، وينفي الآخرة من حسابه ، لأن لكل منها منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف في تصور كل منها ، فلا يمكن إذن أن نتعاون في الحياة أي تعاون ، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ،

وغاية هذا النشاط ، وما دام التعاون والمشاركة متعدين فما داعي الاهتمام والاحتفال ؟
إن المؤمن يبعث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون
إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التي وهبها الله إياها في غير موضعها .

٣ - قدرة الله على الحياة الأخرى

لقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن
أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب
الله يوم البعث والحساب ، يقول الله سبحانه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله
من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « إننا قولنا لشيء
إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

لأنهم يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلبلى وتفروق الأشلاء والذرات .
وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى .. وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى
تصورات البشر وطاقاتهم ، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً فيكفي أن تتوجه
الإرادة إلى كون الشيء فيكون .

إن قضية البعث إحدى قضايا العقيدة الإسلامية التي لقيت جدلاً شديداً في كل
عصر ومع كل رسول . وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه . « والله غيب
السماوات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل
شيء قدير » .

إن البشر يقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضي .
وإن أعلم العلماء من البشر ليقف مكانه لا يدري ما ذا سيكون اللحظة التالية في ذات
نفسه . أيرتد نفسه الذي خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالإنسان كل
مذهب وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدري متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة
والساعة من هذا الغيب المستور . ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة أو اختلت

ولما سارت الحياة وفق الحُط الذي رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود . « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فهي قريب ، ولكن في حساب غير حساب البشر بالمعلوم . وتدير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين ، فإذا هي حاضرة مهية بكل أسبابها . وبعث هذه الحشود التي يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها وجمعها ، وحسابها وجزاؤها ، كله حين على تلك القدرة التي تقول للشيء : « كن فيكون » . إنما يستهول الأمر ويستعجه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر ، ومن هنا يخطئون التصور والتقدير .

يقول الامام الغزالي (١) : إياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها ، وفي طبع الآدمي ! إنكار كل ما لم يأنس به ! ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوان ، وقيل له : إن له صانعاً يصنع من النطفة القدرة مثل هذا الآدمي ، المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الايمان بالنظر في النشأة الأولى ، « أيجب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مَتْنٍ يعني ؟ ثم كان علقه فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » بلى إن الله على كل شيء قدير .

يقول الله سبحانه : « وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أإننا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

(١) الاحياء ١٦ : ٢٥ و ٣٠ .

قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً بما يكبر في صدوركم . فيقولون : من يعيدنا؟
قل : الذي فطركم أول مرة فيسُنْغِضُون اليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو . قل عسى
أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً .

وفد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشر كين مع
بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر .
إن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى ، وإنه لا شيء أمام القدرة
الالهية أعسر من شيء . وأداة الخلق واحدة في كل شيء « كن فيكون » فيستوي أن
يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .
والله سبحانه يرد على هؤلاء بعجب : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً بما يكبر
في صدوركم » والعظام والرفات فيها راحة البشرية وفيها ذكرى الحياة ، والحديد
والحجارة أبعد عن الحياة ، فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر أو غل في
البعد عن الحياة من الحجارة والحديد بما يكبر في صدوركم أن تتصوره وقد نفخت فيه
الحياة . فسيبعثكم الله ، وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر
ولكنه قول للتحدي ، وفيه كذلك ظل التقريع والتوبيخ ، فالحجارة والحديد جماد
لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر ...
يقولون من يعيدنا ؟ من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتاً وعظاماً ، أو خلقاً آخر أشد
إيغالاً في الموت والجمود . فيرد عليهم بأن يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح .
فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياء ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون ..
ويقولون متى هو ؟ استبعاداً لهذا الحادث واستنكاراً .

واليوم قريب حيث يبعث هؤلاء وقد قاموا يلبنون دعوة الداع وتنطوي الحياة
الدنيا كما ينطوي الظل فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلها في النفس ، وصورها
في الحس ، إلا أنها مرت . وعهد زال ، وظل تحول ، ومتاع قليل . « وتظنون إن لبثتم
إلا قليلاً » .

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابسها .

وكما يخرج الله الحياة من الموات في هذه الأرض ، فكذلك يخرج الحياة من الموات في نهاية المطاف . « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج المواتي لعلكم تذكرون » .

إن المشيئة التي تثبت الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض ، هي المشيئة التي ترد الحياة في الموات . وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا ، هو ذاته القدر الذي يجري بجريان الحياة في الموات مرة أخرى ..

ولكن الغفلة عن النشأة الأولى تستهول هذا الأمر بقول سبحانه : « ويقول الانسان : إذا ما متُّ لسوف أخرج حياً ؟ » .. إنه اعتراض منشؤه غفلة الانسان عن نشأته الأولى . فإين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبحث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر .. « أولاً يذكر الانسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » ..

والله سبحانه يقسم قسماً تهديدياً . يقسم الله تعالى بنفسه . وهو أعظم قسم وأجله ، أنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه : « فوبرئ لنعشرنهم » .. ولن يكونوا وحدهم فلنعشرنهم والسياطين . فهم والسياطين سواء والسياطين هم الذين يوسوسون بالانكار ، وبينها صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . إن القرآن الكريم يخاطب فطرة الناس في أمر البعث يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموات وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » .

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ، ولكنهم هم الذين يرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين . .

إن البعث إعادة حياة كانت ، فهو في تقدير البشر - أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن - بالقياس إلى قدرة الله - شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالأعادة أثر لتوجه الإرادة . . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . .

ولكن القرآن يأخذ البشر بقياسهم ، ومنطقهم وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم في كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ، وهو من الحوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ وما لهم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟ . . . « فإنا خلقناكم من تراب » والانسان إن هذه الأرض ، من ترابها نشأ ومن ترابها تكون ، ومن ترابها عاش ، وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض ، اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ، وبه افترق عن عناصر ذلك التراب ، ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلًا وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب . ولكن أين التراب وأين الانسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخليق المسوى المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذي يضع قدميه على الأرض ، ويرف بقلبه إلى السماء ، ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب .

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضم في طياتها النثر الأعظم ، سر الحياة . السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات الملايين ، والذي لا سبيل إلا أكثر من

ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الانسان ، وتعلق بأهداب الحال . ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النقطة إلى علقه ، وتحول العلقه إلى مضغة وتحول المضغة إلى إنسان . . فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة ؟ وإن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الانسان المعقد المركب ، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر ، فلا يتأثل إثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان . ألا إنها المسافة التي لا يعبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . فدلالة هذه الأطوار على البعث تدل من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة .

إن الغافلين المطموسين لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير في أطوارها للوصول إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض . فالخير لا يلقي جزاءه الكامل في الحياة الدنيا ، والشر كذلك . إنما يستكمل هذا الجزاء هنالك ، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى ، التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحول فيها ولا زوال — إلا أن يشاء الله — ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تهدر فيها آدميتهم ، ويرتدون فيها أحجاراً ، أو كالأحجار . يقول سبحانه عن هؤلاء الغافلين : « أيعذّبكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ؟ هيئات هيئات لما توعدون : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن ببعوثين » .

مثل هؤلاء لا يدركون معاني الحياة ، ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبهلى كما يظنون . . لذلك هم يستعجبون من ذلك الذي يعدمهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد . يموت جيل ويحيا بعده جيل . فأما الذين مانوا وصاروا تراباً وعظاماً ، فهذه هيئات الحياة لهم ! وهيئات وهيئات البعث الذي يعدمهم به ، وقد صاروا عظاماً ورفاتاً .

إنها حقيقة بسيطة واضحة .. « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » .. حقيقة بسيطة واضحة ، والترابط بين جزئها أو بين حلقتيها واضح كذلك . فالإعادة كالبدا لا غرابة فيها . وهما حلقتان في سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة في النهاية إلى رب العالمين ، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم في النهاية على ما يعملون .

إن الإسلام يوضح هذا الموضوع بالبساطة وينطق الفطرة يقول الله سبحانه : « وَلَمَّا تَرَى الْإِنسَانَ أَنَّهُ خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . »

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا .. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنيناً ، ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل . والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة الخصم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! فهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتشره بعد البلى والدثور ؟

يا للبساطة ! يا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور ! وهل تريد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أو ليس الذي حيَّو تلك النطفة إنساناً ، وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال ، فما بال الجدل الطويل ؟ . « قل يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .. « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

إن الله - سبحانه - يخلق بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير .. يكون هذا الشيء سماء أو أرضاً ، ويكون بعوضة أو نحلاً .

هذا وذاك سواء أمام الكلمة .. كن .. فيكون ! ليس هناك صعب ولا سهل .
وليس هناك قريب ولا بعيد .. فَتَوَجَّهُ الارادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده
كائناً ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدر كوها بمقياسهم البشري المحدود .
وقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا تراباً وعظاماً ! وما في
هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ، لمن يتأمل هذا الواقع
ويتدبره أقل تدبير . « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ،
« قل نعم وأنتم داخرون » .

ثم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ، ستبعثون وأنتم داخرون ، ذلولون ،
مستسلمون ، غير مستعصين ولا متأبين . نعم « فإنما هي زجوة واحدة فإذا هم ينظرون »
هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة . تسمى زجرة للدلالة على لون
من الشدة فيها ، والعنف في توجيهها ، والاستعلاء في مصدرها .. فإذا هم ينظرون ..
فجأة وبلا تمهيد أو تحضير ، وإذا هم يصيحون مبهوتين . « قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين »
وبينا هم في بهتهم وبغتهم إذا صوت يحمل اليهم التقريع من حيث لا يتوقعون « هذا
يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » .

لقد كانت المشكلة الشعورية عند المشر كين هو صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية
الذاهبة في التراب ، المتفرقة في الثرى ، لاعادة بعث الانسان حياً ! ولعلها لا تزال
كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام
مؤكداً وقوعه « أيجيب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه »
والبنان أطراف الأصابع ، والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد
جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن اعاده
التكوين الانساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضع منه بنان ، ولا تختل من مكانها .
إن الذي خلق أول مرة لقادر على اعادة الحياة . بلى سبحانه ! فإنه لقادر على أن
يحیی الموتى ، فإنه لقادر على النشأة الأخرى ، بلى سبحانه فإنه لقادر على النشأة الأخرى !
بلى سبحانه ! وما يملك الانسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً .

إن الله الذي أنشأ الإنسان ورعاه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى . « فليَنظُر الإنسان مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ من ماء دافقٍ يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر » هناك تبلى السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة .. يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الحافظ إلى النفس المغلقة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر . ما له من قوة في ذاته ، وما له من ناصر خارج ذاته .

٤ — فردية التبعة

انطلقت البشرية من هناك ، من عند ربها سبحانه ، انطلقت إلى الأرض ، تعمل وتسعى ، وتكد وتثقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذي لا ينبو منه شقي ولا سعيد ، ثم هاهي ذي تؤوب ، هاهي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال ، هاهي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة من ورد وشوك ، من غال ورخيص ، من ثمين وزهيد ، من خير وشر ، ومن حسنات وسيئات .

هاهي ذي تعود في أصيل اليوم ، فقد انطلقت في مطلعها ، هاهي ذي عائدة إلى ربها بما معها موقورة الظهور بالأعمال ، تطلع في الطريق وقد بلغ منها الجهد ، وأضناها المسير ، حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب في خشية ووجل ، إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً ، إن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، وكل فرد على حدة يلاقي حسابه ، ويلقى جزاءه . يقول سبحانه : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » ، لقد جاءت هذه الرسالة تعلق رشد البشرية وتضع على كاهلها عبء الاختيار ، وتعلن مبدأ التبعة الفردية ولمن شاء أن يختار . وحقيقة كبيرة ، حقيقة فردية التبعة ،

والجزء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً . « ولا تتركوا وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

وحقيقة فردية التبعية والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء ، فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا » .

وقد ضرب الله بذلك مثلاً : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية « وأندر عشرينك الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمم وخص ، فقال : يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ^(١) .

كما أنه — في الوقت ذاته — عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ، فيعطش ويبش من جدوى عمله الفردي العليل . ما دام قد أدى واجبه في النصيح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فرداً فرداً ، كل على عمله وفي حدود واجبه ، ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء في الجماعة التي يعيش فيها ، وإنما هو محاسب على إحسانه ، كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح ، فالله لا يحاسب عباده بالقائمة .

(١) رواد مسلم والبخاري والترمذي والنسائي .

إن كل نفس حاملة حملها ، فلا تحمل نفس حمل أخرى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزد وازدة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً ، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها .

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزان ! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والاعياء . واهتمام كل بحمله وثقله وانشغاله عن البعداء والأقرباء ، والله هو المحاسب فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيئ ، ولا يوكل بالحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمورها ولا تتلفت إلى سواها . « يوم تأتي كل نفس زاهية ذلك يوم تشغل كل نفس بأمورها ولا تتلفت إلى سواها . » يوم تأتي كل نفس زاهية تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ، وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه ، ويجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، فالتبعة فردية ، والحساب شخصي ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً ، « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

هذا هو المبدأ الاسلامي العظيم ، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الارادة والتمييز من الانسان ، وعلى العدل المطلق من الله ، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الانسان بكرامته ، والتي تستجيب اليقظة الدائمة في ضميره ، وكلاهما عامل من عوامل التربية ، ولا شفاعاة تنفع يومئذ من لم يقدم ايماناً وعملاً صالحاً ، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته ، فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه .

فردية التبعة فلا تنال نفس إلا ما كسبت ، ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت . « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، فردية التبعة ، ورجعة كل انسان إلى ربه ، بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه ، فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظرون أحد ، ورجعة الناس إلى ربهم فرادى من شأنها — حين يستيقنها القلب — أن تجعل كل

فرد وحدة إيجابية لا تنزل عن حق الله فيها لأحد من عباده إلا بالحق ، وتقف كل إنسان مدافعاً عن حق الله فيه تجاه كل إغراء ، وكل طغيان ، وكل ضلال وكل فساد ، فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها - وحق الله فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه ، وعبوديتها له وحده شعوراً وسلوكاً - فإذا قرّط في هذا الحق لأحد من العبيد تحت الإغراء والاضلال أو تحت القهر والطغيان - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - فما أحد من تلك العبيد يدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له ؛ وما أحد من تلك العبيد بمجامل عنه شيئاً من وزره ولا ناصر له من الله في اليوم الآخر . ومن ثم يستأسد كل إنسان في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ، ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً !

ولا خوف من هذه الفردية - في هذا المقام - فن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه ، بوصفه طرفاً من حق الله في نفسه ، فهو مأموران يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه ، وفي جهده ونصحه ، وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل ، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر ، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقي الله فرداً فيتلقي هنالك جزاءه . « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » وليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤذيها النفس عن نفسها ، فالإسلام يقرر فردية التبعة ، وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » . القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ، والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، فلا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء ، فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها وإن ضل فعليها : « من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يسأل كل عن عمله ويجزى كل بعمله « ولا يسأل حليم حيمياً » .

فهو ذلك اليوم يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويجول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قرى ومن كل وشيجة . « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » .

تقطع أواصر القرى والدم ، ووسائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد ، وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزي أحد عن أحد ، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس ، فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب . .

إن وعد الله حق ، فلا يخلف ولا يتخلف ، ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد فكل فرد مأخوذ بعمله محاسب على كسبه ولا يحمل أحد عبء أحد . فكل وعبه والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه ، ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره ولا يخفى عليه من أمركم . .

هذه هي العاقبة . . (ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) . .

هذا هو مفرق الطريق ولكل أن يختار عن بينة وعن تدبر وبعد العلم والتفكير : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » . إنها فردية التبعة وعدالة الجزاء . فلا تحمل نفس حمل أخرى ولا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى « ألا تزر وازرة وزر أخرى » فلا تملك نفس أن تخفف من حملها ووزرها . لا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » كذلك فما يحسب للإنسان إلا كسبه وعمله ، لا يزداد عليه شيء من عمل غيره ولا ينقص منه شيء لينال غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهب

الفرصة وانقطع العمل إلا ما نصّ عليه حديث رسول الله ﷺ في قوله : « من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به » (١)

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ — أمته ولا حشّهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كانت خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف به بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك يجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها . (ابن كثير في التفسير)

« وأن سعيه سوف يرى » فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ، ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وأياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء فتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ، كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل، وتتحقق له كذلك العظماينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ولا يقعد بها التصور ، ولا ينقص منها الجهل بمقائق الأمور . إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة ، يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . وهناك تنقطع الوشائج « لن تنفككم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة ، وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة .

إن الناس في همّ شاغل هناك في الآخرة لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة .

وحبس النفوس على مهمل لا يتعداه ، وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض ..
« يُبْصَرُونَهُمْ » .. كأنما قصداً وعمداً ! ولكن لكل منهم همته ، ولكل ضمير
منهم شغله . فلا يهجم في خاطر صديق أن يسأل صديق عن حاله ، ولا يسأله عون .
فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع ..
فما بال المجرم ؟ « يُبْصَرُونَهُمْ » يود المجرم لو يقتدي من عذاب يومئذ ببنيه
وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظي
نزاعة للشوى .

فما بال المجرم ؟ إنه الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليوذ
لو يقتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ،
ويناضل عنهم ، ويعيش لهم .. ببنيه . وزوجه . وأخيه . وعشيرته القريبة التي تؤويه
وتحميه ، بل إن لهفة على النجاة لتفقد الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يقتدي
بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، وهي صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة
الجاحية في الافلات .

صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفرع .. وبينما المجرم في هذه
الحال ، يتمنى ذلك الحال ، يسمع ما يبش ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل
حديث خادع من النفس . كما يسمع الملاً جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه « كلا إنها
لظي نزاعة للشوى » . إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً ، بعدما أذهلها كرب الموقف
وهوله .. « كلا » .. في ردع عن تلك الأمانات المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج
والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً ..

إنها تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ، وللنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ،
وهي مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها ، « لمن شاء منكم أن
يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » ..

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعاتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم
بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد
بين الله طريقه لتسلك إليه على بصيرة .

والهول هناك يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ويستبد بها استبداداً . فلكلّ نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من المهمّ الخاص به ، والذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد ، « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ..
إنه المهمّ الذي يُشغل الحسّ والضمير . ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم .

هـ - فرصة النجاة

يقول الله سبحانه : .. « وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعو أحسنَ ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » ..
الإجابة . والاسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . فمن أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإجابة من الضالين فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . ليأت ويدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء : كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب .. هيا . هيا قبل فوات الأوان . فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا . هيا . قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط في حق الله ، وعلى السخرية بوعده الله : « أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » ، أو تقول إن الله كتب علي الضلال ولو كتب علي الهدى لاهتديت واتقيت « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » ..

وهي علاقة لا أصل لها . فالفرصة ها هي ذي سائحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح !

« أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » ، وهي أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت

والترذيل : « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » .
فهنالك لا تنفع المعذرة « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .
والظالمون سيكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء « وترى الظالمين لما
رأوا العذاب يقولون : هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ؟ وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من
الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا إنا الحاسرين الذين خسروا
أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .

إنهم يرون العذاب ، فتنهاوى كبرياؤهم ، ويتساءلون في انكسار : « هل إلى
مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس . مع اللفظة ، والانهياء مع التطلع إلى
أية بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء ، ولكن
من الذل والهوان ؟ وهم يعرضون منكسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار
« ينظرون من طرف خفي » ، وهي صورة شاخصة ذليلة . ثم يعرض الهول النفسي
الذي يفرض الصمت والكظم « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتدون » فالهول
هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والحشوع المهيب ، الذي لا يتخلله
كلام ولا يقطعه اعتذار فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار . وفي مشاهد
أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم ، واليوم طويل يكون فيه هذا
ويكون فيه ذاك ، على ما قال ابن عباس رضي الله عنه . ولكنه هنا يثبت هذه
اللقطة الصامتة الرهيبة . « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين » .

هذا يوم الفصل . لا يوم الاعتذار ، فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم
قدرة على شيء فافعلوه ، ولا تدبير ولا قدرة ، إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب
الأليم . « ويل يومئذ للمكذبين » ، « فأي حديث بعده يؤمنون » والذي لا يؤمن
بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن . بحديث
بعده أبداً ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس .
إن يوم القيامة هو يوم الجزاء لا يوم الاعتذار يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين
كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تحجزون ما كنتم تعملون » .

هائم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم على جهنم وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يُجَبَّهون بالتيئيس . لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد علمتم ما تجزون عليه بهذه النار . « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » ، فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم فيما فعلوه ، أو يطلب اليهم الاعتذار ، فالיום يوم العقاب لا يوم العتاب .

إن القرآن يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يعلن المجرمون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذي جاءهم به الدعوة ، ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ، ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئاً ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم — قبل فوات الأوان — لقول الكلمة التي سيقولونها في الموقف العصيب فيقولوها الآن في وقتها المطلوب : « ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

إنه مشهد الحزي والاعتراف بالخطيئة ، والاقرار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكّوا منه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى . وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً ، عند ربهم ، الذين كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا . ولكن هذا كله يحمي بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا اعلان .

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسوا رؤوسهم ، هؤلاء بمن حق القول . « ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » ، يرمكم هذا الحاضر . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت ، ذوقوا : « إنا نسيناكم » ، والله لا ينسى أحداً ، ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة ، وفيها إهمال وفيها ازدراء .

والمشهد يُعرض وراء المشهد لعلمهم يستيقظون ويعودون : « ولوترى إذ فرغوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأننى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغييب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب » .

ولو ترى فالمشهد معروض للأنظار ، إذ فزعوا من الهول الذي فوجئوا به وكأنما أرادوا الإفلات ، ولا إفلات وأخذوا من مكان قريب ، ولم يبعدوا في محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة . وقالوا آمنا به ، الآن بعد فوات الأوان ، وكيف يتناولون الايمان من مكانهم هذا ، ومكان الايمان بعيد عنهم فقد كان ذلك في الدنيا ، فضيعوه وقد كفروا به من قبل ، فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم . إن حوادث القيامة وأهوالها هي التي دعته لهذا الايمان ، دعتهم للتذكرة « كلا إذا دُكَّت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي » .

ودك الأرض ، تحطم معالمها وتسويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة ، ويرسم من وراء هذه الآيات الشديدة الأسر ، مشهد ترتجف له القلوب ونخشع له الأبصار . والأرض تدك دكاً !

والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، وتقف الملائكة صفاً صفاً ، ثم ميجاء بجهنم فتقف هي الأخرى متأهبة . « يومئذ يتذكر الانسان » ، يتذكر الانسان الحق ويتعظ بما يرى ولكن لقد فات الأوان . « وأنى له الذكرى » ، ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحداً ، وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا ، وحين تتجلى له هذه الحقيقة يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها ، يا ليتني ، أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقصى ما يملكه الانسان في الآخرة ، ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » .

إن الله القهار الجبار الذي يعذب يومئذ عذابه الفد الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفد الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه لا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو من عذاب الخلق جميعاً ووثاقهم ، إنه الهول المروع الذي يتجاوز كل تصور . إن الحياة الدنيا متاع ، متاع مقدر بدقة وإحكام ، ولكنه متاع ، متاع ينتهي

إلى أجله ، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء ، وطمت كل شيء ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المتين المقدر المنظم ، على السماء المبنية والأرض المدحورة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل مكان من مصارع ومواقع فهي أكبر من هذا كله ، وهي نظم على هذا كله .

عندئذ يتذكر الانسان ما سعى يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه ، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيد التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما واءه من العذاب والبلوى ! ومن ثم تبرز الجحيم ، « وبُورزت الجحيم لمن يرى » في بارزة مكشوفة لكل ذي نظر ، عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا » والطغيان أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى ، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة ، فيعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره ، فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده ، واختلت كل القيم في تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته ، وعُدَّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للهدى ، فأما هذا فإن الجحيم هي المأوى ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فات الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » إن أحداث القيامة أمور هائلة رهيبة ، قلَّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . فهناك يُشمر عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشد الكرب والضييق . « يوم يكشف عن ساق^(١) ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » .

(١) ساق الشيء أصله . قال الشيخ إكوثري فيما علقته على « دَفْعِ شُبْهَةِ التَّشْبِيهِ » لابن الجوزي ص ١٤ عند ذكر قوله تعالى « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » قال رحمه الله تعالى : « في محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى قال أبو سعيد الضرير : أي يكشف عن أصل الامر . وساق الشيء أصله الذي به قوامه . »

إنه تعبير عن الشدة والكرب حين يدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يمكن السجود ، إما لأن وقت قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقتعري رؤوسهم » ، وكأن أجسامهم وأعضابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتجدي الخفيف .

هؤلاء المتكبرون المتبجحون ، والأبصار الحاشعة والدلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشاحنة والكبرياء المنفوخة . إنه موقف مرهق ذليل ، وفي هذا الموقف يذكركم بما جرم إليهم من إعراض واستكبار ، « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .

= كساق الشجرة وساق الانسان . اي تظهر يوم القيامة حقائق الاشياء وأصولها . فالساق بمعنى اصل الامر وحقيقته ، استعارة من ساق الشجرة . انتهى كلام الكوثري .

وقال المفسر الألوسي عليه الرحمة في روح المعاني ٩ : ١٤٦ « وقيل : ساق الشيء أصله الذي به قيامه ، كساق الشجرة وساق الانسان ، والمراد يوم يكشف عن أصل الامر فتظهر حقائق الامور وأصولها بحيث تصير عيانا ، واليه يشير كلام الربيع بن أنس ، فقد أخرج عبد بن حميد عنه انه قال : في ذلك اليوم يكشف الغطاء ، وكذا أخرجه البيهقي عن ابن عباس أيضا قال : حين يكشف الامر وتبدو الاعمال » . انتهى .

فالمعنى هنا : في ذلك اليوم الذي يلقي الله فيه عباده جميعا يكشف عن أصل الامر وحقيقته فيهم ، فيظهر ايمان المؤمن على حقيقته ، ونفاق المنافق على حقيقته ، وينتفي التديليس والخداع الذي كان من المنافقين في الدنيا .

فلذا يخبر المؤمنين بالله سجدوا كما كانوا يسجدون له في الدنيا ، ولا يستطيع المنافقون السجود وقد كانوا في الدنيا يسجدون ولكن رياء وسُـمعة ! ذلك لأن الآخرة دار الحق ، لا يقع فيها الا الحق والصدق دون تلبيس أو تدليس .

وانما بقي المنافقون مختلطين في ذلك اليوم بالمؤمنين ظناً منهم أن نفاقهم يبقى مستورا في الآخرة كما كان مستورا في الدنيا ، وظناً منهم أن تستترهم بالمؤمنين ينفعهم في دار الحق كما كان ينفعهم في دار الدنيا جهلا منهم بحقيقة الآخرة والفرق ما بين الدارين . ولقد ظنوا أيضا أنهم اذا تأخروا واستبقوا أنفسهم مع المؤمنين الصادقين أفادهم ذلك . بناء على ما كانوا يظهرونه في الدنيا ، فلما امتحنهم الله بالسجود له سبحانه فما استطاعوا : تميز حينذاك الحق من الباطل والمؤمن من المنافق ، والساجد من الجاحد . نسال الله السلامة .

وفي صحيح مسلم ٣ : ٢٧ من حديث أبي سعيد الخدري قوله صلى الله عليه وسلم : « فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن الله له بالسجود - أي سهّل له وهوّن عليه - ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه » .

قادرين على السجود . فكانوا يأتون ويستكبرون ، كانوا ، فهم الآن في المشهد المرهق
الذليل ، والدنيا وراءهم ، وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، وبينما هم في
الكرب يحيشهم التهديد الرعب الذي يهد القلوب « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث »
وهو تهديد مزلزل ، والجبار القوي المتين يقول للرسول ﷺ : خُلِّ بيني وبين من
يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل ومن هو هذا الذي يكذب ؟ إنه
ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة ، بل هذه الهبالة
المنشورة ، بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم !
يا محمد ، خُلِّ بيني وبين هذا المخلوق ، فالجرب معي ، وهذا المخلوق عدوي ،
وأنا سأتولى أمره فدعه لي ، وذرني معه ، أي هول مزلزل للمكذبين .

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملئ لهم إن كيدي متين » ، وإت شأن
المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير ،
ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدرخوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، وليلعنوا أن الأمان
الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارثون ، وإن إلهامهم على الظلم
والبغي والاعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تديبر من الله
ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخي والرمق
والتعذيب ، وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتديبر ، عدلاً ولا رحمة .
والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير
وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضعت الأمور . إنه سبحانه
يمهل ولا يهمل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، فيعلم لا يخيفهم ما ينتظرهم فيه .
فهل اطلعوا على الغيب وكتبوه وعرفوه أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه ، فكتبوه
ضامناً لما يشتهون ، « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ، إن الله سبحانه يرسم لهؤلاء
مشهداً كئيباً مكروباً : « ولو ترى إذ وقِفُوا على النار فقالوا : يا ليتنا نردو لا نكذب
بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا
لعادوا لما نهوا عنه ولمنهم لكاذبون » .

إنهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرعب ، وهم يتخافتون متخاذلين ، ويتهاونون متحسرين ، يتمنون لو يُردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير ، فيُردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقيق ، إن هؤلاء ترسم في قلوبهم الندم والحسرة .. إن القرآن يخاطب بها الفطر الجاسية ، ويهز بها هذه الفطرة هزاً ، لعلّ الركام الذي وان عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تقيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان . إنه مشهد الاستخذاء والندامة والحزني والحسرة في مقابل الاعراض والجدال والنأي والادعاء العريض ، لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الاعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة ! لو ترى لرأيت ما بهول ، ولرأيتهم يقولون : « يا ليتنا مُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين »

إنهم يتمنون لو يُردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين ! ولكنها ليست سوى الأمانى التي لا تكون ! على أنهم إنما يجهلون جِبَّتَهُمْ . فهي جِبَّةٌ لا تؤمن . إن الله يعلم طبيعتهم ، ويعلم إصرارهم على باطلهم ، ويعلم أن رجفة الموقف الرعب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأمانى وهذه الوعود .

وهكذا يصورهم القرآن .. « وإن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون . قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » .

والمقت أشد الكره . وهم ينادون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان ، قبل فوات الأوان ، وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب ! والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل »

وهي كلمة الذليل اليأس البائس . وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفتخت الروح في الموات فاذا هي حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتتنا ، فبحشنا اليك ، وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا . فهل إلى خروج من سبيل ، بهذا التنكير الموحى باللهفة واليأس الموير .

إنها الآمال والأمانى الضائعة يصورها القرآن ، « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » ولكن « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » ، والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الانسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتتألم نفسه . والله سبحانه — لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم .

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة وهو يناديهم « استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير »

٦ — بين الغفلة والهوى

إن الذين لا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الاثم والمعصية ، إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد ، يريد كل منهم أن يسبق اليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه ، ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس ، إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » فهو مطلب يستحق المنافسة وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب ، والذين يتنافسون في شيء من

أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم ، إنما يتنافسون في حقير فان قريب والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه ، فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة .

ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعاً ، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بهم جميعاً ، والسعي لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويظهرها للجميع ، والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعاً وبيئاً تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين .

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خراباً بلقعاً كما قد يتصور بعض المنحرفين إنما يجعل الاسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق ، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده ، كما قررها الله تعالى وهو يقول : « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » . إن قوله تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ، لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها ، ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن . بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه ! إن عمر المرء في هذه عاجلة محدود ، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله ، وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود ، ومتاع الجنة لا تحد تصورات البشر ، وأن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخالود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ ألا إن السباق إلى هناك ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » كما أن الله سبحانه وتعالى يبين أن الانسان يقطع رحلة الحياة كلها كدحاً وجهداً ، « يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » . يا أيها الانسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً ، تحمل عبثك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك ، لتصل في النهاية إلى ربك ، فالإله المرجع وإليه المآب ، بعد الكد والكدح والجهاد .

يا أيها الانسان ، إنك كادح حتى في متاعك ، فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد وكد ، إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر ، الواجد والمحروم سواء ، إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء ، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الانسان ، ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء

يا أيها الانسان ، إنك لن تجد الراحة في الأرض أبداً ، إنما الراحة هناك ، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام ، التعب واحد في الأرض والكدح واحد - وإن اختلف لونه وطعمه - أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك ، فواحد إلى عناه دونه عناه الأرض ، وواحد إلى نعم يسبح على آلام الأرض ، كأنه لم يكن كدح ولا كد .

يا أيها الانسان ، الذي امتاز بخصائص الانسان ، ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك الله به ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولكن ما الذي يُعمي ، إنه الهوى ، الذي يتخذ بعض الناس إلهاً يتعبدونه ، يقول سبحانه : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » إن الله يشير إلى الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلهاً يتعبد به ، فيضل ضلالاً لا اعتداء بعده والعياذ بالله . والقرآن يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت ، وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلهاً قاهراً لها ، مستولياً عليها ، تتلقى اشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .

يرسم القرآن هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد ، أفرأيت ؟ إنه عجيب يستحق الفرجة والتعجب ! وهو يستحق من الله أن يضلّه ، فلا يتداركه برحمة الهدى ، فما أبقي في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض .

لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة ، وأما من خاف

مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري تحاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة .

إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ، ومحسبها كسباً له — على معنى من المعاني — ولو أنها كانت كربة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحسباً ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ، لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلمها — حتى لو اندفع لارتكابها — وأن يستغفر منها ، ويأوذ إلى كنف غير كنفها ، وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير ، يقول الله سبحانه : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يَصُورُ المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش في إطارها ، ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها ، عندئذ تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة ، عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم ، « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

إن من مقتضيات الايمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح ، وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الايمان ، وما أحوجنا — نحن الذين نقول إنا مسلمون أن نستيقن هذه الحقيقة : أن الايمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح ، فأما الذين يقولون : إنهم مسلمون ثم يتبعون هواهم ، فهؤلاء ليس لهم من الايمان شيء ، وليس لهم من ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذاب الله واق ، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الانسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها ، والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات

الهوى ، والذي يتحدث هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الجير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتا ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكائنها ومخابئها .

ولم يكلف الله الانسان ألا يشتجر في نفسه الهوى ، فهو سبحانه — يعلم أن هذا خارج طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيّب ، وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة وماوى ، ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيّمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى ، « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتقاء ، وليس إنساناً بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا أمر كسب في طبيعته ، فالذي أودع في نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للامساك بزمامه ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته ، وجعل له الجنة جزاء وماوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله ، تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الانساني .

وهناك حرية حيوانية ، هي هزيمة الانسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من ارادته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الانسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء من الحرية .

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى ونهياً للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس ونهياً للحياة في درك الجحيم حيث تهدرانسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس — من هذا الصنف — والحجارة ، وهذه تلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة

الأشياء وبعد هذا البيان يعدّ الله لهذا الإنسان الحياة الذي تمّ لها بارتكاسه في
درك الجحيم وينذر بالويل ، « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر
مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم » .

لأنها مقابلة القرآن بالترذيل والتقييس والتهديد والوعيد ، والتأويل بالعذاب الأليم
المهين العظيم ، والويل : الهلاك ، والأفاك : الكذاب المارد على الكذب ، والأثيم
الكثير المقارفة للأثم ، والتهديد شامل لكل من هذه صفته ، وهو تهديد صادر من الله
القوي القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار ، الصادق الوعد والوعيد والانذار ،
فهو تهديد رعب مغزع مرهوب

هذا الأفاك الأثيم ، آية إفك وعلمة إثم ، أنه يصرعه الباطل ويستكبر على
الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، يسمع آيات
الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً ، ألا إن هذه الصورة البغيضة تتكرر في كل جاهلية ،
وتتكرر اليوم وغداً ، فكم في الأرض ، وبين من يقال أنهم مسلمون ، من يسمع
آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير
مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاهه ،
فليأته الويل المنظور .

* * *

الباب الثاني

الموت

١ - حقيقة الموت في التصور الاسلامي

تكثر الاشارة في القرآن إلى آتبي الحياة والموت . لأنها تلمسان قلب الانسان بشدة وعمق ، ثم لأنها الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حسن الانسان . يقول الله سبحانه : « هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . « إنا نحن نحيي ونميت وإنا المصير » .. « الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت » .. « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .. « وأنه هو أمات وأحيا » .. تنبثق من هذه النصوص صور لا عداد لها في الحس . أمات وأحيا .. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذي خلق الموت والحياة » .. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر ، ولكنها خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتها ومرهما الخافي على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتها حين يتجاوز الانسان لفظها وشكلها الذي يراه ؟ كيف دبّت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ من أين جاءت وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ .. وما الموت ؟ وكيف كان ؟ .. قبل ديبب الحياة .. وبعد

مفارقتها للأحياء ؟ إنه السراخفي وراء الستر المسبل بيد الله ! أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الأحياء كلها . في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة ودب فيها هذا السر من حيث لا تعلم وحيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يتراءى على مدى القرون ، حين يستغرق أحيان في استعراض الماضي الطويل الذي كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب وندع ما يعلمه الله في غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال إنسان !

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، ما هو ؟ وكيف يقع ! وأي سلطان له لا يقاوم ؟ إنه قدر الله ، « نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » ومن ثم لا يتفلسف منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد ، وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل .

إنه الموت نهاية كل حي ، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله ، « إنك ميت وانهم ميتون » ، وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ . والموت ليس نهاية المطاف إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى .

إن القرآن يلمس مكنن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحياة والموت من حكمة الله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء . يقول الله سبحانه : « وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يُرد ثواب الدنيا منّوته منها ومن يُرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ..

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع ، والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً . والشجاعة

والثبات والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً ، فلا كاث الجبن ولا نأمت أعين الجبناء ،
والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم أو يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله في الحساب ،
وهي تفكر في الأداء والوفاء بالتكاليف والالتزامات الايمانية . وبذلك تنطلق من
عقال الشغ والحرص ، كما ترتفع على وهلة الخوف والفرع . وبذلك تستقيم على الطريق
بكل تكليفه وبكل التزاماته ، في صبر وطمانينة ، وتوكل على الله الذي يملك
الآجال وحده .

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول ، فإنه إذا كان
العمر مكتوباً والأجل مرسوماً فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، ولتنظر نفس ماذا
تريد ، أتريد أن تقعد عن تكاليف الايمان ، وأن تحصر همها كله في الأرض ، وأن
تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع وإلى
حياة أكبر من هذه الحياة ؟ مع تساوي هذا الهمّ وذاك فيما يختص بالعمر والحياة ؟
« ومن يرد ثواب الدنيا - نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » .

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام - اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر
والأجل - - والذي يعيش لهذه الأرض وحدها ويريد ثواب الدنيا وحدها ، إنما يحيا
حياة الديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب . والذي
يتطلع إلى الأفق الآخر ، إنما يحيا حياة الانسان ، الذي كرمه الله واستخلفه وأفرده
بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب .. « وما كان لنفس أن تموت
إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » ...

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها
الأحياء ، وفق ما يريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد
كاهتمام الانسان ! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من
التكاليف - وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة - إلى الانشغال بما هو أنفع

للنفس ، في الحقل الذي تملكه وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الآخرة وتنال من جزاء الله ما تختار .

وكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه — فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه — بينما هو مرسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر وكل نفس مؤكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل — فهو حفيظ من اللحظة — وهو رسول من الملائكة — فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة — والنفس غافلة مشغولة أدنى الحفيظ مهمته وقام الرسول برسالته . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري وهو يحس بالقدر الغيبي المحيط به ، ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم . « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

والموت غيب لا يدري انسان متى يُدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً . وأن يكون في كل لحظة مسلماً : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ..

فسيّد الله اعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للحقيدة . وعنده الجزاء ، وعنده العوض ، عن خبيرة وعن علم وعن بصر . (والله يُحيي ويميت والله بما تعملون بصير) .

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يردّه - ص ولا حذر ، ولا يؤجله جبن ولا قعود ، والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء ، وهذا الواقع الذي يحجّجهم به القرآن الكريم ، ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين ، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين .

فالموت حتم في موعده المقدر ، ولا علاقة له بالحرب والسلام ولا علاقة له بمحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يجعله عن موعده ، هذا أمر وذاك

أمر ، ولا علاقة بينها ، إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل ، بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد ، وليست هناك علاقة أخرى ، (أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة) .

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهيج في خاطر عن هذا الأمر ، وكل ما يئنسئه التصور المضطرب من خوف ومن دعر .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر وأمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف . كما أمرهم باستكمال العدة والأهبة ، ولكن هذا كله شيء وتعليق الموت والأجل به شيء آخر ، إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله ، وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب — رغم كل استعداد واحتياط — أمر آخر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله .

هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة ، وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء ، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق ، « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع ، فكل حادث فهو فانٍ وكل ماله بدء فله نهاية ، « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » ، وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟ فالموت حتم حين يأتي ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه ، (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) (وما تدري نفس بأي أرض تموت) فذلك أمر وراء الستر المسبل السميكة الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار ، إن ملك الموت يتوفى الأنفس حين ينتهي الأجل (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم) هكذا

في صورة اليقين ، فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله الذي نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد ، ولا زيادة على ما نتلقاه من هذا المصدر الوحيد .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها إلى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قدّر لا مفر من لقائه في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار في دفع القدر عن فارق ، فإذا فروا فانهم ملاقون حتفهم المكتوب في موعده القريب وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل (قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل) .

فقدّر الله هو المسيطر والأنفس في قبضته ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فإله يستوفي الآجال الأنفس التي تموت ، وهو يتوفاها كذلك في منامها ، وإن لم تمت بعد — ولكنها في النوم متوفاة إلى حين — فإتي حان أجلها يمسخها فلا تستيقظ ، والتي لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو إلى أن يحلّ أجلها المسمى فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها .

فلا يعرف الانسان متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ ، فالحياسة إلى نهاية والموت الذي يفر منه فإنه ملاقيه (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وهي لفظة من اللغات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين ، تقر في الاخلاص حقيقة ينساها الناس وهي تلاحقهم أينما كانوا ، فهذه الحياة إلى انتهاء والبعد عن الله فيما ينتهي للرجعة اليه ، فلا ملجأ منه إلا اليه ، والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة ، فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : (مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدّين ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيأ وأمنر دخل حجره فقالت له الأرض : يا ثعلب ! ديني ، فخرج

له حصاص ، فلم يزل كذلك حتى انقطعت عنقه فمات) . وهي صورة موحية عميقة الابعاء .

٢ - رهبة الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهبة تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لها أحد من حوله دفعاً . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً ، لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاة . ولا دفع ولا تأجيل . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . فييد الله اعطاء الحياة وييده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة ، وعنده الجزاء وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر ، (والله يحيي ويميت) ، الكل مرجعه إلى الله ، محشور إلى الله ، فما لهم مرجع سوى هذا المرجع ، وما لهم مصير سوى هذا المصير . والتفاوت اذن يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام . أما النهاية فواحدة . الموت في الموعد المحتوم والأجل المقسوم ، ورجعة إلى الله وحشر في يوم الجمع والحشر ، ومغفرة من الله ورحمة أو غضب من الله وعذاب . فأحمق المحق من يختار لنفسه المصير البائس وهو ميت على كل حال (كل نفس ذائقة الموت) . إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس . حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعانون بالعقيدة ويموت المستدلون للعبيد . ويموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص ، الكل يموت ، (كل نفس ذائقة الموت) . كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة ، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق

هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع ، إنما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى . الفارق في المصير ، (إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحِزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

هذه القيمة التي يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد . والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب ، (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . ولفظ زُحِزح يصور معناه بجرسه ويرسم هيئته ويلقي ظله ! وكأننا للنار جاذبية تشد إليها من يقرب منها ، ويدخل في مجالها فهو بحاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ، فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ويستنقذ من جاذبيتها ويدخل الجنة فقد فاز .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ، قال : فبجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفقت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خفيت أن لا يدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد) (١) .

صورة قوية . بل مشهد حي ، فيه حركة وشدة وجذب ! وهو كذلك في حقيقته وطبيعته . فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هي زحزحتها عن النار ! أليس الانسان — حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة — يظل أبداً مقصراً في العمل إلا أن

(١) رواد أبو داود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح .

يُدرِكهُ فضل الله ؟ بلى وهذه هي الزحزحة عن النار ، حين يدرك الانسان فضل الله ،
فيزحزحه عن النار !

إن الموت هو نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والاخرة ، (ثم إنكم
بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ، فالموت إذن طور من أطوار النشأة
الانسانية وليس نهاية الأطوار . ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار
تلك النشأة .

وبعد ذلك تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات
اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر
لهذا الانسان . وذلك لمن يسلك طريق الكمال . الطريق الذي رسمه الله . طريق
المؤمنين . فاما من ارتكس في مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان فهو صائر في الحياة
الأخرى إلى غاية الارتكاس . حيث تهدر آدميته ، ويستحيل محسباً من حصص جهنم ،
التي وقودها الناس والحجارة . والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء .

والقرآن الكريم يواجه الناس بمشهد الاحتضار ، هذا المشهد القاسي (كلا إذا
بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق إلى ربك
يومئذ المساق) .

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه
ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق بين الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ،
ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب
ولا لحوف خائف !

الموت الذي يصرع به الجبابرة بنفس السهولة الذي يصرع به الأقزام ، ويقهر به
المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه . وهم مع هذا
لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه . وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ،
وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار ، ويتلفت
الحاضرون حول المحتضر يتمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب : (وقيل

مَنْ راق) ، لعل رُقِيَة تفيد !.. وتلوي المكروب من السكرات والنزع (والتفت الساق بالساق) وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف ، (إلى ربك يومئذ المساق) .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق وكل آية ترسم حركة . وحالة الاحتضار ترسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة التي لا دافع لها ولا راد ، إنه الطريق إلى الله (وإن إلى ربك المنتهى) فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعم أو جحيم . لهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الانسان وتصوره . فحين يحس الانسان أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فانه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق .

فماذا يفعل الانسان حين تبلغ روحه الخلقوم (فلولاً إذا بلغت الخلقوم) ، فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الخلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول . إننا لنكاد نسمع صوت الحشرة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق ، كما نبصر نظرة العجز وذبول اليأس في ملامح الحاضرين :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لما نُقِلَ رسول الله ﷺ ، جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ؟! فقال لها : ليس على أهلك كرب بعد الموت ، فلما مات قالت : يا أبتاه ، أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفِنَ قالت : يا أنس ، كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب (١) ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْإِنْسَانِ : إِذَا مَاتَ شَخَّصَ بَصَرُهُ ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك حين يتبع بصره نفسه (٢)) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه مسلم .

— وقد شق بصره — فأغمضه ، ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناسٌ من أهله ، فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يثؤمنون على ما تقولون ، ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له في قبره ، ونور له فيه (١) .

هنا في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلّفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به . ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر . هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً . هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر . وينتهي مجال البشر . هنا يعرفون — ولا يجادلون — أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون . هنا تتفرد القدرة الإلهية والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ، (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) ، وهنا يجلج الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره — سبحانه وتعالى — وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فاذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراحفة الراحفة الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال (فلو لا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) فلو كان الأمر كما تقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذ ذاك طلقاء غير مدينين ولا محاسبين فدونكم إذن فلترجعوها — وقد بلغت الحلقوم — لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء ، وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون .

هنا تسقط كل علة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال .

(١) أخرجه مسلم .

ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل . (فأما إن كان من المقربين فرّوح وريحان وجنة نعيم) فالروح هنا ترى علامّ النعيم الذي ينتظرها : رَوْح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقي ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والانس الكريم . (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) يبلغه سلام اخوانه من أصحاب اليمين . وما أُندي السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الخلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالانس في الصخرة المقبلة مع أصحاب اليمين .

(وأما إن كان من المكذابين الضالين فنزّل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين) ، وما أسوأه نزلاً ومشوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذاباً ذلك الجحيم . يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين .

إن مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الخلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله . قبل أن يفارق هذه الحياة . وبرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير .

وَيَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ أَنْ يَعُودَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ إِلَى الدُّنْيَا يَعْمَلُ صَالِحاً ، (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربّ أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها) ، إنه مشهد الاحتضار وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ، والإصلاح فيما ترك وراءه ، فإذا الرّدّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجهه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد ، (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، كلمة لا معنى لها ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة الاخلاص المنيب . كلمة ثقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب من بهيد . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً . فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدت الأستار ،

(ومن ورائهم يبرز إلى يوم يبعثون) ، فلا هم من أهل الدنيا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم في ذلك البرزخ بين بين ، إلى يوم يُبعثون .

٣ - الامل القاتل

يقول الله سبحانه : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون) ، إن الايمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهي قصيرة منها طالت . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيتها التي لا تُنْال ! ثم ما الذي يسكه حين يملك ارضاء شهواته ، وتحقيق لذاته ورغباته ، وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ، ولا يتوقع نواباً ولا عقاباً يوم يقوم الأشهاد ، ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزيئاً للنفس التي لا تؤمن بالآخرة ، تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء ، والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلد لها ، وأن تجده حسناً جميلاً ؛ ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته الى الايمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني فإذا هي تجدد لذتها في أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذات البطلون والأجسام ، والذين لا يؤمنون بالآخرة فهم في حياة حيوانية للأكل والمتاع (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ، ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة ، الأمل يلبي والمطامع تعز ، والعمر يمضي والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء المالكين ، الذين ضلوا في متاهة الأمل والغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطباع ، وعلمي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود وأنهم محصلون ما يطعمون لا يردم عنه راد ، ولا يمنعهم منه مانع ، وأن ليس وراءهم حسيب ، وأنهم ناجون في النهاية بما

ينالون بما يطمعون ، وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية ، فالأمل البراق ما يزال يخاليل لهذا الانسان ، وهو يجري وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ، وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ، وحتى ينسى أن هناك واجباً ، وأن هناك محظوراً ، بل حتى ليس أن هناك إلهاً ، وأن هناك موتاً . وأن هناك نشورا . وهذا هو الأمل القاتل .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطباً ، وقال : (هذا الإنسان) ، وخطب إلى جانبه خطباً ، وقال : (هذا أجله) ، وخطب آخر بعيداً منه ، فقال : (هذا الأمل) ، فبينما هو كذلك ، إذ جاءه الأقرب (١) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا (٢)) .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك (٣)) ومن حياتك لموتك (٤) .

وفي رواية الترمذي قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور ، قال مجاهد : فقال لي ابن عمر : (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البزار .

(٣) أي نادر أيام صحتك بالعمل الصالح ، فإن المرض قد يطرا ، فيمنع عن العمل ، فيخشى على من فرط في ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد ، ولا يعارض ذلك الحديث الصحيح « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » لأنه ورد في حق من يعمل ، والتحذير في حديث ابن عمر في حق من لم يعمل ، فإنه إذا مرض ندم على تركه العمل وعجزه لمرضه عن العمل ، فلا يفيد الندم .

(٤) رواه البخاري .

نفسك بالصباح ، وخُذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك قبل موتك ، فانك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه : (اغتنم خمساً قبل خمس : (شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)^(١) .

وعن عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حضّرنا . فخطبنا حذيفة فقال : إني والله عز وجل يقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الساعة اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق ، فقلتُ لابي أيسبقُ الناسَ غداً ؟ قال : إنك لجاهل ، إنما يعني العمل اليوم والجزاء غداً فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا فخطبنا حذيفة فقال : إن الله يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة^(٢)) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اقتربت الساعة ولا نزداد منهم إلا بُعداً) وفي رواية الحاكم لفظه : (قال رسول الله ﷺ :) (اقتربت الساعة ، ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً ، ولا تزدادون من الله إلا بُعداً^(٣)) .
وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مرّ بي النبي ﷺ وأنا أظن عاصطاً لي أنا وأمي ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ فقلتُ يا رسول الله وهي ، فتحن نصلحه ، فقال : الأمر أسرع من ذلك^(٤)) .

عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (هل تدرُونَ ما مثَلُ

(١) أخرجه الحاكم ٣٠٦/٤ وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وهو كما قال ، وقال الحافظ في « الفتح » وإسناده حسن ، أخرجه ابن المبارك في الزهد والخطيب في انتضاء العلم والعمل بسند صحيح .

(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٣) رواه الطبراني ورواه محتج بهم في الصحيح ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

هذه وهذه ؟ ورمى بجصاتين ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : (هذا الأمل ، وهذا الأجل ^(١)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أعذر الله ^(٢)) إلى امرئ ، أخر أجله حتى بلغ ستين سنة ^(٣)) .

قال ابن بطال : إنما كانت الستون حداً لهذا ، لأنها قريبة من المعتكف وهي سن الانابة والحشوع ، وترقب المنية ، فهذا إعدار بعد إعدار ، لطفاً من الله لعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، ثم أعذر إليهم ، فلم يعاقبهم إلا بعد الحجاج الواضحة ، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل ، لكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة ، وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية .

إن الآخرة حلقة في سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد ، والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم ، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً ، ويظل علمهم بها ظاهراً سطوياً ناقصاً ، لأن حساب الآخرة في ضمير الانسان يغير نظrote لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هي إلا رحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، وأقره المنذري على تحسينه في الترهيب والترهيب

(٢) الاعذار : ازالة العذر ، والمعنى انه لم يبق له اعتذار ، كأن يقول : لو مدد لي في الاجل لفعلت ما أمرت به . يقال : أعذر اليه : اذا بلغه اقصى الغاية في العذر ، ومكّنه منه ، واذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حيثئذ الا الاستغفار والطاعة والاقبال على الآخرة بالكلية ، ونسبة الاعذار الى الله مجازية ، والمعنى ان الله لم يترك للعبد سبباً في الاعتذار بتمسك به ، والحاصل انه لا يعاقب الا بعد حجة .

(٣) رواه البخاري .

نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على رحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقد زهد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة ، ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويعسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) ، لا يلتقي هذا وذلك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حادثة أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منها ميزان ، ولكل منها زاوية للنظر ، ولكل منها ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء ، وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان خليفة الله في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله ، حقاً أنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد ببقاء الله والشعور بحقيقة هذا اللقاء مع التميع في تصور جزائه وعدله ، يقول الحسن البصري رحمه الله (هيات هيات ، أهلك الناس الأمانى ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجلاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيماً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئِلَ أمؤمن أنت يوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين) .

حقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله مع الاعراض عن الاحتكام إلى الله وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة ، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة ، ووراءها الآخرة ، والمتاع فيها هو المتاع - فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير فهي خير (خير لمن اتقى) وفي الآخرة الجزاء الأوفى .

وعن الإمام علي رضي الله عنه قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة . ألا وإن الدنيا ارتحلت مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ^(١))

وعن عبد الله عن النبي ﷺ قال : (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ^(٢)) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أوصني قال (عليك بالأباس بما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصلّ صلاتك وأنت مودع ، وإياك وما يعتذر منه ^(٣)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال : فتنأ كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بِمِرْضٍ من الدنيا ^(٤)) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاسة أحدكم ، أو أمر العامة ^(٥)) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فشره غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر ^(٦)) .

(١) الحافظ في الفتح .

(٢) رواد البخاري .

(٣) رواد الحادق والبیهقی وقال الحاکم : صحیح الاسناد .

(٤) ، (٥) رواد مسلم .

(٦) رواد الترمذی وقال حدیث حسن .

إن التكذيب بيوم الدين هو رأس البلايا : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) .

إن الذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ، وقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يعطئن إلى هذه العواقب ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير ، ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره الآخرة ومصيره فيها ، وينتهي من ثم إلى شر مصير ، فيأتيه الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلامرد ، ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح ، وبعد الموت البعث والنشور (ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) ، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه يشي بما وراه من غاية الله سبحانه بعباده من الناس ، فقد خلقهم لأمر واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ، ولم يتركهم سدى ولكن يجمعهم الى يوم القيامة — فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون اليه كما يفيء الراحل الى وجهته — فيعطيهم جزاء كدحهم اليه ، فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ، إنما يوفون أجورهم يوم القيامة ، لن يخسر في هذا اليوم الا الذين لم يؤمنوا في الدنيا ، وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً ، هؤلاء خسروا كل شيء (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ، فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئاً ، أليس ان الانسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ، فلم تعد لهم نفس تؤمن ، ان الذين لا يؤمنون بهذا الدين — مع عمق ندائه وإيمانه للفطرة بروحيات الايمان ودلائله — هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ، لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة

الفطرية في كيانهم معطلة مخربة ، أو محجوبة مغاظة ، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون ، إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون ، هذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم ، وهو الحسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم .

ان عدم الخوف من الآخرة هو للذي ينأى بالناس عن التذكرة ويُنفّرهم من الدعوة (كلا بل لا يخافون الآخرة) ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، وإن هذا القرآن هو تنبه وتذكر .. (كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره) ، فمن شاء فليذكر ، ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

يقول الإمام الغزالي : (إن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والاخر حبّ الدنيا ، أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنسى بها وبشواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دَفَعَهُ عن نفسه ، والانسان مشغوف بالأمان في الباطلة فيَسْتَمِينُ نفسه أبداً بما يوافق مراده ، وإلما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يُقدر قربه ، فان خَطَرَ له في بعض الاحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف وَوَعَدَ نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخاً ، فاذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تديير هذا الولد وجهازه وتديير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك ، فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض في شُغْل إلا وتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت

لا يحسبه فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم من سَوَّف يقولون :
واحرزناه من مَوَّف ، والمسوَّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم
هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ، ويظن أنه يتصور أن يكون
للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط ، وهيئات فما يفرغ منها إلا من طرحها .
وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والانس بها . وأما الجهل فهو أن الانسان
قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن
مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قتلوا لأن الموت في الشباب
أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشباب ، وقد يستبعد الموت لصحته ،
ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة
غير بعيد ، وكل مرض فائماً يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر
هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ولكن
الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت
القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يُقدّر نزوله به ووقوعه فيه ،
وهو أبداً يظن أنه يُشيع الجنائز ولا يُقدر أن تُشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه
وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه ،
فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه . فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن
يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تُجمل جنازته ويدفن في قبره ، فتسويقه جهل
محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه ، أما الجهل
فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ،
وأما حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا
الأولين والآخرين ، علاجه ولا علاج له إلا الايمان باليوم الآخر بما فيه من عظيم
العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصّل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ،
فإن حب الخطير هو الذي يجر عن القلب حب الحقيق . فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة
الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي مثلك الأرض من المشرق إلى

المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منقصر ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة . وعلاج تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا ، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأما من كان منبروراً بطول الأمل فقد خسر خسراً مبيناً ، فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ، وكيف تتفتت عظامها . وليتفكر فما على بدنه شيء الا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى^(١).

٤ - ذكر الموت

إن القرآن يصيح بقوم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة وحسبهم مسجور (ألهاكم السكائر حتى زرتم المقابر) أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهثون المتسكثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتسكثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تسكثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا .

ثم يقرع القرآن قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك . (كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الحليم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ويزيد في التوكيد عمقاً ورهبة ، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقل ، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار . إنه إيقاع يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والسادر يتلفت ، والناعم يرتعش ويرتجف بما في يديه من نعيم .

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل ، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتطوي صفحتها الصغيرة ، ثم يمد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال . وابتدأ ذكر الموت بوجوب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن

(١) احياء علوم الدين جزء ٤ صفحة ٤٤١ .

الموت تدعو إلى الانهالك في شهوات الدنيا ، وقد حثَّ رسول الله ﷺ على الاكثار من ذكر الموت فقال : (أكثرُوا ذكر هادم اللذات^(١)) يعني الموت .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بمجلس وهم يضحكون ، فقال (أكثرُوا من ذكر هادم اللذات^(٢)) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال (كانت عبثاً كلها : عجبْتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبْتُ لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبْتُ لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبْتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها ، وعجبْتُ لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل^(٣)) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أتيتُ النبي ﷺ عاشرَ عشرة ، فقام رجل من الأنصار فقال : يا نبي الله : من أكيسُ الناس ، وأحزمُ الناس ؟ قال : (أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم استعداداً للموت ، أولئك الأكياس ، ذهبوا بشرف الدين وكرامة الآخرة^(٤)) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : مات رجل من أصحاب النبي ﷺ فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يثنون عليه ، ويذكرون من عبادته ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما سكتوا . قال رسول الله ﷺ هل كان يكثر ذكر الموت ؟ قالوا : لا ، قال (فهل كان يدع كثيراً مما يشتهي ؟) قالوا : لا ، قال (ما بلغ صاحبكم كثيراً بما تذهبون إليه^(٥)) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : (كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة ، فجلس على شفير القبر فبكى حتى بَلَ الثرى ، ثم قال : (يا إخواني لمثل هذا فاعدوا^(٦)) .

(١) رواد ابن ماجه . والترمذي وحسنه عن أبي هريرة ومعناه نفصوا بذكره اللذات حرم ينقطع ركونكم اليها فتقباوا على الله تعالى .

(٢) رواد البزار بإسناد حسن .

(٣) رواد ابن حبان في صحيحه وغيره .

(٤) رواد ابن أبي الدنيا في كتاب الموت ، والطبراني في الصغير بإسناد حسن .

(٥) رواد الطبراني بإسناد حسن .

(٦) رواد ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قلتُ يا رسول الله أوصني ، قال : (اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر ، وإذا حملت سيئة فاعمل بمجنبها حسنة ، السرُّ بالسر ، والعلانية بالعلانية)^(١) .

يقول الامام الغزالي (اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذكر به كرهه ونفّر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملافيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

ثم الناس إما منهمك وإما تأب مبتدىء أو عارف منته . أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته ، وهذا يزيد ذكر الموت من الله بُعدا ، وأما التأب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والحشية فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ (من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه)^(٢) . . فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه ، فقلت يا نبي الله : أكرهية الموت ، فكلنا يكره الموت ؟ قال : (ليس ذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله ، فأحب لقاء الله ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره لقاءه)^(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من أحب لقاء الله

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه (. قلنا : يا رسول الله ، كلنا يكره الموت ؟ قال (ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله ، فأحب الله لقاءه ، وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر - أو ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله ، فكره الله لقاءه (١) .

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعده للقاءه مع رب العالمين ، وهذا في غالب الأمر يستبطنه بحبه الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين ويثقل إلى جوار الله . . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (تحفة المؤمن الموت (٢)) . وأعلى منها رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا ينار لنفسه موتاً ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى .

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا يتمن أحدكم الموت لضرة نزل ، فإن كان ولا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي (٣)) .

وعن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل على العباس وهو يشكي ، فتمنى الموت ، فقال (يا عباس عم رسول الله ﷺ - لا تتمن الموت ، إني كنت محسناً تزداد إحساناً إلى إحسانك خيراً لك ، وإن كنت مسيئاً ، فإن تؤخر تستعيب من إساءتك خيراً لك ، لا تتمن الموت (٤)) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر المرء ، ويرزقه الله الانابة (٥)) .

(١) رواه أحمد ورواه رواية الصحيح ، والنسائي بإسناد جيد .

(٢) رواه الطبراني بإسناد جيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) رواه أحمد والحاكم واللفظ له وقال : صحيح على شرطهما .

(٥) رواه أحمد بإسناد حسن والبيهقي

وعن أبي بصير رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال (من طال عمره وحسن عمله) قال : فأَي الناس شر قال : (من طال عمره وساء عمله ^(١)) .

عن عبد الله بن شداد أن نفراً من بني عُذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبي ﷺ (من يكفهم ؟) قال طلحة أنا ، قال : فكانوا عند طلحة ، فبعث النبي ﷺ بعثاً ، فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد ، ثم مات الثالث على فراشه ، قال طلحة : فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة ، فرأيت الميت على فراشه أمامهم ، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه ، ورأيت أولهم آخرهم ، قال : فداخني من ذلك ، فأقبت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال : (وما أنكرت من ذلك ؟ ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمّر في الاسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله ^(٢)) .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فان المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت في التجافي عن الدنيا ، إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدّر على الانسان اللذات فهو من أسباب النجاة) .

ويقول الغزالي (إن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينبع ذكر الموت في قلبه ، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى مفازة خطيرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر إلا فيه ، فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقلّ فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه ، وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أسكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورته في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف يحا التراب الآن حسن صورهم وكيف

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، والطبراني باسناد صحيح ، والحاكم .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى ورواهما رواية الصحيح .

تبددت أجزاءهم في قبورهم ، وكيف ضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم
وبجاسمهم وانقطعت آثارهم ، فمها تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله و كيفية موته
وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده للعيش والبقاء ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة
الأسباب وركونه إلى القدرة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهم وغفلته عما بين يديه
من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد ، والآن قد تهدمت رجلاه
ومفاصله ، وأنه كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل
التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت
لم يكن بينه وبين الموت إلا بشهر وهو غافل عما يُراد به حتى جاءه الموت في وقت
لم يحتسبه فأنكشف له صورة المسلك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك
ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وسكون عاقبة كعاقبتهم . وقال
أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال
ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره .

وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله
عز وجل تضعونه في صدع من الأرض وقد توسد التراب وخلف الأحياء ،
وقطع الأسباب .

فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد
ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن
يستعد له ويتجافى عن دار الغرور . قال ابن مسعود رضي الله عنه (تلا رسول الله ﷺ
— (فمن بُرد الله أن يديه يشرح صدره للإسلام) — فقال : (إن النور إذا دخل الصدر
انفسح) فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تُعرف ؟ قال : (نعم ، التجافى عن دار
الغرور والالابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله^(١)) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک .

وقال ﷺ (نعمتان مغبون فيها كثير من الناس : الصحة والفراغ^(١)) أي لا يغتتمها . ثم يعرف قدرهما عند زوالهما .

وقال ﷺ (من خاف أدلج^(٢) ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة^(٣)) .

وقال رسول الله ﷺ (جاءت الموت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه^(٤)) . وأما ذكر الموت بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها .. عن شداد بن أرس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وقنى على الله الأمان^(٥)) .

هـ - سكرات الموت

إن الموت هو أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنتى له ذلك . والموت طالب لا يمل الطلب . ولا يبطل الخطى ، ولا يخلف الميعاد .. وإذا جاء تأني سكراته .. (وحاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) ..

وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال . وانه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ - لما تغشاه الموت - جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : (سبحان الله إن الموت لسكرات) .. كما كان يدعو ﷺ (اللهم هوّن علي

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس .

(٢) الإدلاج : السير من أول الليل ، ومعنى الحديث أن من خاف الزمه الخوف السلوك إلى الآخرة .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث حسن .

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب .

(٥) رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .

محمد سكرات الموت) . يقولها وقد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف
من عداة ؟ فكيف بالظالمين ؟ (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة
باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير
الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) .

مشهد مغزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته
— ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب — والملائكة يبسطون اليهم أيديهم بالعذاب ،
وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب .

يقول الإمام الغزالي : (اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب
ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما كان جديراً بأن يتنقص عليه
عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته . وحقيقاً بأن يطول فيه فكره
ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفس يصده كما قال بعض الحكماء : كرب
بيد سواك لا تدري متى يغشاك . . واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها
بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذوقها فأنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدرکها ،
وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزاع على شدة ما هم فيه . . فأنما القياس الذي يشهد له
فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرک للألم هو
الروح . ففما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري
إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح
إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم
ذلك الألم وما أشده .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق بجميع أجزائه حتى لم يبق
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلَّ به الألم ، فلما أصابته شوكة
فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ،
وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء
من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسّه الأجزاء الروحانية المنتشرة

في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط فكان ، لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه ، فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم . فلا تسأل عن كربته وألمه حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف ، إنما يؤلم لتعلقه بالروح . فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوفاً وغرغرة من حلقه وصدرة ، وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحذقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله ، وتختصر أنامله ، فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغ) (١) .

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربته عند ترادف سكراته . فقد روي عن النبي ﷺ (أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم هوّن عليّ سكرات الموت) (٢) . وقد سئل ﷺ عن الموت

(١) أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث ابن عمر .

(٢) متفق عليه .

وشدته فقال : (إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف) .

وقال شداد بن أوس : الموت أظنع هول في الدنيا والاخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمنشيد وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : (إذا حُضِرَ المؤمن ، أتت ملائكة الرحمة بجريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجني راضية مرضياً عنك إلى روح من الله وريحان ، ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به أبواب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلمهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات ، أما أناكم ؟ قالوا : ذُهِبَ به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا حُضِرَ أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجني ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله عز وجل ، فتخرج كأن تن ريح جيفة ، حتى يأتون به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار^(٢)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يُصعدانها - قال حماد في روايته : فذكر من طيب ريحها ، ذكر المسك - قال : فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبيل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسدك تعميرته . فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به إلى ربه ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ، قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد : وذكر من نتنهم - - فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه

(١) إحياء علوم الدين جزء ٤ ، ص : ٤٤٥ .

(٢) أخرجه النسائي وإسناده حسن .

— هكذا — وذَكَرْ لَعْنًا — ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض ،
فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل^(١) .

يقول الحارث المحاسبي في كتابه التوهم : (الموت لا محالة نازل بك بكربه
وغصصه ونزعه وسكراته . فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا
إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه
وقلقه ، وقد بدأ المَلَك يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ثم تدارك الجذب واستعنت
النزع ، وجذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ الكرب منك منتهاه وعمت آلام
الموت جميع جسمك ، وقلبك وجلّ محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل
بالغضب أو الرضى ، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع لإحدى البشريين من
الملك الموكل بقبض روحك ، فينأ أنت في كربك وغموك وألم الموت بسكراته ،
إذا نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت إليه ماداً
يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك فذلّت نفسك لما عاينت ذلك وعانيت وجه
ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفاجئك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشر
يا ولي الله برضا الله وثوابه ، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه فتستيقن حينئذ بنجاتك
وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن نفسك إلى الله ، أو تستيقن بهلاكك ويحل
اليأس قلبك) .

٦ — فتنة القبر وعذابه

إن الموت يقترب من كل حيّ ، في وقته الذي رسمه الله عز وجل ومن ثم ينتقل
الإنسان إلى القبر ، وهو أول منزل من منازل الآخرة يلاقي فيه العذاب :
عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت
لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب
القبر ؟ فقال : (نعم ، عذاب القبر حق) قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ — بعدُ

(١) أخرجه مسلم .

صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر^(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إن الموفى ليعذبوا في قبورهم حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم^(٢)) .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فذكر فتنة القبر التي يُفتن فيها المرء ، فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجة^(٣)) ، وزاد النسائي (حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أيّ بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله ؟ قال : قد أوحى إليّ : أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال) .

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبرُ ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة تُبْتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال^(٤)) .

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتاً . فقال : يهود تعذب في قبورها^(٥)) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن .

(٣) أخرجه البخاري هكذا .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : (مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : (اما إنَّهما ليعذبان ، وما يُعذَّبَانِ في كُبير ، ثم قال : بلى ، أمَّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، قال : فدعا بعضي برطب ، فشقه باثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا ^(١)) . وفي رواية (لا يستبرىء من البول) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (هذا الذي تحرك ^(٢) له العرش ، وفتحت أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضُمَّ ثم فُرج عنه) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل نار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ^(٣)) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله : تُبْتلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ^(٤)) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال : (نزلت في عذاب القبر) .
وفي رواية أن النبي ﷺ قال (المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) . وفي أخرى قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) نزلت في عذاب القبر ، يقال له : من ربك ؟ فيقول ربي الله ، ونبي محمد ﷺ ^(٥)) .

(١) أخرجه الجماعة الا الموطأ .

(٢) يعني سعد بن معاذ والحديث أخرجه النسائي وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه الجماعة الا أبا داود .

(٤) رواه البزار ورواه ثقات .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

وعن هانيء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته ، ف قيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول . (القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإلّا لم ينج منه فما بعده أشد) قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه ^(١)) .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا أتاه الملك فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً ، - قال قتادة : وذُكر لنا أنه يفسح له في قبره - وأما الكافر - أو المنافق - فيقول لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت ^(٢) ، ثم يضرب بمطرقه من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصبح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ^(٣)) .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : (إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك ، فيقول له : ما كنت تعبد ؟ فإن الله هداه ، قال : كنت أعبد الله ، فيقول : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله ، فما يسأل عن شيء بعدها ، فينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كاث لك ، ولكن الله عصمك فأبدلك به بيتاً في الجنة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن ، قال : وإن الكافر - أو المنافق - إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره : فيقول له : ما كنت تعبد ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول كنت أقول ما يقول

(١) أخرجه الترمذي وإسناده حسن .

(٢) يقال : لا دريت ولا تليت ، أي لا سمعت الناس بأن تقول شيئاً يقولونه .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم .

الناس ، فيضربه بطراق بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعا الخلق غير الثقلين (١) عن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (يا عمر كيف بك إذا أنت مت) ، فانطلق بك قومك ففاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا اليك ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم لحتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يملوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أفاك فتنا القبر منكر ونكير أصواتها كالرعد الناصف ، وبصائرهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ، ويبجنان القبر بأنبياءها ، فتلتاك وتوتاك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الان ؟ قال : نعم . قال : إذن أكفيكما (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت يهودية على بابي ، فقالت : أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت : فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ما تقول هذه اليهودية ؟ قال (وما تقول) : قلت : تقول : أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ ورفع يديه مدّاً يستعيز بالله من فتنة الدجال ، ومن فتنة عذاب القبر ، ثم قال : (أما فتنة الدجال فانه لم يكن نبي إلا حذر أمته ، وسأحدثكم بحديث لم يُحدثه نبي أمته : إنه أعور ، وإن الله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن . فأما فتنة القبر ، فبي يُفتنون وعني يُسألون ، فإذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير قرع ولا مشعوف (٣) ، ثم يقال له : فما كنت تقول في الاسلام ؟ فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله جاء بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيفرج له فرجة قبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : انظر إلى ما وراك الله ، ثم تفرج إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : هذا

(١) روى أبو داود نحوه والنسائي باختصار ، ورواه أحمد بإسناد صحيح .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ، قال البيهقي في الاعتقاد

رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا .

(٣) الشعف : هو الفرع حتى يذهب بالقلب .

مقعدك منها ، ويقال : على اليقين كنتَ وعليه مت ، وعليه تبعث إنشاء الله . وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعاً مشحوناً . فيقال له : فما كنت تقول ؟ فيقول : سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا ، فيخرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرَفَ الله عنك ، ثم يفرج له فرجة قبيل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، ويقال : هذا مقعدك منها ، على الشك كنتَ ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يعذب^(١) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ، ولما يُلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبیده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : (استعينوا بالله من عذاب القبر — مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من رفي السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منه كأطيب نفع مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان — بأحسن أسائه التي كان يُسمى بها في الدنيا — حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ،

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح .

فيقولان : ما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته ، فينادي مناد
 من السماء : أن قد صدق عبيدي فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال :
 فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدًّ بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ،
 حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يُسيرك ، هذا يومك الذي كنت تعد ،
 فيقول : من أنت ، فوجهك الحسن يجيبه بالخير ، فيقول : أنا عمالك الصالح ، فيقول :
 ربّ أمّ الساعة ، ربّ أمّ الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع
 من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مدّة
 البصر ، ثم يجيئهم ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة
 اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من
 الصوف المبلول فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلها في تلك
 المسوح ، ويخرج منها كائناً جيفة وجسدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا
 يرون بها عظمي ملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ، فيقولون : فلان ابن
 فلان — بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا — حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ،
 فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون
 الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سبعين في
 الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرْحاً ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من
 السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) فتعاد ريحه في جسده ، ويأتيه
 ملكان فيقولان له : من ربك ، فيقول : هاهاه لا أدري ، قال : فيقولان له :
 ما دينك ، فيقول : هاهاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث
 فيكم ، فيقول : هاهاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب فأفرشوه من
 النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى
 تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي
 يسؤوك ، هذا يومك الذي كنت تعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه القبيح
 يجيبه بالشر ، فيقول : أنا عمالك الخبيث ، فيقول : ربّ لاتقم الساعة وفي — رواية له

بعناه ، وزاد : فيأتيه آت قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ، فيقول : بَشِّرْكَ اللهُ بالشر ، من أنت ، فيقول أنا عمالك الحليث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً في معصيته ، فجزاك الله شراً ، ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، قال البراء : ثم يفتتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن المؤمن إذا قبض أتنه ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجني إلى رَوْحِ الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناو له بعضهم بعضاً فيشمونه حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا : مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ، فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فانه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات أما أتاكم ، فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجني إلى غضب الله ، فتخرج كأنك ربيع جيفة ، فيذهب به إلى باب الأرض^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا قبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير ، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ، فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفتح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم يثوّر له فيه ، ثم يقل له نعم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نعم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب

(١) رواه أحمد بإسناد رواه محتج بهم في الصحيح قال الحافظ : هذا الحديث حديث

حسن ، رواه محتج بهم في الصحيح .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه بإسناد صحيح

أهل إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التثمي عليه ، فتلثم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك^(١) .

يقول الامام الغزالي^(٢) (قال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول : أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الظلمة ، هذا ما أعددت لك ، فما أعددت لي . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرققت الليلة أتفكر في القبر وسأكنه ، أنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأُنس منك به ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد ، وتحترقه الديدان مع تغير الريح وبلي الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب . وقال عبيد بن عمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً ، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً) .

وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ، فقالت : أيها السبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا .

قال عبيد الله بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول : وبحبك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونيتي وهولي ودودي فماذا أعددت لي^(٣)) .

(١) رواه الترمذي وحسنه ، وهو كما قال ، رواه ابن حبان في صحيحه .

(٢) الاحياء ج ٤ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في القبور مكدداً ومرسلاً ورجاله ثقات ، ورواه ابن المبارك في الزهد

الا أنه قال بلغني ولم يرفعه .

قال محمد بن علي : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة ، قال : فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته .

عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قول الله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب أرجعوني لأعمل صالحاً فيما تركت) ، قال : أي شيء تريد ، في أي شيء ترغب ، أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار ، قال : لا ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت قال : فيقول الجبار : (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، أي ليقولها عند الموت .

عن عمر بن عبدالعزيز أنه شيع جنازة فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليها تأخرت عنها وتركتها فقال نعم ، ناداني القبر من خلفي : يا عمر بن عبدالعزيز ألا تسألني ما صنعت بالأحبة قلت بلى ! قال : أحرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصصت الدم وأكلت اللحم ، قال : ألا تسألني ما صنعت بالأوصال ؟ قلت : بلى ! قال : نزعته الكتفين من الذراعين والذراعين من العضدين ، والعضدين من الكتفين ، والوركين من الفخذين ، والفخذين من الركبتين ، والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ، ثم بكى ، ثم قال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل وعزیزها ذليل وغنيها فقير وشابها يهرم ، وحيا يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدارها ، فالمرور من اغتر بها . أين سكانها الذين بنوا مدائنهم وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها أياماً يسيرة ، غرّتهم بصحتهم فاغترّوا بنشاطهم فركبوا المعاصي . إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه ، محسودين على جمعه .

ماذا صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسادهم والدبدان بعظامهم وأوصالهم كانوا في الدنيا على أسرة مبهدة ، وفرش منضودة بين خدّم يخدمون وأهل يكرمون ، وجيران يعضون . فإذا مررت فنادهم إن كنت منادياً ، ومُرّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم واسأل غنيهم ما بقي من غناه ، واسأل فقيرهم ما بقي من فقره ، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون ، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون واسألهم

عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنع بها الديدان . تحت الألوان وأطلت اللشحات ، وغفرت الوجوه ، ومحت المحاسن وكسرت الفقار وأبانت الأحشاء ، ومزقت الأشلاء وأين حجابهم ونوابهم . أين خدمهم وعبيدهم ، وجمعتهم ومكنونهم والله ما فرشوا فراشاً ولا وضعوا هنالك متكئاً ولا غرسوا لهم شجراً ، ولا أنزلهم من اللحد قراراً

أليسوا في منازل الحفلات والبلاوات أليس الليل والنهار عليهم سواء . أليس هم في مدلهمة ظلماء وقد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة . فكم من ناعم وناعمة . أصبحوا ووجوههم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم نائية ، وأوصالهم متمزقة ، وقد سالت الحدفات على الوجنات ، وامتلات الأفواه دماً وصديداً ، ودبت دوابه الأرض في أجسادهم ففرقت أعضاهم ثم لم يلبثوا والله لإيسيراً حتى عادت العظام رمياً . قد فارقوا الحداق وصاروا بعد السعة إلى المضائق ، وقد تزوجت نساؤهم وترددت في الطريق أبناؤهم وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناضر فيه المتنعم بلذته ، يساكن القبر غداً ما الذي غرك من الدنيا ؟ هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك ؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد وأين ثرتك الحاضر ينحها ؟ وأين رفاق ثيابك ؟ وأين طيبك وأين بخيرك ؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك ؟ أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه دخلاً وهو يرشح عرقاً ويتلظى عطشاً يتقلب في سكرات الموت وغمراته جاء الأمر من السماء وجاء غالب . القدر والقضاء جاء من الأمر الاجل ما يمتنع منه هيهات يا مُغْمِضَ الوالد والأخ والولد وغاسله ، يا مكفن الميت وحامله .. يا مخليه في القبر وراجعاً عنه .. ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى .. ليت شعري بأي خديك يبدأ البلى وأي عينيك سالت أولاً يا مجاور الملوك صرت في محل الموتى .. ! ليت شعري ما الذي يلقيني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا وما يأتي بي به من رسالة ري . ! ثم انصرف ، فما بقي بعد ذلك إلا جمعة ثم .. ات رحمه الله (١) . يقول الامام الحارث بن أدد الحاسبي (.. الموت لا محالة نازل بك بكربه وغضبه ونزعه وسكراته . فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا

(١) الوصية الموجزة للمرحوم الشيخ سعيد البرهاني عليه رحمة الله .

إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت و كربه و غصصه و سكراته و غمه و قلقه ، و قد بدأ المَلَكُ يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ، ثم تدارك الجذب واستحثّ النزع و جذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه و عمت آلام الموت جميع جسمك ، و قلبك و جلّ محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضى ، و قد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من المَلَكِ الموكل بقبض روحك ، فيينا أنت في كربك و غمومك و ألم الموت بسكراته ، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، و نظرت إليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلّت نفسك لما عاينت ذلك و عاينت وجه ملك الموت ، و تعلق قلبك بماذا يفجأك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشر يا ولي الله برضا الله و ثوابه أو أبشر يا عدو الله بغضبه و عقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك و فوزك و يستقر الأمر في قلبك فتطمئن إلى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك و هلاكك و يحل الإياس قلبك و ينقطع من الله عز وجل رجائك و أملك ، فيلزم حينئذ غاية الهمّ و الحزن أو الفرح و السرور قلبك حين انقضت من الدنيا مدتك ، و انقطع منها أثرك و حُمِلتَ إلى دار من سَلَف من الأمم قبلك .

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً و سروراً ، أو ملئ حزنًا و عبرة ، و بفترة القبر و هول مطلعه و روعة الملكين و سؤالهما فيه عن إيمانك بربك ، فثبتت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت أو متحير شكّ مخدول . فتوهم أصواتها حين يناديانك لتجلس لسؤالهما إياك ليوقفاك على مسائلتهما ؛ فتوهم جلستك في ضيق لحذك ، و قد سقطت أكفانك على حفويك . فتوهم ذلك ثم شخوصك ببصرك إلى صورتها و عظم أجسامها ، فان رأيتها بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز و النجاة ، وإن رأيتها بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك و العطب ، فتوهم أصواتها و كلامها بنغماتها و سؤالهما ، ثم هو تثبتت الله إياك إن ثبتت أو تحييره إن خذلك .

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالشك ، و توهم إقبالهما عليك إن ثبتت الله عز وجل بالسرور و ضربها بأرجلها جوانب قبورك بانفراج القبر عن النـ ر . ثم توهم

وهي تتأجج بحريقها ، وإقباه ، ملك ، وأنت تنظر الى ما صرف الله عنا فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً وتوقن بسلامتك من النار بضعفك . ثم توهم ضربها بأرجلها جوانب قبرك وانفراجة عن الجنة بزيتها ونعيمها وقولها لك : يا عبد الله انظر إلى ما أعدّ الله لك ، فهذا منزلك وهذا مصيرك . فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة ملكها وعلمك أنك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها . وان تكن الأخرى فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهاز لك ومن معاينتك الجنة وقولها لك : انظر إلى ما حرمك الله عز وجل ، ومعاينتك النار وقولها لك : انظر إلى ما أعدّ الله لك ، فهذا منزلك ومصيرك . فأعظم بهذا خطراً ، وأعظم به عليك في الدنيا غمّاً وحزناً حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك ، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك ، حتى تنقطع الأوصال فتفنى عظامك ويبلى بدنك ، ولا يبلى الحزن أو الفرح ، متطلع للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه ، أو الى رضا الله عز وجل وثوابه ، وأنت مع توقع ذلك معروض عليك منزلتك من الجنة أو ماواك من النار (١) .



(١) كتاب التوهم ص ٢ - ٤ .

الْبَيْتُ الْبَيْتُ الْبَيْتُ

أَسْرَاطُ السَّاعَةِ وَعِلْمُهَا

١ - علم الساعة

إن الساعة غيب من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه .. والرسول ﷺ بشر لا يدعي علم الغيب ، مأمور أن يَكِيلَ الغيب إلى صاحبه وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه بشر لا يدعي شيئاً خارج بشريته ولا يتعدى حدودها ، إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء .. فهو سبحانه مختص بعلمها ، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها ، ولا يكشف غيره عنها . يقول الله سبحانه : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها ! قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . إن الله - سبحانه - يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها ، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها ، وإلى الشعور بهولها وضخامتها .. ألا وإن أمرها لعظيم ، ألا وإن عبثها لثقل ، ألا وإنها لتثقل في السموات والأرضين ، وهي بعد ذلك لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون .

فأولى لهم أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة ، فلا ينفع

معها الحذر ، ولا تجدي عندها الحيلة ، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها ، وما لم يستعدوا لها ، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية ، وما يدري أحد متى تجيء ، فأولى أن يسارح اللحظة ويسارع ، وألا يضيع بعد ساعة فقد تفجؤه بعدها الساعة ! والساعة هي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق .. والله سبحانه يؤكد مجيئها .. (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي . فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم — وهم بهذه الفطرة — لوقف نشاطهم وأسست حياتهم . فواء المجهول ييرون فيحزنون ويأملون ، ويحربون ويتعلمون . ويكشفون الخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم . وتعلق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد . يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشئ التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل قامة ، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال . والله — سبحانه — قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه ، ليقى الناس على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها . وهم لا يعلمون متى تأتي .. يقول سبحانه (إن الله عنده علم الساعة) .. فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة ، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد .

لقد كان الناس ما يفتأون يسألون النبي ﷺ عن الساعة التي حدّثهم عنها طويلاً ،

وخوفهم بها طويلاً ، ووصف القرآن مشاهدتها حتى لكان قارئه يراها . يسألونه عن موعدها .

(يسألك الناس عن الساعة . قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) .. ويستعجلون هذا الموعد ، ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، أو السخرية منها ، بحسب النفوس السائلة ، وقربها من الإيمان أو بُعدها . والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه أحداً من خلقه جميعاً ، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون . وفي حديث حقيقة الإيمان والاسلام : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - قال حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبته الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . وقال يا محمد : أخبرني عن الاسلام . قال : (الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلاً) قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان . قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان . قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) قال : فأخبرني عن الساعة . قال : (ما المسؤول عنها أعلم من السائل) قال : فأخبرني عن علاماتها قال : (أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) . قال ثم انطلق ، فلبث ملياً ثم قال لي يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم^(١)) . فالمسؤول رسول الله ﷺ - والسائل - جبريل عليه السلام - كلاهما لا يعلم علم الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، على وجه الاختصاص والتفرد من دون عباد الله . قدّر الله هذا الحكمة يعلمها ، فلمح طرفاً منها ، وفي ترك الناس على حذر من

(١) البخاري ومسلم .

أمرها ، وفي توقع دائم لها ، وفي استعداد مستمر لفتحها ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى . فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون في كل لحظة على أهبة للقاء فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار . . وجعل الساعة غيباً مجهولاً متوقعا في أي لحظة من لحظات الليل والنهار « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » . . « وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » .

إن الساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب ، فمن ذا يدري إن كانت على وشك . والناس عنها غافلون وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . . والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدروا ما ينتظرهم فيها ، فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محبوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية وهم يعرفون ما هي حين تكون . وأنها لحق . أنهم يعلمون أنها الحق . إن وعد الله حق . . إنه آت لا ريب فيه . إنه واقع لا يتخلف . . « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرونكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . إنه حق والحق لا بد أن يقع والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحميد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكثوه من أنفسكم ، وميعاد الله آت لا ريب فيه . « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » .

وكل ميعاد يجيء في أجله الذي قدره الله له . لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يستقدم لرجاء أحد . وليس شيء من هذا عبثاً ولا مصادفة . فكل شيء مخلوق بقدر . وكل أمر متصل بالآخر ، وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التي لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له . والساعة غيب غائر

في ضمير المجهول « إليه يُرد علم الساعة » « قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » . ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على موعد يوم القيامة ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعداداً لملاقاته بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد دون الخلق جميعاً فالعلم لله وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والمخلوق وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبه ولا شريك ، ويتمحص العلم له سبحانه . ويقف الخلق بما فيهم الرسل والملائكة في مقامهم متأدين عند مقام الألوهية العظيم . . « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » . ووظيفتي الانذار ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

إن الله يوجه الرسول ﷺ إلى تأكيد أمر البعث بأوثق تأكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه تأكيد (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . « إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفع الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العظيم » . « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم » . انه ليس بعد قسم الرسول بربه تأكيد ثم لتنبؤن بما عملتم . فليس شيء منه يتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة . فانه يعلم ما في السموات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . وقد وعد الله الناس أنه يجازيهم بالاحسان احساناً ومجازيهم بالسوء سوءاً « إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع » . فالحساب لا بد هناك وأنه إذا أمهلهم الحساب في الأرض ، فليس يمهمل حسابهم في الآخرة .

لقد كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الساعة . متى موعدها « يسألونك عن الساعة أبان مرسيا . فيم أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . متى موعدها ، ولكن انها لأعظم من أن تسأل أو نسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه ، فهو الذي ينتهي

اليه أمرها . وهو الذي يعلم موعدها ، وهو الذي يتولى كل شيء فيها ، ووظيفتك وحدودك ، أن تنذر بها من ينفعه الانذار ، وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها ، ويتوقعها في موعدها الموكول الى صاحبها سبحانه وتعالى .

ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات ، وقياس الحياة الدنيا اليها في احساس الناس وتقديرهم : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ، فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل الى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها ، وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياؤها ، فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم . عشية أو ضحاها ، وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة ، والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من المعصية والطغيان ، والتي يحرفهم الهوى فيعيشون له فيها . تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها . هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة زهيدة تافهة . أومن عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ، ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى ، ألا انها الحماقة الكبرى . الحماقة التي يرتكبها انسان . يسمع ويرى .

٢ - أشراط الساعة وعلاماتها

يقول الله سبحانه : « أُرِيتَ الْآزِفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » . أُرِيتَ الْآزِفَةَ واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة . وهذه هي الساعة قد اقتربت وها هي ذي أشراطها قد أوضعها رسول الله ﷺ ، كما أوضعها القرآن الكريم ، حتى يستشعر بها القلب . يستشعر برهبة هذه الأحداث الجسام . وعلامات الساعة على قسمين علامات صغرى ، وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة ، وتكون في أصلها معتادة الوقوع ، وعلامات كبرى ، وهي التي تُقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة مريعة . وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع .

٣ - في المسيح والمهدي عليهما السلام

يقول الله سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن مُشبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » . ان قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يحبط فيها اليهود - كما يحبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون : انهم قتلوه ويسخرون من قوله انه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية .

والنصارى يقولون : انه صُلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام . والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب ، وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين ، فلقد تتابعت الأحداث سراعاً ، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين . الا ما يقصه رب العالمين . والأنجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته . كلها كُتبت بعد فترة من عهد المسيح ، وكانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد . وقد كُتبت معها أناجيل كثيرة . ولكن هذه الأنجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ، واعتبرت رسمية ، واعترف بها ، لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات . ومن بين الأنجيل التي كُتبت في فترة كتابة الأنجيل الكثيرة ، انجيل برنابا ، وهو يخالف الأنجيل الأربعة المعتمدة ، في قصة القتل والصلب ، فيقول : « ولما دنت الجنود مع يهوذا ، في المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جهم غفير . فلذلك انسحب الى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نيماً . فلما رأى الخطر على عبده ، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل ، سفراءه . أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه

في السماء الثالثة ، في صحبة الملائكة التي تسبح الى الأبد . ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التي أوصد منها يسوع . وكان التلاميذ كلهم نياماً . فألقى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع ، حتى اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت يا سيدي معلمنا . أنسيتنا الآن ، الغم (١) . وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة — انني حدثت في ظلام الليل قبل الفجر — ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية . « وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . أما القرآن فيقرر قراره الفصل : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، « بل رفعه الله اليه » . ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة ، أم كان بعد الحياة ، ومتى كانت هذه الوفاة وأين ، وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواء .

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة ، إلا ما ورد في سورة أخرى من قوله تعالى « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي » . وهذه كذلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده . وقد اختلف السلف في مدلول قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ، باختلافهم في عائد الضمير في موته ، فقال جماعة : وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته — أي عيسى — وذلك على القول نزوله قبيل الساعة . وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته . أي موت الكتابي . وذلك على القول بأن الميت — وهو في سكرات الموت — يبين له الحقيقة حيث لا ينفعه أن يعلم ، وقد بين رسول الله ﷺ بياناً واضحاً عن نزول عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده

(١) نقلاً عن كتاب « محاضرات في النصرانية » للاستاذ الشيخ محمود أبو زهرة .

ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً^(١) ، فيكسر الصليب^(٢) ، ويقتل
الخنزير^(٣) ، ويضع الجزية^(٤) ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد^(٥)) زاد في رواية :
(وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها^(٦)) . ثم يقول أبو هريرة :
أقرؤوا إن شئتم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته^(٧) » .
وفي أخرى قال : قال رسول الله ﷺ : والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً ،
فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص^(٨) فلا

-
- (١) أي حاكماً عادلاً . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، ٦ : ٣٥٦ « والمعنى أنه عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة ، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة . »
- (٢) قال الحافظ ابن حجر : أي يبطل دين النصرانية ، بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه .
- (٣) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ٤ : ٣٤٣ أي يأمر بإعدام الخنزير ، مبغية في تحريم أكله ، وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدّعون أنهم على طريقة عيسى عليه السلام ، ثم يستحلون أكل الخنزير ، ويبالغون في محبته .
- (٤) أي عن أهل الكتاب ، ويحملهم على الإسلام ، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل ، فيصير الدين واحداً ، فلا يبقى أحد من أهل الدمة ليؤدي الجزية . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦ : ٣٥٦ « ويؤيده أن عند الإمام أحمد من وجه آخر عند أبي هريرة « وتكون الدعوى - أي الملة - واحدة » .
- (٥) أي يكثر المال جداً . وسبب كثرته : نزول البركات ، وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم ، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها ، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة .
- (٦) وذلك أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة ، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله . قال العلامة فضل الله التوربشتي رحمه الله تعالى : لم تنزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك ، أي خيراً من الدنيا وما فيها ، وإنما أراد بذلك أن الناس يرفقون في أمر الله ، ويזהدون في الدنيا ، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها .
- (٧) قال الحافظ ابن حجر : « قال ابن الجوزي : إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله صلى الله عليه وسلم : وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها » ، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس ، وشدة إيمانهم وأقبالهم على الخير ، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا . والسجدة تطلق ويراد بها الركعة .
- (٨) القلاص : جمع قلوص : وهي الناقة .

يسمى عليها ، ولتذهبن الشحناء^(١) والتباغض والتحاسد ، وليدعونا الى المال فلا يقبله أحد^(٢) .

وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : « ليس بيني وبينه - يعني عيسى - نبي ، وانه نازل ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربع^(٣) ، الى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين^(٤) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الاسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملئ كلها إلا الاسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون » .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ، فيقول أعيهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة^(٥)) .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم^(٦)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده :

(١) الشحناء : العداوة . انما تزول هذه الامراض من القلوب والنفوس لزوال حب الدنيا الذي هو سبب العداوات .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أي هو معتدل القامة وهو الى الطول اقرب . ولونه اقرب الى الحمرة والبياض .

(٤) ممصرتين : ثوب ممصر اذا كان فيه صفرة خفيفة يسيرة . وفي رواية احمد « .. فاذا رأيتموه فاعرفوه : رجلا مربوعا ، الى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران .. » .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) أخرجه البخاري ومسلم ، قال الحافظ بن حجر في فتح الباري ٦ : ٣٥٨ : وعند احمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى : « واذا هم بعيسى ، فيقال : تقدم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم امامكم فليصل بكم » .

نُهِيلَسْنَ^(١) ابن مريم بفتح الروحاء^(٢) حاجاً أو معتمراً ، أو لَيْسْتَيْنِيهَا^(٣) .
 عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لو لم يبق من الدنيا
 إلا يوم واحد لَطَوَّلَ اللهُ ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي -
 يواطئُ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسمُ أبي ، يملأ الأرضَ قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظمأً
 وجوراً^(٤)) .

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (لو لم يَبْقَ
 من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً^(٥)) .
 عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (المهديُّ
 من عترتي من ولد فاطمة^(٦)) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :
 (المهديُّ مني ، أجلى الجبهة^(٧) ، أفنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت
 جوراً وظمأً ، ويملك سبع سنين^(٨)) .

٤ - في الدَجَال

عن عامر بن شراحيل الشعبي رحمه الله : (أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت
 الضحاك بن قيس - وهي من المهاجرات الأوَّل - فقال : حدثيني حديثاً سمعته من
 رسول الله ﷺ ، لا تُسنديه إلى أحد غيره ، فقالت : لئن شئت لأفعلن ، فقال :

(١) معنى (ليهلن) ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً : لبيك اللهم لبيك ، محرماً بحج أو بعمره .
 ومعنى أو (ليتينيهما) أو ليجمعن بين الحج والعمره .
 (٢) مكان في طريق النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة الى بدر . قيل يبعد عن المدينة
 ستة أميال .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) أخرجه أبو داود وإسناده حسن .

(٦) أجلى الجبهة : يقال رجل أجلى : إذا ذهب شعر رأسه الى نصفه .

(٨) أخرجه أبو داود وإسناده حسن .

أجل حديثي ، فقالت : نكحتُ ابن المغيرة وهو من خيار قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله ﷺ ، فلا تأيَّمتُ^(١) خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفر من أصحاب محمد ﷺ ، وخطبني رسول الله ﷺ على مولاة أسامة بن زيد ، وكنتُ قد حدثتُ أن رسول الله ﷺ قال : من أحببني فليُحِبَّ أسامة ، فلما كلمني رسول الله ﷺ : قلتُ : أمري بيدك فانكحني من شئتَ ، فقال : انتقلي إلى أم شريك - وأم شريك امرأة غنية من الأنصار ، عظيمة النفقة في سبيل الله ، ينزل عنها الضيفان - فقلتُ : سأفعلُ ، قال : لا تفعلي ، إن أم شريك كثيرة الضيفان . فإني أكره أن يسقط عنك خمارك ، أو ينكشف الثوب عن ساقيك ، فيرى القوم منك بعض ما تكرهين ، ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبد الله بن عمرو بن أمّ كلثوم ، وهو رجل من بني فهر - فهر قريش - وهو من البطن الذي هي منه ، فانتقلتُ إليه ، فلما انقضت عدتي سمعتُ نداء المنادي - منادي رسول الله ﷺ - الصلاة جامعة ، فخرجتُ إلى المسجد ، فصليتُ مع رسول الله ﷺ ، فكنتُ في النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : ليلزم كل انسان مُصلاته ، ثم قال : أنشدون لي جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إني والله ما جمعتكم لرغبة ، ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تقيموا الداري كان رجلاً نصرانياً ، فجاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدثكم عن المسيح الدجال^(٢) ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَحْم وجُذام ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أرفؤوا^(٣) إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب^(٤) السفينة ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة

(١) تأيَّمت المرأة : مات زوجها أو فارها .

(٢) الدجال : الكذاب .

(٣) أرفأت السفينة : قارب إلى الشط وأدليتها من البر . وذلك الموضع مرفأ .

(٤) أقرب القارب : سفينة صغيرة تكون إلى جانب السفن البحرية يشتمعون بها حوائجهم

من البحر .

أهلب^(١) ، كثير الشعر ، لا يدرون ما قبّله من دُبُرِه . فقالوا : ويلك ، ما أنت ؟ قالت : أنا الجسّاسة^(٢) قالوا : وما الجسّاسة ؟ قالت : أيها القوم ، انطلقوا إلى هذا الرجل الذي في الدّير ، فإنه إلى خبركم بالاشواق ، قال : لما سمّيت رجلاً ، قرّرتنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم انسان رأيناه قطّ خلّقا ، وأشدّه وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ، ما بين ركبتيه الى كعبيه بالحديد قلنا : ويلك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتم^(٣) ، فلعب بنا الموج شهراً ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلّسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة ، فلقينا دابة أهلب ، كثير الشعر ، لا ندري ما قبّله من دُبُرِه من كثرة الشعر ، فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجسّاسة ، قلنا : وما الجسّاسة ، قالت : اعمدوا الى هذا الرجل الذي في الدير ، فإنه إلى خبركم بالاشواق ، فأقبلنا اليه سراعاً ، وفزّنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة . فقال : أخبروني عن نخل بَيسان ، قلنا عن أي شيء تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخله هل يثمر ؟ قلنا له : نعم ، قال : أما إنه يوشك أن لا تثمر ، قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية ، قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء ، قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب ، قال : أخبروني عن عين زُغَر ، قالوا عن أي شيء تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها ، قال : أخبروني عن نبيّ الأميين ، ما فعل ؟ قالوا : [قد] خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب ، وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إن

(١) أهلب : ما غلظ من الشعر ، والأهلب : الغليظ الخشن .

(٢) الجسّاسة : فتّالة من التجسس ، وهو الفحص عن بواطن الأمور ، وأكثر ما يقال ذلك

في الشر .

(٣) اغتلام البحر : اضطراب أمواجه واحتياجه .

ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني ، أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدعُ قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة ، فهما مُحَرَّمَتان عليّ كلتاها ، كلما أردت أن أدخل من واحدة ، أو واحداً منها ، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً^(١) يصدني عنها ، وإني على كل نقب^(٢) منها ملائكة يحرسونها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : وطعنَ بمخصرته في المنبر : هذه طيبة ، هذه طيبة - يعني : المدينة - ألا هل كنتُ حدثتكم عن ذلك؟ فقال الناس : نعم ، قال : فإنه أعجبني حديث تميم : أنه وافق الذي كنتُ أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ، ما هو ؟ من قبل المشرق ما هو ؟ وأوماً بيده إلى المشرق - قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ^(٤) .

وفي رواية قالت : « قَدِمَ على رسول الله ﷺ تميم الداري ، فأخبر رسول الله ﷺ : أنه ركب البحر ، فتأهت به سفينته ، فسقط إلى جزيرة ، فخرج إليها يلتمس الماء ، فلقي انساناً يجره شعره .. واقتصَّ الحديث ، وفيه : ثم قال : أما إنه لو قد أُذن لي في الخروج قد وطئتُ البلاد كلها غير طيبة ، فأخرجه رسول الله ﷺ إلى الناس فحدثهم ، وقال : هذه طيبة وذاك الدجال . »

عن النواس بن سميان رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال^(٥)

(١) صلتاً : المسلول من غمده ، المهيأ للضرب به .

(٢) النقب : الطريق في الجبل .

(٣) المخصرة : عصا ، أو قضيب ، أو سوط كانت تكون بين الخطيب إذا تكلم .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أوصاف هذا الدجال وأحواله وأفعاله ونهايته أوفى بيان . وذكر الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١٣ : ٨٦ و ٨٩ - ٩٠ مما رواه - خاصة - الصحابيُّ الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه يهودي ، وأنه لا يولد له ولد ، وأنه لا يدخل المدينة ولا مكة » . رواه مسلم في صحيحه ، ١٨ : ٥٠ ، « وإن عينه اليمنى عوراء ، جاحظة ، لا تخفى ، كأنها نخعة - أي نعمة - في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري - يعني شدة انقادها - معه من كل لسان ، ومعه صورة

الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء » رواه أحمد في « مسنده » ٣ : ٧٩ ، « وبين يديه رجلان يندبآن أهل القرى ، كلما خرجا من قرية دخل أوائله » رواه أبو يعلى والبزار . وذكر الحافظ ابن حجر موطن خروجه فقال في « فتح الباري » أيضا ١٣ : ٧٩ « وسيكون خروجه من قبل المشرق جزما ، ثم جاء في رواية أنه يخرج من خراسان ، أخرج ذلك أحمد والحاكم من حديث أبي بكر ، وفي رواية أخرى : أنه يخرج من أصبهان ، أخرجها مسلم . ويخرج أولا فيدعي الأيمان والصلاح ، ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الألوهية ! » ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى في « فتح الباري » ١٣ : ٩١ و ٩٣ « قال الخطابي : فإن قيل : كيف يجوز أن يشجري الله الآية على يد الكافر ؟ فإن أحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف ينالها الدجال وهو كذاب مفتر يدعي الربوبية ؟ » فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دموه ، وهو أنه أعور ، مكتوب على جبهته : كافر ، يقرأه كل مسلم . فدمواه داحضة مع وسم الكفر ، ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان الها لازال ذلك عن وجهه . وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان . » ثم قال الحافظ ابن حجر بعد كلام الخطابي هذا : « وفي الدجال دلالة بينة — لمن عقل — على كذبه ، لانه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآلة به من صور عينيه — أي عييهما — فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم ، فأسوا حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأول ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك وعدلها ، وأزل عنها الصعة ! فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئا فازل ما هو مكتوب بين عينيك » . ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى : « وقال القاضي عياض : في هذه الأحاديث حجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال وأنه شخص معين ، يبتلى الله به العباد ، ويقدره على أشياء كاحياء الميت الذي يقتله ، وظهور الخصب ، والانهار ، والجنة والنار ، واتباع كنوز الأرض له فتنت ، وكلها ذلك بمشيئة الله تعالى ، ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ، ويقتله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام . »

وقال الشيخ أبو بكر بن العربي : الذي يظهر على يد الدجال من الآيات : من انزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجذب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ، ومياه تجري ، كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليَهْلِكِ المرتاب ، وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : لا فتنة أعظم من فتنة الدجال . وكان صلى الله عليه وسلم يستعيد منها في صلاته تشريعا لامته صلى الله عليه وسلم « انتهى . »

ذاة غداة فحَفَضَ فيه ورفَّع^(١) حتى ظنناه في طائفة النخل^(٢) ، فلما رُحنا اليه عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله : ذكرت الدجال الغداة ، فحَفَضَتْ فيه ، ورفَّعت^(٣) ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفي عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه^(٤) دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط^(٥) ، عينه طافئة^(٦) ، كافي أشبهه بـ « عبد العزى بن قطن^(٧) » . فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح « سورة الكهف^(٨) » ، إنه خارج خلة^(٩) بين الشام والعراق ، فعات^(١٠) مينا ،

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم « ١٨ : ٦٣ » في معنى قولان :

اولال : ان معنى (حَفَضَ فيه) : حَقَرَهُ ، ومعنى (رفَّع) فيه : عظمه وفخمه ، فمن تحقيره قوله صلى الله عليه وسلم : انه أعور العين ، وأنه أهون على الله من ذلك ، وأنه لا يقدر على قتل أحد الا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وأنه يضمحل أمره ويقتل بعد ذلك . ومن تفخيمه وتعظيم فتنته قوله صلى الله عليه وسلم : ليس بين يدي الساعة خلق أعظم من الدجال ، وما من نبي الا وقد أندر أمته الامور الكذاب ، وتلك الامور الخارقة للعادة التي تقع له .

القول الثاني في معنى (حَفَضَ فيه ورفَّع) : أنه خفض من صوته لكثرة ما تكلم في شأن الدجال ، فخفض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد « انتهى (خفض ورفَّع) ضبطهما النووي بتسديد الغاء فيهما ، وضبطهما القرطبي بتخفيف الغاء فيهما كما في شرح العلامة الأبي على صحيح مسلم » ٧ : ٢٦٧ ، ففيهما روايتان .

(٢) أي في ناحية سبائين النخيل بقرب المدينة كأنه حضر الآن .

(٣) الحجيج : الحاجج ، وهو المجادل والمخاصم الذي يطلب الحجة ، والمعنى : ان خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، أي محاججه ومدافعه ومبطل أمره . وإن خرج ولست فيكم فكل مؤمن حجج نفسه : يدفع عن نفسه ، فقد استخلفت الله عليكم ، فهو لكم نعم العون على دحره وقهره .

(٤) القطط : الشعر الجعد ، أي شديد . جمودة الشعر .

(٥) أي ذهب نورها ، وهي العين اليمنى المسوحة ، ويروى طافية ، بالياء أي مرتفعة نائمة ، فتكون العين اليسرى كما حققه النووي في شرح « صحيح مسلم » ٢ : ٢٣٥ .

(٦) هو رجل من خزاعة ، هلك في الجاهلية .

(٧) وروى الامام احمد ومسلم وابو داود والنسائي عن أبي الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال .

(٨) انه خارج خلة : أي انه يخرج قصدا وطريقا بين الجهتين ، والتخلل : الدخول في الشيء .

(٩) العيث : أشد الفساد ، أي افسد عن يمينه وافسد عن شماله مسرعا في افساده أيما اسراع .

وعاثّ شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا^(١) ، قلنا : يا رسول الله : وما لبث في الأرض ؟^(٢)
قال : أربعون يوماً : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه
كأيامكم^(٣) ، قلنا : يا رسول الله ، فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟

(١) قال القرطبي : أمر صلى الله عليه وسلم من لقي الدجال أن يثبت على الإسلام ، فإن لبث الدجال في الأرض قليل ، وأما من لم يلقه فليفرغه لحديث أبي داود : « من سمع بالدجال فليثأ عنه ، فوالله أن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه مما يبعث به - يشيره من الشبهات » .
(٢) أي ما قدر مكثه وبقائه ؟

(٣) قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٨ : ٦٥ « قال العلماء : هذا الحديث على ظاهره ، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « وسائر أيامه كأيامكم » وقوله لهم حين سأله : فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، اقدروا له قدره » انتهى . وقال العلامة ابن ملك : « وهذا القول في تفسير امتداد الأيام الثلاثة جار على حقيقته ، ولا امتناع فيه ، لأن الله قادر على أن يزيد كل جزء من أجزاء اليوم الأول حتى يصير مقدار سنة ، خارقاً للعادة ، كما يزيد في أجزاء الساعة من ساعات اليوم » .

قال العلامة علي القاري في « المرقاة شرح المشكاة » ٥ : ١٩٥ بعد نقله كلام ابن ملك المذكور : « وهذا القول الذي قرره لا يفيد إلا بسط الزمان كما وقع له صلى الله عليه وسلم في قصة الاسراء مع زيادة على المكان . لكن لا يخفى أن سبب وجوب كل صلاة إنما هو وقتها المقدر من طلوع صبح ، وزوال شمس ، وغروبها ، وفيجوبة شفقها ، وهذا لا يتصور إلا بتحقيق تعدد الأيام والليالي على وجه الحقيقة ، وهو مفقود .

فنتقول - وبالله التوفيق ومنه المعونة في التحقيق - قد تبين لنا بإخبار الصادق المصدوق صلوات الله تعالى وسلامه عليه أن الدجال يبعث معه من المشتبهات ويفيض على يديه من التمويهات : ما يسلب من ذوي العقول عقولهم ، ويخطف من ذوي الأبصار أبصارهم ، فمن ذلك تسخير الشياطين له ، ومجيئه بجنة ونار ، وأحياء الميت على ما يدميه ، وتقويته على من يريد أضلاله تارة بالطر والمشب وتارة بالازمة والجذب . ثم لاخفاء أنه أسحر الناس ، فلم يستقم لنا تأويل هذا القول إلا أن نقول : أنه يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم حتى يخيل اليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة : أسفار بلا ظلام ، وصباح بلا مساء ، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه . وإن الشمس لا تطوي عنهم نسياءها ، فيبقون في حيرة والتباس من امتداد الزمان ، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل والنهار ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يجتهدوا عند مصادمة تلك الاحوال ، ويقدرُوا لكل صلاة قدرها ، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة . هذا الذي اهتمنا إليه من التأويل ، والله الموفق لاصابة الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل » . انتهى .

قال : لا ، اقدروا له قدره^(١) ، قلنا : يا رسول الله ، وما اسرعه في الأرض^(٢) ؟
قال : كالفيت استدبرته الريح^(٣) ، فيأتي على القوم ، فيدعوهم^(٤) فيؤمنون به ،
ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتُمْطر ، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم^(٥)
أطول ما كانت عليه درأ^(٦) ، وأسبغه ضروعاً^(٧) ، وأمدّه خواصر^(٨) ، ثم يأتي
القوم فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون بمحلين^(٩) ، ليس
بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة^(١٠) ، فيقول لها : أخرجي كنوزك فتبعه

-
- (١) قال العلامة علي القاري في « المرقاة » ٥ : ١٩٦ : « اي قدروا لوقت صلاة يوم في يوم
— كسنة مثلاً — قدره الذي كان له في سائر الايام ، كمحبوس اشتبه عليه الوقت » . وقال الامام
النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٨ : ٦٦ : معناه انه اذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون
بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر ، ثم اذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا
العصر ، واذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذلك العشاء والصبح ،
ثم الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ، وهكذا حتى ينتضي ذلك اليوم ، وقد وقع فيه صلوات سنة ، كلها فرائض
مؤداة في وقتها . ثم قال النووي : قال القاضي عياض وغيره : هذا حكم مخصوص بذلك اليوم ،
شرعه لنا صاحبه الشرع . قالوا : ولولا هذا الحديث ووكلتنا الى اجتهادنا لاقتصرنافيه على الصلوات
الخمس عند الاوقات المعروفة في غيره من الايام . واما اليوم الثاني الذي كثره ، والثالث الذي
كجمعة فيقدر لهما ايضاً كالיום الاول على ما ذكرناه ، والله اعلم » .
(٢) اي ما مقدار سرعته في مسيره على الارض وطي مسافاتها .
(٣) وفي رواية « الدر المنثور » للسيوطي ٤ : ٣٣٧ « كالفيت يشتد به الريح » . والمراد
بالفيت هنا : الغيم ، اي يسرع في الارض اسراع الغيم تسوقه الريح بقوة وصف .
(٤) اي الى باطله ودعوى الهيته .
(٥) السارحة : الماشية ، اي ترجع عليهم آخر النهار ماشيتهم التي تذهب بالغدوة اول
النهار الى مراعيها .
(٦) الدر : اللبن .
(٧) الفروع : جمع فرع وهو الثدي ، واسياغ الفروع : اتساعها بكثرة ما فيها من اللبن .
(٨) الخواصر : جمع خاصرة وهي ما تحت الجنب ، ومدها كناية عن زيادة امتلائها بكثرة
ما رفته واكثته من المراعي الخصبة .
(٩) المحل : الذي قد اجذبت ارضه وقحطت وغلت اسماره ، اي يصبحون وقد اصابهم
المحل ، وهو انقطاع المطر ويبس الارض من الكلا والعشب .
(١٠) اي بالارض الخربة والبقياع الخربة .

كنوزها كيعاسيب النحل^(١) ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه
جزلّتين^(٢) ، رمية الغرض ، ثم يدعو فيقبل ، ويتهلل وجهه بضحك ،
فبينما هو كذلك ، إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنارة
البيضاء شرقي دمشق ، بين مهردّتين^(٣) ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا
طأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ^(٤) ، فلا يحل لكافر يجد ريح
نفسه إلا مات^(٥) ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب

-
- (١) اليعاسيب : ذكور النحل ، ومفردها يعسوب ، وهو أمير النحل متى طار تبعته جماعته ،
والمراد تتبع كنوز تلك الأرض الدجال كما تتبع جماعات النحل يعاسيبها طاعة ومتابعة .
(٢) جزلّتين ، يروى بفتح الجيم وكسرهما ، أي قطعتين . والغرض : الهدف . ومعنى رمية
الغرض : أنه حينما يقطع الدجال بالسيف ذلك الشاب قطعتين تتباعد القطعتان عن بعضهما كبعد
رمية السهم عن القوس . وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم في صحيحه
١٨ : ٧٣ « ثم يمشي الدجال بين القطعتين » .
(٣) رويت هذه اللفظة بالدال والدال ، يقال : إن الثوب صنع بالورس ثم بالزعفران جاء
لونه مثل زهر الحوذانة ، فذلك الثوب مهروود ، ومعناه : ينزل عليه السلام في حلتين لأبسهما ،
وفيهما صفرة خفيفة .

(٤) أي إذا خفض رأسه قطر منه الماء ، وإذا رفعه تحدّر منه تحدرا أي نزل ببطء ، وصفة
ذلك كالجمان وهو حبات من الفضة كبار ، تشبه اللؤلؤ في صفائها وحسنها . وهذا كله كناية عن
حسن سيدنا عيسى وجمال خلقته الشريفة عليه الصلاة والسلام إلى جمال ثيابه الذي تقدم ذكره ،
هذا ما ذكره العلماء في توجيه معنى جملة (إذا طأ رأسه قطر) . وقد وصف رسول الله صلى الله
عليه وسلم سيدنا عيسى عليه السلام في حديث آخر ، رواه البخاري في صحيحه ٦ : ٣٤٩ ، ١٣ :
٨٥ بشرح الحافظ ابن حجر فقال في ثغته « رجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال ، سبط
الشعر ، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللهم تضرب لفته بين منكبيه ، يقطر رأسه ماء ، ربعة ، أحمر
كأنما خرج من ديماس ، وتفسير هذه الثعوت الكريمة : اسم جميل السمرة جدا ، له شعر ليس
بجعد ، طويل يضرب على منكبيه في غاية النظافة والنضارة والجمال ، حتى كأنه يقطر من الماء الذي
سرحه به ، مربوع القامة ، تملو وجهه حمرة ، كأنه خرج من الحمام تتحدّر من وجهه حبات المساء
كاللؤلؤ الوضاء .

(٥) أي لا يمكن ولا يقع لكافر يجد ريح نفس عيسى عليه السلام إلا مات . قال العلامة
القرطبي : يعني أن الله سبحانه قوى نفسه عيسى عليه السلام حتى يصل إلى إدراك بصره ،
ومعناه أن الكفار لا يقربونه ، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم ، حفظ من الله سبحانه
له ، وأظهار لكرامته . نقله العلامة الأبي في شرح « صحيح مسلم » ٧ : ٢٧٢ . وقال العلامة علي
القاري : ومن الغريب أن نفس عيسى عليه الصلاة والسلام تعلق به الأحياء لبعض ، والامانة لبعض .

لشد^(١)، فيقتله، ثم يأتي عيسى [بن مريم] قوم قد عصمهم الله منه، فبمسح عن وجوههم^(٢)، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم، أني قد أخرجت عباداً لي، لا يدان لأحد بمقاتلهم^(٣)، فحرز عبادي إلى الطور^(٤)، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون^(٥)، فيمر^(٦) أوائلهم على بحيرة طبرية^(٦) فيشربون ما فيها، ويمر^(٦) آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه

(١) بلدة معروفة الآن في فلسطين، قريبة من بيت المقدس.

(٢) قال العلامة علي القاري رحمه الله تعالى: أي يزيل عن وجوههم ما أصابها من غبار سفر الغزو مبالغة في إكرامهم، أو المعنى: يكشف ما نزل بهم من آثار الكآبة والحزن على وجوههم بما يسره من خبره لهم بقتل الدجال.

(٣) أي لا قدرة ولا طاعة لأحد بمقاتلتهم.

(٤) أي ضمهم إلى الطور واجعله لهم حرزا. والطور هو الجبل الذي نجاى عليه سيدنا موسى ربه.

(٥) الحدب: المرتفع من الأرض، وينسلون: يسرعون. يعني أنهم يتفرقون في الأرض فلا ترى مرتفعاً من الأرض إلا وقوم منهم يهبطون منه مسرعين في المشي إلى الفساد.

(٦) هي بحيرة في طرف جبل، وجبل الطور مغل عليها.

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية، منها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣: ٧٧ وابن ماجه في «سننه» ٢: ١٣٦٣ واللفظ لأحمد من حديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله عز وجل «وهم من كل حدب ينسلون» فيغشون الناس - لفظ ابن ماجه - فيعمون الأرض - وينتاق المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون اليهم مواشيهم. ويشربون مياه الأرض، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ها هنا ماء مرة!

حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قالهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دما، للبلاء والفتنة!

فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، لفظ ابن ماجه: كنف الجراد فتأخذ بأعناقهم - فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس. فيقول المسلمون ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطئها على أنه مقتول، فيجدهم موتى بعضهم على بعض! فينادي: يا معشر المسلمين ألا ابشروا أن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه - تمن وتمتلىء شحما - كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قمل « انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

مرّة ماء ويحصّر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه^(١) ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار ، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النّغف^(٢) في رقابهم فيصبحون قرّسى^(٣) ، كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض^(٤) ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم^(٥) ونشئهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت^(٦) ، فتحملهم فتطرحهم حيثما شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدرٍ ولا وبر^(٧) ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزّلفة^(٨) ، ثم يقال للأرض : أنبتى ثمرتك ، وردّي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة^(٩) الرمانة ، ويستظلون بقحفها^(١٠) ، ويبارك في الرّسل^(١١) ، حتى إن اللقحة^(١٢) من الإبل لتكفي الفئام من الناس^(١٣) ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم

(١) أي يحاصرون ويحبسون في جبل الطور .

(٢) دود يكون في أنوف الإبل والغنم .

(٣) فرس : جمع فرس ، وهو القتيل . وفرس : أي موتى . قال العلامة التوربشتي رحمه الله تعالى : يعني أن القهر الإلهي الغالب على كل شيء يفرسهم دفعة واحدة ، فيصبحون قتلى ! وقد نبه صلى الله عليه وسلم بالكلمتين أعني : (النّغف) و (فرس) على أن الله سبحانه يهلكهم في أدنى ساعة بأهون شيء وهو النّغف ، فيفرسهم فرس السبع فريسته بعد أن طارت نعمة البغي في رؤوسهم — خيلاؤه وكبره — ، فزعموا أنهم قاتلوا من في السماء !

(٤) أي ينزلون من جبل الطور .

(٥) أي رانحتهم الكريهة .

(٦) البخت : نوع من الجمال طوال الأعناق . أي يرسل الله طيراً كبيرة طويلة قوية .

(٧) أي لا يحفظ ولا يصون منه بيت تراب أو حجر أو صوف أو شعر .

(٨) أي كالمرآة في صفائها ونظافتها .

(٩) أي الجماعة .

(١٠) أي بقشرها لشدة كبرها .

(١١) أي اللبن الحليب .

(١٢) اللقحة : الناقة التي يكون لها لبن .

(١٣) الفئام : الجماعة الكثيرة .

لتكفي الفخذ^(١) من الناس ، فينأهم كذلك ، إذ بعث الله ريحاً طيبة ، فيأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج^(٢) الحمر ، فعليهم تقوم الساعة^(٣) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : يخرج الدجال فيتوجه قبلة رجل من المؤمنين فتلقاه المسالحي^(٤) - مسالحي الدجال - فيقولون له : أين تعمد ؟ فقال : أعمد إلى هذا الذي خرج ، قال : فيقولون له : أو ما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما برئنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهم لبعض : أليس نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ؟ قال : فينطلقون به إلى الدجال ، فاذا رآه المؤمن قال : أيها الناس ، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ قال : فيأمر الدجال به فيشج ، فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً ، قال : فيقول أما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكذاب ؟ قال فيؤمر به ، فيؤسر^(٥) بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجله ، قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، قال : ثم يقول له قسم ، فيستوي قائماً ، قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة^(٦) قال : ثم يقول : يا أيها الناس : إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس ، قال : فيأخذه الدجال ليدبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلاً ، قال : فيأخذ يديه ورجليه فيقذف به ، فيحصب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما أُلقي

(١) أي الجماعة أقل من القبيلة .

(٢) التهارج : الاختلاف والاختلاط ، وأصله القتل . والمعنى أي يتسافدون في الأرض تسافد الحمير ، أي يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترون لذلك . والهرج : الجماع . وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك . إذ في الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » ١٨ : ٨٨ : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) المسالحي : جمع مسلحة ، وهم قوم معهم سلاح .

(٥) أسرته بالمنشار : إذا شققته به .

(٦) المعرفة واليقين .

في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين^(١) .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال ربعي ابن حيراش : انطلقت أنا وعقبة بن عمرو الى حذيفة ، فقال عقبة : حدثني بما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال ، فقال سمعته يقول : « إن مع الدجال اذا خرج ماءً وناراً ، فأما الذي يرى الناس أنه نار : فماء بارد ، وأما الذي يرى الناس أنه ماء ، فنار تحترق ، فمن أدرك ذلك اليوم منكم فليقع في الذي يرى أنه نار ، فانه ماء عذب بارد ، قال حذيفة : وسمعتة يقول : إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه المَلَك ليقبض روحه ، فقال : هل علمت من خير ؟ قال : ما أعلم ، قيل له : انظر ، قال : ما أعلم شيئاً ، غير أنني كنت أبايع الناس في الدنيا ، فأُنْظِر^(٢) المَوسِرَ وأتجاوز عن المعسير ، فادخله الله الجنة ، وسمعتة يقول : ان رجلاً حضره الموت ، فلما يتيسر من الحياة ، أوصى أهله ، إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً^(٣) ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى اذا أكلت لحمي ، وخلصت إلى عظمي ، وإمتحششت^(٤) ، فخذوها فاطحنوها ، ثم انظروا يوماً راحاً^(٥) فاذروه في اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله عز وجل اليه فقال : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، قال فغفر الله له ، فقال عقبة وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نباشاً^(٦) .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : ما سأل أحدر رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته ، وإنه قال لي : ما يضره منه ؟ قلت : إنهم يقولون ، إن معه جبل خبز ، ونهر ماء ، قال : هو أهون على الله من ذلك^(٧) .

(١) رواد مسلم .

(٢) انظار المعسر : تأخير ما عليه من الدين الى حال يساره .

(٣) الحطب الجزل : القوي الغليظ .

(٤) الامتحاش : الاحتراق .

(٥) يوم راح : كثير الريح شديده

(٦) أخرجه البخاري ومسلم .

(٧) أخرجه البخاري ومسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه ، إنه أعور ، إنه يجيء بمثال الجنة والنار ، فإني يقول : إنها الجنة : هي النار ، وإني أنذركم به ، كما أنذر به نوح قومه (١) .

عن أبي الزبير رحمه الله سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول : أخبرني أم شريك ، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : لينفرن الناس من الدجال في الجبال . قالت أم شريك : فلت يا رسول الله ، فإن العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل (٢) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من سمع بالدجال فليستأ منه ، فوالله : إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات (٣)) .

عن حميد بن هلال رضي الله عنه عن رط - منهم أبو الدماء وأبوقتادة - قالوا : كنا نمر على هشام بن عامر ، نأتي عمران بن حصين ، فقال ذات يوم : إنكم لتجاوزوني إلى رجال ما كانوا بأحضر لرسول الله ﷺ مني ، ولا أعلم بحديثه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة : خلق أكبر من الدجال) . وفي رواية (أمر أكبر من الدجال (٤)) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : ذكر الدجال بين ظهراني الناس ، فقال : (إن الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كان عنه عنة طافئة (٥)) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي .

(٣) أخرجه أبو داود ، وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه مسلم ، وقد روى مسلم في صحيحه ٥ : ٨٨ من ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا : « اللهم اني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المخيا والمات » .

(٥) أخرجه مسلم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما من نبي إلا وقد أنذر أُمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإئت ربكم عز وجل ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه (ك ف و ^(١)) . وفي رواية لمسلم ان نبي الله ﷺ قال : (الدجال مكتوب بين عينيه « ك ف ر » أي كافر) وفي أخرى : قال : قال رسول الله ﷺ (الدجال ممسوح العين ، مكتوب بين عينيه (كافر) ثم تهجاها (ك ف ر) يقرؤها كل مسلم) .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إني حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال قصير أفحج ^(٢) ، جعد أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ولا بجحراء ^(٣) ، فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ^(٤)) .

عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يقتل ابن مريم الدجال بباب لد ^(٥)) .

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : (الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خواسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان ^(٦) المطرقة ^(٧)) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة ^(٨)) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود .

(٢) الفحج : تباعد ما بين الفخذين .

(٣) عين جحراء : أي عين مختفية .

(٤) أخرجه أبو داود وأسناده حسن .

(٥) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح .

(٦) المجان : جمع مجنة . وهو الترس .

(٧) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٨) أخرجه مسلم .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ (يخرج الدجال في خفة من الدين ^(١)) ، وإدبار من العلم ، وله أربعون يوماً يسيحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه . وله حمار يركبه ، عَرَضُ ما بين أذنيه أربعون ذراعاً . فيقول للناس : أنا ربكم . وهو أعور . وإن ربكم ليس بأعور . مكتوب بين عينيه : (كافر) ، ك ف ر ، مُهْجَةً يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب . يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمها الله تعالى عليه ، وقامت الملائكة بأبوابها ، ومعه جبال من خبز ، والناس في جهد إلا من تبعه . ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول : الجنة ، ونهر يقول النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار ، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة .

ويبعث الله معه شياطين تكلم الناس . ومعه فتنة عظيمة ، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفساً ثم يحييها فيما يرى الناس ، لا يُسَلِّطُ على غيرها من الناس . ويقول : يا أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب عز وجل ؟ فيفر السامعون إلى جبل الدخان بالشام ، فيأتهم فيحاصروهم ، فيشتد حصارهم ، ويجهدهم جهداً شديداً .

ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَّحَر ، فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جَنِّي ^(٢) ، فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن عليه السلام ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه . فحين يراه الكذاب ينأى كما ينأى الملح في الماء ^(٣) ، فيمشي إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي يا روح الله هذا

(١) أي في حال ضعف من الدين وقلة أهله . ولغظ « في خفة » رواية الحاكم ، ورواية أحمد « في خفة من الدين » والمعنى واحد ، مأخوذ من خفق الليل إذا ذهب ، أو خفق الأمر إذا اضطرب .

(٢) هذا كناية عن شدة أذاه .

(٣) أي يخفي ويتوارى كما يدوب الملح في الماء .

اليهودي ، فلا يترك من كان يتبعه أحداً إلا قتله (١) .

ويلاحظ أن قراءة أخبار الساعة واليوم الآخر وما يكون قبله لها الأثر الكبير البالغ في تصحيح سلوك الناس وتحسين أعمالهم ، كما أن بُعد الناس عن قراءتها ومعرفتها يتسبب عنه سوء العمل ، وينسي على طول الزمن تلك الحقائق من الأذهان ، ويقلصها في النفوس ، حتى قد يقع الاستبعاد والاستخفاف بها ، أو الإنكار لوقوعها من لا علم عندهم ، ولذلك كان السلف الصالح يداومون على تعليم تلك الأخبار والأحاديث ويذكرونها للناس حتى الأولاد في الكتاب - المدرسة - ليتوارثوا معرفتها بعلم وبصيرة ، ولتكون لهم بها عقيدة راسخة أصيلة ، تزيد متانة على مرور الأيام .

وروى مسلم في « صحيحه » : ٥ : ٨٨ (عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا : (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) . قال مسلم بن الحجاج : بلغني أن طاوساً - وهو راوي هذا الحديث عن ابن عباس - قال لابنه : أدعوت بها في صلاتك ؟ فقال : لا ، قال : أعذ صلاتك) . انتهى . وإنما أمر طاوس ابنه بأعادة الصلاة لأنه كان يرى وجوب الدعاء في الصلاة بهذه الدعوات الأربع ، ويرى أن المصلي إذا أخل بها بطلت صلاته ، وذلك لما فهمه من وجوبها من اهتمام النبي ﷺ بتعليمها للصحابة كما يعلمهم السورة من القرآن ، وأمره لهم بالدعاء في صلواتهم . وقد روى مسلم في « صحيحه » أيضاً : ٥ : ٨٧ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة بهذا الدعاء . وروى أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » . وما هذا الاهتمام العظيم من النبي ﷺ بهذا

(١) رواه أحمد في « مسنده » وصححه الحاكم في « المستدرک » ورجاله ثقات . وقال الذهبي في تلخيص المستدرک ٤ : ٥٣٠ « وهو على شرط مسلم » ، وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧ : ٣٤٤ وقال « رواه أحمد بإسنادين ، رجال أحدهما رجال الصحيح » .

الدعاء عملاً وأمرًا وتعليلًا إلا لما حواه من التعوذ من عظام الأمور والأهوال الكائنة الحلق ولا ريب ، ولهذا جزم الامام ابن حزم الظاهري بفرضية قراءة هذا التعوذ بعد الفراغ من التشهد كما في كتابه « المحلى » ٣ : ٢٧١ أخذاً من ظاهر حديث أبي هريرة رضي الله عنه وبعد أن روى الامام ابن ماجه في « سننه » حديث أبي امامة الباهلي ، وفيه أوصاف الدجال وأحواله وأعماله ونزول عيسى عليه السلام ، قال عقبه : (سمعتُ أبا الحسن العنناني يقول : سمعتُ عبد الرحمن المحاربي يقول : ينبغي أن يدفع هذا الحديث الى المؤدّب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب « أي في المدرسة » . وقال العلامة السّفاريني في شرح منظومته في العقيدة الاسلامية المسمى « لوامع الأصرار البية » ٢ : ١٠٦ « ينبغي لكل عالم أن يثبت أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال ، ولا سيما في زماننا هذا الذي اشرأبت فيه الفتن ، وكثرت فيه المحن ، واندرست فيه معالم السنن ، وصارت السنة فيه كالبدع ، والبدعة شرع يتبّع » انتهى (١) .

٤ - في الفتن والاختلاف أمام القيامة

١ - الفتن

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع^(٢) الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا^(٣) » .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال - عند قرب وفاته - : « ألا أحدثكم حديثاً عن رسول الله ﷺ ، لا يحدثكم به أحدٌ عنه بعدي ؟ سمعت رسول الله ﷺ

(١) كتاب التصرّيح بما تواتر في نزول المسيح تحقيق الاستاذ الشيخ عبدالفتاح ابو غدة ص ٨ .

(٢) قطع الليل : طائفة منه .

(٣) أخرجه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

يقول : « لا تقوم الساعة - أو قال : إن من أشرط الساعة - : أت يُرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويفشو الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة قيّم^(١) واحد^(٢) » .

عن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل ، ويُرفع فيها العلم ، ويكثر فيها الهرج ، والهرج : القتل^(٣) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشرط الساعة أن يتقارب الزمان^(٤) ، وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى^(٥) الشح ، ويكثر الهرج ، قالوا : يا رسول الله ، وما الهرج ؟ قال : القتل^(٦) » .
عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : « أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو

(١) قيّم المرأة : زوجها ، لأنه يقوم بأمرها ، وبما تحتاج اليه من نفقة وغيرها ، ومعنى الجملة الأخيرة : أن الرجل الواحد يكون راعياً وقائماً بمصالح خمسين امرأة ، له فيهن الزوجة من الواحدة إلى الأربع ، والباقي لسن زوجات له ، وإنما هن قريبات من أخوات وامهات وخالات وعمات وجدات ونحو ذلك .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) يتقارب الزمان : كناية من قصر الأعمار ، وقلة البركة فيها ، وقيل إن الزمان يتقارب حتى تكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كالיום ، واليوم كالساعة ، والساعة كاحتراق السعفة .

(٥) (يلقي الشح) قال الحميدي : لم يضبط الرواة هذا الحرف ، ويحتمل أن يكون « يلقي » بمعنى يتلقى ويتعلم ويتواصى به ويدعى اليه ، قال الله تعالى « ولا يلحقها إلا الصابرون » أي ما يعلمها وينبه عليها ، وقال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) أي تقبلها وتعلمها ، ولو قيل يلقي بمعنى يوجد ، لم يستقم ، لأن الشح ما زال موجود قبل تقارب الزمان ، ولو قيل : يلقي - مخففة القاف - لكان أبعد ، لأنه لو التقي لترك ، ولم يكن موجوداً ، وكأنه يكون مدحاً والحديث مبني على اللزم ، إلا أن في بعض الروايات لهذا الحديث « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يهم رب المال من قبض صدقته » فيكون يلقي - بالقاف مخففة - بمعنى الترك ، هذا لفظ الحميدي .

(٦) أخرجه البخاري ومسلم .

في قبّة آدم ، فقال أعددتاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مؤتان^(١) يأخذ فيكم ، كقعاص^(٢) الغنم ، ثم استفاضة المال ، حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيخدرون ، فبأتونكم تحت ثمانين^(٣) غاية ، تحت اثنا عشر ألفاً^(٤) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف » فقال له رجل من المسلمين : يا رسول الله ، ومتى ذلك؟ قال : « إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمر^(٥) » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف » قالت : قلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم ، إذا ظهر الحُبث^(٦) .

عن أبي مالك — أو أبي عامر الأشعري رضي الله عنهما قال عبد الرحمن بن غنم الأشعري : حدثني أبو عامر — أو أبو مالك الأشعري — والله ما كذبني سمع النبي ﷺ يقول « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحُرَّ والحرة والمعاذف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم^(٧) تروح عليهم سارحة لهم ، فيأتيهم رجل لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً ، فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة^(٨) » .

-
- (١) مؤتان : بضم الميم : موت يقع في الماشية فيهلكها .
 - (٢) القعاص : داء يأخذ الغنم ، لا يلبثها أن تموت .
 - (٣) اناية : بالغين المعصية : الرأية ، ومنه غاية الخمار ، وهي خرقعة يرفعها على بابه ، ومن رواه بالباء ، فإنه أراد الاجمة ، ذببه كثرة رماح العسكر بها .
 - (٤) أخرجه البخاري .
 - (٥) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن - يشهد له الذي بعده .
 - (٦) أخرجه الترمذي ، وهو حديث حسن يشهد له الذي قبله .
 - (٧) العلم : الجبل وما يهتدى به في البرية ، من بناء أو جدار أو غير ذلك .
 - (٨) أخرجه البخاري .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ : فذكر الفتن ، فأكثر في ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس^(١) ، فقال قائل : يا رسول الله : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : حَرَبٌ وحَرَبٌ^(٢) ، ثم فتنة السراء ، دخنتها^(٣) من تحت قدمي^(٤) رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما أوليائي المتقون ، ثم يصطلع الرجال على رجل كورك^(٥) على ضلع ، ثم فتنة الدهماء^(٦) ، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لكمة ، فإذا قيل انقضت عادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً وعيسى كافراً ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين^(٧) ، فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإن كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده^(٨) .

عن أبي إدريس الخولاني قال حذيفة رضي الله عنه^(٩) : والله إني لأعلم الناس بكل

-
- (١) (فتنة الاحلاس) : شبه هذه الفتنة التي اشار اليها بالاحلاس ، وهي جمع جلس ، وهي كساء يكون على ظهر البعير لدوام هذه الفتنة ولزومها .
- (٢) حَرَبٌ : بفتح الراء : ذهاب المال والاهل ، يقال حرب الرجل ، فهو حريب : اذا سلب اهله وماله .
- (٣) (دخنتها) : اثارها وهيجتها شبيها بالدخان الذي يرتفع ، اي ان اصل ظهورها هذا الرجل .
- (٤) وقوله « من تحت قدمي رجل » يعني أنه يكون سبب اثارها .
- (٥) (كورك على ضلع) مثل ، أي : انه لا يستقل بالملك ، ولا بلائمه ، كما ان الورك لا تلاثم الضلع .
- (٦) اراد بالدهماء : السوداء المظلمة ، وقيل اراد بالدهماء : الداهية .
- (٧) (فسطاطين) الفسطاط : الخيمة الكبيرة ، والمراد به في هذا الحديث : الفرقة المجتمعة المنحازة عن الفرقة الاخرى ، تشبيها بانفراد الخيمة عن الاخرى .
- (٨) أخرجه ابو داود واسناده صحيح .
- (٩) في « المستدرک » للحاكم : ٣٢٢ « وكننت أسأله عن الشر كيما أعرفه فأنتفيه ، وعلمت ان الخير لا يفوتني » ، اي اذ يسأل غيري منه . قال العلامة ابن أبي جمرة في كتابه « بهجة النفوس » ٢٦١ : ٤ : شاعت حكمة الله تعالى ان يقيم كلام من عباده فيما شاء سبحانه ، فحبب الى اكثر الصحابة السؤال عن وجود الخير ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم . وحبب الى حذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه ويكون سببا في دفعه عن اراد الله له النجاة .
- وكل من حبب اليه شيء فانه يفوق فيه غيره ، ولهذا كان حذيفة صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، حتى خص بمعرفة أسماء المنافقين ، وبكثير من الامور الآتية اي التي ستقع . ونقله ملخصا الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١٣ : ٣١ .

وفد عرف حذيفة رضي الله عنه بين الصحابة بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 روى مسلم في « صحيحه » ١٨ : ١٦ عن حذيفة أنه قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فما منه شيء إلا قد سألته ، إلا أنني لم أسأله ما يخرج أهل
 المدينة من المدينة ؟ . وروى البخاري ومسلم في « صحيحهما » أن أبا الدرداء قال لعقبة : ليس
 بكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ؟ يعني : حذيفة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله
 عن المنافقين ، وينظر إليه عند موت من يموت منهم ، فإن لم يشهد حذيفة جنازته لم يشهدا عمر .
 وهو الذي كان يحفظ حديث الفتنة كما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة رضي
 الله عنه : « كنا جلوسا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ قول رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في الفتنة كما قال : فقلت : أنا أحفظه كما قال ، قال : أنت لله أبوك هات ،
 أنك عليه لجريء . أي أنك لعالم به ، قوي على حفظه ، لكثرة اهتمامك بالسؤال عنه وعن أمثاله
 من أحاديث الفتن - فكيف ؟ » .

قلت : فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وجاره تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال : ليس هذه أريد ، إنما أريد الفتنة التي تموج كموج البحر .
 فقلت : مالك ولها ؟ لا بأس عليك منها يا أمير المؤمنين ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء
 وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير - أي تلك القلوب - على قلبين - أي على
 نوعين - أبيض مثل الصفا - أي الحجر الأبيض الأملس الأصم - فلا تضره فتنة ما دامت السموات
 والأرض . والآخر أسود مربادا - أي متفيرا مظلما تستهويه كل فتنة ، كالكوز مجخيا - أي منكوسا
 مقلوبا لا يعلق به خير ولا تستقر فيه حكمة ، لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب هواه .
 وإن بينك وبينها - أي الفتنة - بابا مغلقا يوشك أن يكسر ، فقال عمر : أكسرا ؟ فلو أنه فتح
 لعله كان يعاد ؟ قلت : لا بل يكسر ! قال : ذلك أخرى إن لا يغلق أبدا إلى يوم القيامة .

فقلنا - أي سامعو هذا الحديث من حذيفة - لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال :
 نعم ، كما يعلم أن دون غد الليلة . أنني حدثته حديثا ليس بالأغاليط . - أي حدثته حديثا صدقا
 محققا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا عن اجتهاد وراي - فهبنا أن نسأل حذيفة من
 الباب ؟ فقلنا لسروق : سله ، فسأله فقال : الباب عمر رضي الله عنه « رواه البخاري في « صحيحه »
 ٢ : ٢٦ ، ٢ : ٢٣٩ ، ٤ : ٩٥ و ٦ : ٤٤٥ ، ومسلم في « صحيحه » ٢ : ١٧٠ و ١٨ : ١٦ ورواه
 الترمذي وابن ماجه .

ومن كلام حذيفة وقد سئل أي الفتن أشد ؟ فقال : أن يعرض عليك الخير والشر ، فلا
 تدري أيهما تركب ! .

فتنة هي كاتنة بيني وبين الساعة ، وما بي [إلا] أن يكون رسول الله ﷺ أسراً إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري ، ولكن رسول الله ﷺ - قال يوماً - وهو في مجلس يتحدث عن الفتن ويعدّهن - : منها ثلاث لا يكدنّ يذنّ شيئاً ، ومنها فتن كرياح الصيف ، منها صغار ، ومنها كبار ، فذهب أولئك الرهط الذي سمعوه معي كلهم غيري (١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا تمرّ الدنيا حتى يمرّ الرجل بالقبور فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدّين ، ما به إلا البلاء » .

وفي رواية قال : « لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه (٢) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يحسّر الفرات عن جبل من ذهب يتقيلّ الناس عليه فيبقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، فيقول كل رجل منهم لحي أكون أنا أنجو » .

وفي رواية : قال : قال رسول الله ﷺ - « يوشك الفرات أن يحسّر عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً (٣) » .

عن عبيد الله بن حارث بن نوفل رضي الله عنه قال : « كنت واقفاً مع أبيّ ابن كعب ، فقال : لا يزال الناس مختلفّة أعناقهم في طلب الدنيا ، قلت : أجل ، قال : فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول « يوشك الفرات أن يحسّر عن جبل ذهب ، فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبنّ به كله ، قال : فيقتلون عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون (٤) » .

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم ، وأخرج البخاري الثانية .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم . وأخرج أبو داود والترمذي الرواية الثانية .

(٤) أخرجه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها »^(١) ، في مثل الاسطوان من الذهب والفضة ، فيجبيء القاتل ، فيقول : في هذا قتلت ، ويجبيء القاطع ، فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجبيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً^(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لياتين على الناس زمان ، لا يدري القاتل في أي شيء [قَتَلَ] ، ولا يدري المقتول في أي شيء مُقتل ؟ قيل : وكيف ؟ قال : الهرج ، القاتل والمقتول في النار »^(٣) .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الفتنة : « كسروا فيها قسيكم ، وقطعوا فيها أوتاركم ، والزمو فيها أجواف بيوتكم ، وكونوا كابن آدم »^(٤) .

وأخرجه أبو داود بزيادة في أوله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة قنناً كقطع الليل المظلم »^(٥) ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القسائم ، والمأشي فيها خير من الساعي ، فكسروا قسيكم ، وقطعوا أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإن دُخِلَ على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم^(٦) » وفي رواية « قالوا : فما تأمرنا ؟ قال :

(١) (تقيء الأرض أفلاذ كبدها) الافلاذ : القطع ، جمع فلاة ، والقيء مستعار لهما في

اخراج كنوزها ، كما يخرج القيء الطعام من الجوف .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) أخرجه الترمذي .

(٥) (قطع الليل) : طالفة منه ، أراد فتنة مظلمة سوداء ، تعظيماً لشأنها .

(٦) (كابن آدم) أراد بقوله : كابن آدم ، وقوله (كخير ابني آدم) هو ابن آدم لصليه هابيل

الذي قتله أخوه قابيل ، وما قال الله تعالى في أمرهما « لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك » وقوله « اني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار » .

كونوا أحلاس^(١) بيوتكم^(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان من المسلمين فيكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة^(٣) » .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتتلوا إمامكم ، وتجتلدوا بأسياكم ، ويرث دنياءكم شراركم^(٤) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة » . وفي رواية قال : قال رسول الله ﷺ « تقاتلون بين يدي الساعة قوماً نعالهم الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، حمر الوجوه ، صغار الأعين^(٥) » .

عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة : أن تقاتلوا قوماً ينتعزون نعال الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة^(٦) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق — أو بدابق^(٧) — فيخرج اليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا ، قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ،

-
- (١) أحلاس بيوتكم : فلان جلس بيته : إذا لزمه لا يفارقه ، مأخوذ من المجلس ، وهو الكساء الذي يكون على ظهر البعير .
- (٢) رواه أبو داود والترمذي ، وهو حديث صحيح .
- (٣) أخرجه البخاري ومسلم .
- (٤) أخرجه الترمذي ، ورواه أيضا ابن ماجه في الفتن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .
- (٥) أخرجه البخاري ومسلم .
- (٦) أخرجه البخاري .
- (٧) موقعان بالشام ، بقرب حلب .

فيقول المسلمون : لا والله كيف نخلي بينكم وبين اخواننا ، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث ، لا يقتلون أبداً ، فيفتحون قسطنطينية ، فيينا هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح الدجال قد خلفكم في أهاليكم^(١) ، فيخرجون ، وذلك باطل ، فاذا جاءوا الشام خرج ، فيينا هم يعدون للقتال يسوون صفوفهم ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فأممهم ، فاذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانداب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده — يعني المسيح — فبريهم دمه في حربته^(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « سمعت بمدينة ، جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحاق ، فاذا جاءوها نزلوا ، فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها — قال ثور بن يزيد : لا أعلمه إلا قال الذي في البحر — ثم يقولون الثانية : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون [الثالثة] : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيفرج فيدخلونها فيغنون ، فيينا هم يقتسمون الغنائم ، إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون^(٣) . »

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل^(٤) »

عن يسير بن جابر — أو أسير — رضي الله عنه قال : « هاجت ربيع حمراء بالكوفة ، فجاء رجل ليس له هجيري^(٥) إلا : يا عبد الله بن مسعود ، جاءت الساعة ،

(١) (خلفكم) : خلفت الرجل في أهله : اذا قمت فيهم مقامه ، وخلفهم العدو : اذا طرقتهم وهم غالبون .

(٢) (٤٦٣) : أخرجه مسلم .

(٥) « هجيري » هجيرة : أي عادته ودينه .

قال : فقعد - وكان متكئاً - فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ، ولا يُفرج بغنيمة ، ثم قال بيده هكذا - ونحوها نحو الشام - فقال : عدو يجمعون لأهل الاسلام ، ويجمع لهم أهل الاسلام ، قلت : الروم تعني ؟ قال : نعم ، ويكون عند ذلك القتال ردة شديدة ، فيتشرط^(١) المسلمون شرطة^(٢) للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة فيقتلون حتى يُمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، فاذا كان اليوم الرابع نهد^(٣) اليهم بقية أهل الاسلام ، فيجعل الله الدائرة عليهم ، فيقتلون مقتلة - إما قال لا يرى مثلها ، وإما قال لم ير مثلها - حتى إن الطائر ليمر بجناباتهم ، فما يتخلفهم حتى يخز ميثاً ، فيتعاد^(٤) بنو الأم كانوا مائة ، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يُفرج ، أو أي ميراث يُقسم ؟ فينأثم كذلك ؟ إذا سمعوا ببأس^(٥) هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ : إن الدجال قد خلفهم في ذرايعهم ، فيرفضون ما بأيديهم ، ويقبلون ، فيعشون عشرة فوارس طليقة ، قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ، أو قال : من خير فوارس^(٥) » .

قتال اليهود

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود [فيقتلهم المسلمون] ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر

(١) « شرطة » الشرطة : أول طائفة من الجيش بشهد الواقعة ، والتشرط : تفعل منه .

(٢) (نهد) الجيش لقتال العدو : إذا نهضوا اليه .

(٣) « فيتعاد » التعاد : تفاضل من العد ، أي يعد بعضهم بعضاً .

(٤) البأس : الخوف والشدة .

(٥) أخرجه مسلم .

والشجر ، فيقول الحبر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله ، إلا الغرقد ، فانه من شجر اليهود .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتاتلوا اليهود ، حتى يقول الحبر وراءه اليهودي : يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فاقتله (١) » .

٢ - ظهور الشرك واختفاء الايمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألياتُ (٢) نساء دوس على ذي الخلصة ، وذو الخلصة : طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية » وفي رواية : وذو الخلصة : « صنم كان يعبد دوس في الجاهلية بتبالة (٣) » .

عن مرداس الاسامي رضي الله عنه وكان من أصحاب الشجرة ، سمعه قيس ابن أبي حازم يقول : « يُقبض الصالحون ، الأول فالأول ، ويبقى حثالة كحثة التمر والشعير ، لا يعبا الله بهم شيئاً » .

وفي رواية : قال النبي ﷺ « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حثالة كحثة الشعير أو التمر ، لا يبايهم الله بالة (٤) » .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة على

(١) أخرجه مسلم الاولى ، والثانية البخاري .

(٢) (أليات نساء دوس على ذي الخلصة) ذو الخلصة : بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب ، وقيل : هو صنم ، وكان عمرو بن لحي نصبه بأسفل مكة ، حين نصب الأصنام في مواضع شتى ، فكانوا يلبسونه الثلايد ، ويلقون عليه بيض النعام ، ويلدحون عنده ، فكان معنهم في تسميتهم بذلك : أن عبادة الخلصة ، وقيل : هو الكعبة اليمانية ، والمعنى : أنهم يرتدون الى جاهليتهم في عبادة الاوثان ، فترمل نساء دوس ، ما خلفت حوله ، فترجع أردانهم .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجه البخاري وقال : ويقال : حفالة وحثالة ، حثالة كل شيء أردؤه وارذله .

أحد يقول : الله الله « وفي رواية « حتى لا يقال في الأرض الله الله (١) » .
 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث
 رجلاً من اليمن ألين من الحرير ، فلاتدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته (٢) » .
 عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم
 الساعة إلا على شرار الناس (٣) » .

عن عبد الرحمن بن شماس رضي الله عنه قال : كنتُ عند مسامة بن مَخْلَدٍ
 وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار
 الخلق ، هم شرُّ من أهل الجاهلية ، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم ، فبينما هم على ذلك
 أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسامة : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة :
 هو أعلم ، وأما أنا ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون
 على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة ، وهم على
 على ذلك ، قال عبد الله : أجل ، ثم يبعث الله رجلاً كريح المسك ، مسهماًس الحرير ،
 فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم
 تقوم الساعة (٤) » .

عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي قال : سمعت عبد الله بن عمر
 رضي الله عنه — وجاهه رجل — فقال : « ما هذا الحديث الذي تتحدث به الناس ؟
 تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله ! — أو لا إله إلا الله ،
 أو كلمة نحوها — لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون
 بعد قليل أمراً عظيماً : يهرق البيت ، ويكون ، ويكون ، ثم سمعته يقول : قال
 رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي ، فيمكث أربعين ، لا أدري — وفي
 رواية قال ابن عمرو — لا أدري أربعين يوماً ، أو شهراً ، أو عاماً — فيبعث الله

(١ و ٢) أخرجه مسلم .

(٣ و ٤) أخرجه مسلم .

عيسى بن مريم ، كأنه عروة بن مسعود ، يطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس . سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبداً^(١) جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : فيبقى شرار الناس في خيفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دار^(٢) رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها^(٣) ، ورفع ليتها ، فأول من يسمعه : رجل يلوط إليه ، [قال] فيصعق^(٤) ، ويصعق الناس ، قال : ثم يرسل الله — أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل^(٥) — أو الظل — نعمان يشك — فينبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم (وقِفْوهم إنهم مسؤولون) ثم يقال لهم : أخرجوا بعث النار ، يقال : [من] كم ؟ يقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذاك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق^(٦) .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار ، حتى تُعبد اللات والعزى ، قلت يا رسول الله ، إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله [ولو كره المشركون] أن ذلك تام ، قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة ، فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم^(٦) » .

(١) (كبداً جبل) استعارة ، والمراد : ما غمض من بواطنه .

(٢) (أصغى ليتها) التليت : صفحة العنق ، واصفاؤه أمالته .

(٣) (يصعق) يغشى عليه ويموت .

(٤) (انطلل) : الندى الذي ينزل من السماء في الصحو .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) أخرجه مسلم .

عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنا أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي ، لم يُرفع عنه إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » (١) .

هـ — طلوع الشمس من مغربها

يقول الله سبحانه : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون » (٢)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها) وفي رواية (فإذا طلعت ورآها الناس ، آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » (٣)) .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس ، فقال : يا أبا ذر ، أين تذهب هذه ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال فأنها تذهب تستأذن في السجود ، فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعي من حيث شئت ، فتطلع من مغربها ، قال : ثم قرأ : (وذلك مستقر لها » (٤)) وقال : وذلك في قراءة عبد الله بن مسعود (٥) .

(١) قال علي المدني : هم أصحاب الحديث . هذا الحديث أورده رزين هكذا ، وأخرج مسلم بعضه ، وهو المذكور في فضائل الامة « من كتاب الفضائل » . رواه مسلم في الامارة ، و أبو داود رقم ٤٢٥٢ في الفتن والترمذي رقم ٢٢٢٠٣ و ٢٢٢٠ و ٢٢٣٠ في الفتن .

(٢) انعام ١٥٧ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود .

(٤) يس : ٣٨ .

(٥) أخرجه الترمذي وهو حديث صحيح .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقتل فئتان عظيمتان ، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يُبعث دجالون كذابون ، قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يُقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - وهو القتل القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى همّ رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي عرضه عليه . لا إرب لي فيه ، وحتى يتناول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبها بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحّته - أي ناقته - فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلبط^(١) حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة ، وقد رفع أكلته^(٢) إلى فيه ، فلا يطعمها^(٣)) .

ولمسلم في رواية : أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يخرج قريب من ثلاثين ، كلهم يقول : إنه نبي ، ولا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، ويؤمن الناس أجمعون ، فيؤمنوا لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولا تقوم الساعة حتى تقتاتوا اليهود ، فيفر اليهودي وراء الحجر ، فيقول يا عبد الله ، يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، ولا تقوم الساعة حتى تقتاتوا قوماً نعالهم الشعر)

(١) لاط حوضه ويلوطه ليطا ولوطا : اذا لطخه بالطين وأصلحه به - أي يطينه ويصلحه .

(٢) (أكلته) (الأكله) بضم الهمزة : اللقمة ، وفيه : نمة .

(٣) أخرجه البخاري .

٦ - الدابة والدخان

١ - الدابة

يقول الله سبحانه (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

إن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ، وحق القول على الباقي فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ، وإنما يقضي عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . . والدواب لا تتكلم ، أو لا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الحارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : حفظتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الآيات خروجا : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل حاجتها ، فالأخرى على إثرها قريباً ^(١)) .

٢ - الدخان

يقول الله سبحانه - : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس . هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنسى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه ، وقالوا : معلمٌ مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون . يوم نبعث البطشة الكبرى إنا منتقمون) . قال بعض المفسرين : لم يضر الدخان بعد . بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد في حديث أبي سريجة .
عن حذيفة ابن أسيد الغفاري رضي الله عنه - قال : أشرف علينا رسول الله

(١) أخرجه مسلم .

ﷺ من عرفة وكنا نتذكر الساعة ، فقال ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ^(١) : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ^(٢) والدابة ^(٣) ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال . وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس

(١) أي عشر علامات . وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفا بينها بالواو ، والواو لطلق الجمع ، فلا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا . وهذه الآيات كما قال الطيبي - رحمه الله تعالى - ونقله عنه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١١ : ٣٠٣ - أمارات « وعلامات » للساعة اما على قربها ، واما على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ويأجوج ومأجوج ، والخسف ، ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحترق الناس .

(٢) قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وبداخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد أي كالرأس المشوي على على الجمر . رواه ابن جرير في تفسيره ٢٥ : ٦٨ . وجاء تفسير « الدخان » بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة . رفعه بعضهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي سعيد الخدري وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهما ، بوقفه بعضهم ولم يرفعه كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) هي المعنية بقوله تعالى في سورة النمل : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ : ٣٧٤ « هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أمر الله ، وتبديلهم الدين الحق ! يخرج الله لهم دابة من الارض فتكلم الناس على ذلك » . قال الألوسي في « روح المعاني » ٦ : ٣١٤ « أي تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها ، أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات . وقصارى - أي غاية - ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ، ليست من نوع الانسان اصلا ، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الارض ، ونخرج وفي الناس مؤمن وكافر .

ويدل على ذلك ما أخرجه أب داود الطيالسي في « مسنده » ص ٣٣٤ ، وأحمد في « مسنده » ٢ : ٢٩٥ ، ٩١ ، ٤٩١ ، لترمذي في « سننه » ١٣ : ٦٣ وحسنه ، وابن ماجه في « سننه » ٢ : ١٣٥١ واللفظ له ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود ، رعصا ، وسى بن عمران ، عليهما السلام ، فتجرو وجه المؤمن - أي تنوره وتبضه - بالعصا ، وتخطم أنف الكافر - أي تسمه وتجعل عليه علامة - بالخاتم ، حتى أن أهل الهواء - أي أهل السم الذي يجمعهم ماء يستقون منه - ليجتمعون ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر » ثم قال الألوسي : وهذا الخبر أقرب الاخبار المذكورة في الدابة للقبول « انتهى » .

— أو تحشر الناس^(١) — تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا^(٢) .

(١) أي تسوقهم الى مكان حشرهم وهو ارض بلاد الشام . وقد ثبت ذلك في عدة احاديث اوودها الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١١ : ٣٢٦ و ٣٢٨ ، قال رحمه الله تعالى :
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة ، تحشر الناس ، قلنا : يا رسول الله فما تأميرنا ؟ قال : عليكم بالشام »
رواه الترمذي في سننه ٩ : ٦٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، رواه احمد في « مسنده » ٢ : ٨ و ٥٢ و ٦٩ و ٩٩ و ١١٩ و أبو يعلى .

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انكم محشورون ونحا بيده نحو الشام ، رجلا — أي مشاة — وركبانا — أي راكبين — وتجرون على وجوهكم » رواه الترمذي في « سننه » ٩ : ٢٥٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والنسائي وسنده قوي ، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير اهل الارض الزمهم مهاجر ابراهيم — أي بلاد الشام — ويبقى في الارض شرار اهلها ، تلفظهم ارضهم ، وتقدرهم نفس الله — أي يكره الله خروجهم الى الشام ومقامهم بها فلا يوفقهم لذلك فتحشرهم النار مع القردة والخنازير » . رواه ابو داود في « سننه » ٣ : ٤ والحاكم في « المستدرک » ٤ : ٥١٠ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي في « تلخيص المستدرک » .
وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول اشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب » . رواه البخاري في « صحيحه » ٦ : ٢٦١ . وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تبيت نار على اهل المشرق فتحشرهم الى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا — من القيلولة وهي النوم في وقت الضحى ، والمراد أن النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا في الليل والنهار — ويكون لها ما سقط منهم وتخلف ، وتسوقهم سوق الجمل الكبير » . أي تسوقهم ببطء . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ : ١٢ : « رواه الطبراني في الكبير والوسط ، ورجاله ثقات » .

ومن حديفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « . . . » .
ذلك — أي وآخر العلامات الكبرى للساعة — نار تخرج من قعر عدن ، ترحل الناس الى المحشر »
رواه مسلم في « صحيحه » ١٨ : ٢٨ وأبو داود في « سننه » ٣ : ١١٥ .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « وجه الجمع بين هذه الاخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها من المشرق الى المغرب » وذلك ان ابتداء خروجها من قعر عدن ، فإذا خرجت انتشرت في الارض كلها . والمقصود بقوله صلى الله عليه وسلم : « تحشر الناس من المشرق الى المغرب » . ارادة تعميم الحشر ، لا خصوص المشرق والمغرب ، وأما جعل الغاية الى المغرب فلان الشام بالنسبة الى المشرق : مغرب انتهى بزيادة وتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة ^(١)) .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف ... عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ربكم أندركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال ^(٢)) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثني يعقوب ... عن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : غدوت على ابن عباس - رضي الله عنها - ذات يوم ، فقال : مائتُ الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق . فمائتُ حتى أصبحت ^(٣)) .

== وقد تضمنت هذه الاحاديث بيان مكان خروج النار ، وبيان وقته وخروجها ، وكيفية سوقها للناس ، ومنتهأها بهم . وجاء في حديث آخر بيان حال الناس حين يساقون الى المحشر في الشام . روى البخاري في « صحيحه » ١١ : ٣٢٦ ومسلم في « صحيحه » ١٧ : ١٩٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر الناس - أي الى الشام قبل قيام الساعة وهم احياء - على ثلاث طرائق - أي على ثلاث احوال - راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، - هذا معطوف على محذوف تقديره : واحد على بعير ، واثنان على بعير - وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير - أي أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد ، فيركب بعضهم ويمشي بعضهم ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا » . أي تلازمهم كل الملازمة الى ان يصلوا الى مكان المحشر .

(١) وفي رواية مثله ، والجميع بواو العطف ، وفي آخره « وخويصة أحدكم » وأخرجه مسلم . خويصة : تصغير خاصة الانسان وهي ما يخصه دون غيره ، وأراد به الموت الذي يخصه ويمنعه من العمل ان لم يبادر به قبله .

(٢) رواه الطبراني . وقال ابن كثير في التفسير وهذا اسناد جيد .

(٣) قال ابن كثير في التفسير (وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس - رضي الله عنهما - حبر الامة وترجمان القرآن .) وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين - مع الاحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة .

٧ - في قرب مبعث النبي ﷺ من الساعة وخروج الكذابين ، وخروج النار

١ - في قرب مبعث النبي ﷺ من الساعة

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام ، وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين ^(١)) .
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين ، كفضل أحدهما على الأخرى ، وضم السبابة والوسطى ^(٢)) وفي رواية قال : (بعثت في نفس الساعة ، فسبقتها كفضل هذه على الأخرى) .

٢ - في خروج الكذابين

عن جابر بن سمرة رضي الله عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن بين يدي الساعة كذابين ^(٣)) .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يبعث كذابون دجالون ^(٤) ، قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ^(٥)) . وفي رواية أبي داود (حتى يخرج ثلاثون دجالون كلهم يزعم أنه رسول الله) .
وفي أخرى : (حتى يخرج ثلاثون كذاباً ، كلهم يكذب على الله ورسوله) .

(٢٤١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) ليس المراد بالبعث الإرسال المقارن للنبوّة ، بل هو كقولهم تعالى : « انا أرسلنا الشياطين على الكافرين » ، وليس المراد أيضاً من ادعى النبوّة مطلقاً ، فانهم لا يحصون كثرة ، لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء ، وانما المراد من قامت له شوكة وبدت لهم شبهة .

(٥) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٣ - خروج النار قبل الساعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الابل ببصرى^(١)) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ستخرج نار من حضرموت - أو من بحر حضرموت - قبل القيامة تحشر الناس ، قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام^(٢)) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أول أشرار الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب^(٣)) .

٨ - أشرار متفرقة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع^(٤) الانس ، وحتى تكلم الرجل عذبة^(٥) سوطه وشرائه نعله ، وتخبزه فخذ به أحدث أهله بعده^(٥)) .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس لكع^(٦) بن لكع^(٧)) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) عذبة سوطه : السر المعلق في طرفه .

(٥) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٦) (لكع بن لكع) اللكع عند العرب : العبد ، وقيل : هو اللثيم ، وقيل : هو الوسخ القدر .

(٧) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقوم رجل من قحطان يسوق^(١) الناس بعصاه^(٢)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم ، إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فحضر رسول الله ﷺ في حديثه ، فقال بعض القوم : سمع ما قال ، فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه ، قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا ذا يا رسول الله ، قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد^(٣) الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة^(٤)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تذهب الليالي والأيام حتى يملك رجل من الموالى ، يقال له : الجهجاه) وفي نسخة : « الجهجل^(٥) » .
عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان ، يحشو المال ولا بعده^(٦)) .

عن نافع بن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فأتى النبي ﷺ قوم من قبيل المغرب عليهم ثياب الصوف ، فوافقوه عند أكمة^(٧) ، فانهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد ، قال : قالت لي نفسي : اتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه^(٨) ، قال : ثم قلت : لعله نجى^(٩) معهم ، فقامت بينهم وبينه ،

(١) (يسوق الناس بعصاه) لم يرد العصا نفسها ، وأنا ضربها مثلا لطاعتهم ، واستيلائه عليهم ، إلا أن في ذكرها دليلا على ذلك ، وعلى خشونته عليهم وعسفه بهم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) (وسد الأمر إلى غير أهله) إذا اسند إليه ، هذا كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه واتفاقهم عليه .

(٤) أخرجه البخاري .

(٥) (٦ ، ٥) أخرجه مسلم .

(٦) الأكمة : الرابية ، والموضع المرتفع من الأرض .

(٧) الاغتتيال : هو أن يؤخذ الإنسان بفتنة من حيث لا يشعر .

(٨) (النجى) : المناجى وهو المسار .

قال : فحفظت منه أربع كلمات أعدمن في يدي ، قال : تغزوت جزيرة العرب ، فيفتحها الله ، ثم فارس ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزوت الدجال فيفتحها الله ، قال : فقال نافع : يا جابر — هو جابر بن سمرة — لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بركة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً^(٢)) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (من حديث جبريل حين أتى النبي ﷺ إلى قول النبي ﷺ لجبريل) : (فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها^(٣) ، وأن ترى الحفاة العراة ، العالة ، رعاء^(٤) الشاء يتطاولون في البنيان^(٥)) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد^(٦)) .
وعند النسائي قال : (من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد) .

(١ ، ٢) أخرجه مسلم .

(٣) ربتها ، ربها : الرب ، السيد والمالك ، وهي الأمة تلد للرجل فيكون ابنها مولى لها ، وكذلك ابنتها ، لأنها في الحسب كآبيها . والمراد أن السبي يكثر ، والنعمة تغشو في الناس وتظهر .

(٤) الرعاء : جمع راع ، والشاء ، جمع شاة .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه أبو داود واسناده صحيح .

الباب الرابع

الاهوال في الكون يوم القيامة

١ - نفخة الصور

إن الحكمة تقتضي أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلاق ، وبحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض ، ومن كل قرى وأصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم .. (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم) .

هناك يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، لا ينصرهم أحد ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف الذين خرجوا من يده - سبحانه - ليعملوا ، وعادوا إلى يده - سبحانه - ليتسلموا منه الجزاء . وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل وبجال للابتلاء . أما يوم القيامة فهناك قد مُقضى الأمر وعادت الأمور إلى الله (وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) .. وطوي الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا وجهاً لوجه أمام الله الذي ترجع إليه وحده الأمور .. فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الايمان والاسلام ، وهذا الفرع الأكبر

ينتظرهم ؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم . والسيلم منهم قريب . السلم في الدنيا والسلم في الآخرة يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . ويوم يُقضى الأمر . . (وقد قضى الأمر) . . (وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) . ففي هذا اليوم يوم الحشر . . يوم ينفخ في الصور (هو القرن المجوف كالبلوق) وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ، بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به .

والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة المولى له ، والروايات المأثورة تقول : هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور حيث يهبون للنشور — وهذه النفخة الثانية ، أما الأولى فيصعق لها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ . . (ما بين النفختين أربعون) قيل أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيتُ ، قالوا : أربعون شهراً ، قال : أبيتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيتُ ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجبُ الذئب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة (١) .

هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من أحياء ومن في السموات كذلك — إلا من شاء الله — فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لتقوم الساعة وثوبها بينها لا يبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف بلبن لفتحته لا يطعمه ، ولتقوم الساعة يلو ط (٢) حوضه

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) لاطه : بمعنى قدره أي طينه لئلا يتسرب منه الماء .

لا يسقيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع لقمته إلى فيه لا يطعمها (١) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس ، فلا تزال ترتفع في السماء وتنتشر حتى تملأ السماء ، ثم ينادي مناد : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه) . قال رسول الله ﷺ : (فوالذي نفسي بيده إن الرجلين ينشران الثوب فلا يطويانه ، وإن الرجل ليمدُّ حوضه فلا يسقي منه شيئاً أبداً ، والرجل يجلب ناقته فلا يشرب أبداً (٢)) .

وهذه الأوصاف للصور والآثار النفخة فيه تعطينا عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض ، أو تصوروه .. وهو من ثم غيب من غيب الله .. نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وآثاره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين ، إنما هي الظنون ، وفي هذا اليوم الذي ينفخ فيه الصور يبرز - حتى للمنكرين - ويظهر حتى للمطموسين - أن الملك لله وحده ، وأنه لاسلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . فأوئى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور .. (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) .

مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج .. ثم إذا نفخة التجمع والنظام (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) فإذا هم في الصف في نظام .

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ،

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه الطبراني بإسناد جيد . رواه ثقات .

ولكان في اسماعهم صمماً .. إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون إعراضاً . لقد نزع الغطاء عن عيونهم فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقاً . وفي ذلك اليوم تتضاءل أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخضع الأصوات للرحمن ، وتعنو الوجوه للحي القيوم . (وقد آتيناك من لدنا ذكراً . من اعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملاً . يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً . نحن أعلم بما يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) .

هؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويا لسوءها من أحوال ! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالجرم موت يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول ، ومن الرهبة الخيمة على ساحة الحشر . وفيهم يتخافتون ؟ إنهم يحسدون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم وقصرت أيامها في مشاعرهم . فليست في حسهم سوى أيام قلائل (إن لبثتم إلا عشراً) وأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر (إن لبثتم إلا يوماً) ، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ، ويتضاءل متاع الحياة ومموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت بالذائد كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها مليئة بالسعادة والمنسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لانهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ، وهناك تنقطع الروابط وتسقط القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . وشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ولا يتساءلون . ليست هناك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الاخلاص . (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . اخلاص القلب كله لله وتجرده من كل شائبة

ومن كل عرض ومن كل غرض ، وصفاته من الشهوات والانحرافات ، وخلوه من
التعلق بغير الله ، فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً (يوم لا ينفع مال ولا بنون)
ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض
وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير ، فماذا ينتظرون . (ما ينظرون إلا صيحة واحدة
تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور
فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذا ما وعد
الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) .
إنه مشهد خاطف سريع ، صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء
فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون
لها حساباً . فاذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصي بمن بعده
ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة ، وأين هم ؟ إنهم مثله في أما كنهم منتهون .
ثم ينفخ في الصور فاذا هم ينتفضون من القبور ، ويمضون سراعاً ، وهم في دهش وذعر
يتساءلون (من بعثنا من مرقدنا) ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون .
هذا ما وعد الرحمن . ثم إذا الصيحة الأخيرة ، صيحة واحدة ، فاذا هذا الشئب الخائر
المذهول المسارع في خطاه المدهوش ، يثوب ، وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف
وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع (فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا
ما كنتم تعملون) . وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على
الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ﷺ (كيف أنعم وقد التقم
صاحب القرن القرن ، وحتى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ) فكان
ذلك ثقل على أصحابه فقالوا : كيف نفعل يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله
ونعم الوكيل ، على الله توكلنا)^(١) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وابن حبان في صحيحه ،
ورواه أحمد .

فقال : ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه ^(١) .

نحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق ، وتحدث بعدها الأحداث وهي غيب (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) . والصور البوق ينفخ فيه ، وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السموات ومن في الأرض . إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . وفيها يصعق كل حي في السموات والأرض إلا من شاء الله ، (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) . يوم ينفخ في الصور فيصعقون قبيلاً البعث والنشور يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع وكلهم . أتوه أذلاء مستسلمين . (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) .

هذه الحلاقي التي غبرت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التي لا تحصى ، والتي تعاقب فيها الموتى كلها تشقق ، وتنكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو هائلة في مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله . وبصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) . فيتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة . ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية رتمراً كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ، وكأنما الجبال مذعورة من المذعورين ، ممزوجة من المفزوعين هائلة مع الهامين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار .

مشهد مروع حقاً ، هذه الأرض التي يجوس الانسان خلالها آمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الانسان بروعتها

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه .

واستقرارها . هذه مع هذه فتدك كالكرة في يد الوليد . إنه مشهد يشعر معه الانسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم فاذا وقع هذا ، إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فهو حينئذ الأمر الهائل . الواقعة لا بد أنها واقعة ، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة .

إن هذه النصوص التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وروابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ، ونكاد نشهده هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ، وهي نصوص مجملة توحى بشيء عام ، وهذه النصوص هي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذي خلق ، والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بحبالها بكتلتها هذه ، الضخمة بالقياس إلينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون فتدك ذكة واحدة ، ونكاد نشهد السماء وهي مشققة والكواكب وهي متناثرة منكسرة كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة بكامل قوتها كأنها حاضرة .

إن الناس لم يخلقوا عبثاً ، ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم هذا التقدير ، لا يمكن أن يدعمهم يعيشون سدى ويموتون هملاً ، ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً ، ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيراً واحداً ، ويعدلون في الأرض أو يظلمون ، ثم يذهب العدل والظلم جميعاً .

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) وهو اليوم المرسوم الموعد الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود ، وهو يوم ينقاب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام . (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيُرت الجبال فكانت سراباً) . والصور - كما قلنا - هو البوق . ونحن لا ندرى عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه ونحن نتصور النفخة الباعثة المجمععة التي يأتي بها الناس أفواجا .

نتصور هذا المشهد والحالات التي توارت شخوصها جيلاً بعد جيل ، وأخملت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود .. نتصور مشهد هذه الحالات جميعها .. أفواجا .. مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون ونتصور الأحداث المبعثرة وهذه الحالات منها قائمة ، ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها . ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم .. أين ؟ لا ندري .. ففي هذا الكون أحداث وأحوال جسام .. وهو يوم عسير .. عسر كله (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إيجاءً بشدة الصوت ورنينه ، كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت الذي ينقر الأذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الأذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل للبسر فيه .. فهو عسر كله ، عسر لا يتخلله يسر .. إنه أمر يوحى بالاختناق والكرب والضيق . فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير .. إنه نذير الله (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنيين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد) كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سارهاقه صعودا) .

خل بني وبين هذا المخلوق الذي خلقته وحيداً مجرداً من كل شيء آخر بما يعتز به من مال كثير ممدود وبنيين حاضرين شهود ، ونعم يتبطر بها ويختال . خل بني وبينه . فأنا سأتولى حربه .. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها ، قوة الجبار القهار ، لتسحق هذا المخلوق المضعف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعدة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين بها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه .

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين

أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر (من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون) والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنّة . ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة بل آمنهم يوم يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ . لقد تنكبوا عن الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم ، فهم يجزون به كباً لهذه الوجوه في النار .

٢ — الأحوال في الكون يوم القيامة

أ - أحوال الأرض والجبال

أمور هائلة رهيبة تحدث يوم القيامة ، قل " أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة وبرز اسم القيامة في القرآن : القارعة ، القيامة ، الطامة ، الصاخة ، الغاشية ، الحاقة ، وهذه بأسمائها ولفظها وجرسها تلقي في الحس معنى الجذ والصرامة والحق والاستقرار ، وبرز مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهيبة ، ومشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ومن ذا الذي يسمع (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجليّة المتينة .

إنها القارعة التي توحى بالقرع والطم ، فهي تقرع القلوب بهولها ، إنه مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغراً ضئلاً على كثرتهم : فهم كالفراس المبثوث (يوم يكون الناس كالفراس المبثوث) مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له

هدفاً ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام .. (وتكون الجبال كالعين المنفوش) . (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزدها قاعاً صفصفاً) ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت فسفاً وإذا هي قاع بعد ارتفاع .

القارعة .. ما القارعة . إن هذه الكلمة كالقذيفة تلقي بظلمها وجرسها الالهاء المدوي المروهب ثم أعقبها سؤال التهويل ما القارعة .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .. وهي أكبر من أن يحيط بها الادراك وأن يلم بها التصور ، ثم الاجابة بما يكون فيها لا بماهيتها . فماهيتها فوق الادراك والتصور ، إنه مشهد تطير له القلوب شعاعاً ، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً . ويحس السامع كأن كل شيء ينشبت به في هذه الأرض قد طار حوله هباء ، ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً . فمن ذا الذي لا يغمر حسه الجلال والمول وهو يسمع (والمسلك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

إنه يوم القيامة (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) . إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء (١) كقرصة النقي (٢) ليس فيها علم لأحد) وفي رواية (ليس فيها معلم لأحد (٣)) .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفصاً ، وتخرج ما يثقلها من أجساد وغيرها بما حملته طويلاً (وأخرجت الأرض أثقالها) وكأنها تتخفف من هذه الأثقال التي حملتها طويلاً ! وهو مشهد يهز كل شيء

(١) العفراء : هي البيضاء ليس بياضها بالناصع .

(٢) النقي : الخبز الأبيض .

(٣) رواه البخاري وصلى عليه وسلم .

ثابت ، والأرض تهتز وتثور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبت به من هذه الأرض وتحسبه ثابتاً باقياً . ويرى الانسان ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يتلك الصبر أمامه والسكوت (وقال الانسان ما لها) ما لها ؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجاً ؟ ما لها ؟ وكأنه يتأيل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسند به ويثبت به ، وكل ما حوله يثور موراً شديداً ! . والانسان قد شهد الزلازل والبراكين من قبل وكان يصاب منها بالهلع والذعر والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شيئاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للانسان به . أمر لا يعرف له سرّاً ، ولا يذكر له نظيراً ! أمر هائل يقع للمرة الأولى . يومئذ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُسند أمامه الانسان ، يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها (يومئذ تحدث أخبارها) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (يومئذ تحدث أخبارها) قال أتعرفون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا (١) . يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها (بأن ربك أوحى لها) وأمرها أن تثور موراً ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها (وأذنت لربها وحقت) تحدث أخبارها (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت) .

لقد تخلت الأرض عما فيها من تلك الخلائق التي لا نحصى ، والتي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . وقد حملت حملها هذا أجيالاً بعد أجيال ، وقرون بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم : ألقت ما فيها وتخلت واستجابت لأمر ربها مستسلمة مدعنة معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها . وهذا الانسان مشدوه مأخوذ ، يلهث فزعاً ورعباً ، ودهشة وعجباً واضطراباً

(١) رواه ابن حبان في صحيحه .

وموراً . . يرى الجبال وهي تسير (وإذا الجبال سيرت) ، هذه الجبال وقد نسفت وبُسَّت ورآها ذرات في الهواء (وبُسَّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) (يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً) ، (وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

هذه كلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض ، والذي يقول عنه القرآن (إذا زلزلت الأرض زلزالها) .

هنا والانسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل ما لها ؟ ما لها ؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء . ويقف جبريل عليه السلام والملائكة صفاً بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن في الموقف المهيّب الجليل . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . في ذلك اليوم المهيّب الرهيب . يوم يقف جبريل عليه السلام والملائكة الآخرون صفاً لا يتكلمون إلا بإذن الرحمن حيث يكون القول صواباً . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب . وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وحساب ، يُلقى في النفس الرهبة والغزع من ذلك اليوم .

ب - احوال السماء يوم القيامة

في يوم القيامة سيكون مشهد الانقلاب التام لكل معهود . والثورة الكاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويُعلم كل مجهول ، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف . وكل شيء من حولها مقلوب ! . وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير إلى أن هذا الكون الذي نعهده الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيدي وإحكام . إن هذا الكون سينفطر عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ،

وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ، وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعهود . وهذا ما تستهدف إليه آيات القرآن الكريم في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة — مهما بدت لها ثابتة — وتتصل بالحققة الباقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إसार المعهود المألوف في هذا الكون المشهود .. إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدنا في ظرف أو إطار محدود .

إنه انقلاب مرهوب فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله ، وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بألوف حسنا وتفكيرنا ، وأكبر مما نعهده من الانقلابات هو أن ترتجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جانح ، أو ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء ، كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ، وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة ، تسليات أطفال ، ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، ومن آيات القرآن الكريم في ذلك : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) ومنها (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) ومنها (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت) ومنها (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت) ومنها (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) .

هذه الآيات وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله . فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري

للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات بما نألف في هذه الحياة ! إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء ، كما يتبدى هذا من المراسد في وقت الكسوف ، استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكوير ، لا السنة لها ولا امتداد (إذا الشمس كورت) قد يكون هذا وقد يكون غيره ، أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

أما السماء فستزال (وإذا السماء كَشِطَتْ) وكشطها إزالتها ، وتتصور أن ينظر الانسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية التي توجد بها هذه الظاهرة ، حيث تشقق السماء وتصبح وردة حمراء سائلة كالدهان (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) السماء المبنية المتينة فهي منشقة ، منفرجة على هيئة لا عهد لنا بها (وفتحت السماء فكانت أبواباً)

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور ، كالهول البادي في الحشر بعد الانفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتديير .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر) فالبصر يخطف ويتقلب سريعاً سريعاً تغلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامها الفلكي المعهود ، حيث يفترط ذلك النظام الكوني الدقيق .

إن عذاب الله واقع فعلاً ، لأنه كان في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) وهذا العذاب للكافرين هو واقع من الله ، إن قضاء أمره علوي نافذ لا مرد له ولا دافع . هذا اليوم هو من الناس قريب ولكنهم يستبعدونه . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم (تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) .

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يروونه بعيداً ، وهو عند الله قريب ، يوم تبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجاة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران . (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ، وفي وسط هذا الذعر والانقلاب يتساءل الانسان المرعوب (أين المفر) ؟ ويبدو في سؤاله الارتياح والفرح ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة اليه ، والمستقر عنده ، ولا مستقر غيره ، (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) ، وما كان يرغب فيه الانسان من المضي في الفجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوباً ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراها حاضراً (يُنبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً أم شراً . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها في ختام الحساب . ومهما اعتذر الانسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منه عذر ، لأن نفسه موكولة اليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها ، (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) . ثم يظهر معالم الأعمال الشقية سواداً ، ومعالم الأعمال الرضية بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) . وهو مشهد عنيف ، ومعه العنف الهوان حيث تجمع الأقدام إلى الجباه . ثم يُقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار ، فهل حينئذ من تكذيب أو نكران ؟

٣ - يوم الحشر

إن القضية ، قضية القيامة التي أكدها القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى ، وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم ، وإقرار حقيقتها في قلوبهم

مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الانسانية . واليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها ، ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول . وإن اختلال الموازين وإثارة الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فمن هذا الاثر ينشأ الاعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثرونها . وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها . (بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة بخير وأبقى) ، وتسميتها الدنيا لا تحيىء مصادفة ، فهي الوالية الهابطة ، إلى جهنم . أما الدانية العاجلة - إن هؤلاء القريبي المطامح والاهتمامات الصغار المطالبون بالآخرة (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويندرون وراءهم يوماً ثقيلاً) هؤلاء الصغار الذين يذنبون الذين يستغرقون في العاجلة ويندرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، ثقيلاً بتبعاته ، ثقيلاً بنتائجها ، ثقيلاً في وزنه يميزان الحقيقة . إنهم يختارون العاجلة ويندرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير بعد الحساب العسير والظلال التي نواها في يوم القيامة هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة ، إنها ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام . فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

إن الله ينادي الناس جميعاً إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ويصف الهول المصاعب لها . وهو هول عنيف مرهوب ، إنه مشهد عنيف رعب ، ومشهد ترتجف له القلوب ، يدعوهم القرآن إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العسير مشهد الزلزلة وهو شيء عظيم ، فإذا الرهبة تشد من الهول ، إذاً هو مشهد حافل بكل

مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، تتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تسكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه ، والهول شاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية ، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن — وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديا إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي — والحوامل الملقيات -ملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . إنه مشهد عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُحشَرُ الناس حفاة عراة غرلا (١) قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : والأمر أشد من أن يُهمَّهم ذلك ، وفي رواية أن ينظر بعضهم الى بعض (٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلا) وفي رواية قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا) كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين (ألا وإن أول الخلاق يُكسى إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ! فأقول كما قال العبد الصالح : (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم — إلى قوله العزيز الحكيم) . قال : فيقال لي : إنهم ما يزالون مرتدين

(١) غرلا : السرلة : القلفة التي تقطع من جلد الذكر ، وهو موضع الختان .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

على أعقابهم منذ فارقتهم (زاد في رواية : (فاقول سُحْقاً ^(١) سَحْقاً ^(٢)) .
وفي أخرى للترمذي أن النبي ﷺ قال : (تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت
إمرأة : أيبصر - أو يرى - بعضنا عورة بعض ؟ قال : يا فلانة (لكل امرئ منهم
يومئذ شأن يغنيه)

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر
الناس يوم القيامة عراة حفاة ، فقالت أم سلمة : فقلت يا رسول الله ، واسوأناه ينظر
بعضنا إلى بعض ، فقال : شُغِلَ الناس ، قلت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف
فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الحردل ^(٣)) .

وعن سودة بنت زمعة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (يبعث
الناس حفاة عراة غرلاً قد أجهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان ، فقلت : يبصر بعضنا
بعضاً ؟ فقال : شغل الناس (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ^(٤)) .

إنه مشهد عنيف رعب .. مشهد هذا اليوم المخيف (يوم ترجف الأرض والجبال
وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً) الأرض ترجف وتخاف وتتفتت وتتهار . فكيف بالناس
المهازيل الضعاف . إنها تهز القلوب هزاً ، وتخلعها خلعاً .. (فكيف تتقون إن كفرتم
يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به . كان وعده مفعولاً) . وإذ صورة الهول
هنا لتتنشق لها السماء ، ورجفت لها الأرض والجبال . ولما لتشيب الولدان .. إن هذا
الوعد واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان .

إن كثير من آيات القرآن يقرر أن أحداثاً فلكية ضخمة ستم في ذلك اليوم .
وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه

(١) سحقا : أي بعدا .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الطبراني في الاوسط باسناد صحيح .

(٤) رواه الطبراني ورواه ثقات .

ونجومه . وإلى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم . وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور متعددة (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت .. وإذا البحار فجرت) (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت) .. (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت) .. (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) .. (إذا رجفت الأرض رجاً وبُست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) .. (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) .. (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) .. (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) .. (يوم يكون الناس كالفرash المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .. (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) .. (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً) .. (السماء منفطر به) .. (إذا دكت الأرض دكاً دكاً) .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) .. (فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت) .. (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزدها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً) .. (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي غمرٌ ممرٌ السحاب) .. (ويوم نسّى الجبال وترى الأرض بارزة) .. (يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات) .. (يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب) .. (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) .

فهذه الآيات كلها تنبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتُذك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائها من أثر

الاضطراب وإما بتفجر ذراتها واستحالتها نارا . كذلك تطمس فيها النجوم وتبتكر وتشتق فيها السماء وتنظر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل فيها المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة ملتبة حمراء .. الى آخر هذا الهول الكوني الرعب .. وكان يوماً على الكافرين عسيراً بما فيه من هول وبما فيه من عذاب .

لقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سورتي من القرآن ، وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطاً مصحوباً بقرعة ودوي وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يروونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ويروغون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء — حين تقاس بأحوال يوم الفصل — بلعب الأطفال التي يفرقونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الإطلاق .

إنها صورة مروعة مفزعة حين تقع هذه الواقعة (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة) وإنما لتخفف أقداراً كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ، ثم تستقيم في ميزان الله .

إن هول ذلك اليوم يتباين في كيان هذه الأرض ، الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج الأرض رجاً ، ويبس الجبال بساً ويتركها هباء منبثاً . وما أجمل الذي يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال . (أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) إنها تزلزل الكيان البشري ، وتهول الحس الانساني . هناك الكل مجموعون الى الله خاضعين طائعين (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) .

إن كل من في السموات والأرض إلا عبد يأتي معبوده بخاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك انما خالق وعيد . . وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتسور مدلول هذا البيان (لقد أحصاهم وعدم عدأ) فلا تنال لهرب أحد ، ولا نسيان لأحد ، فعين الله على كل فرد وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن صاخاً ملجأ ، ومشهد المرء يفر وينسلخ من ألبق الناس به . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقاً ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً . فالهول يفرغ النفس ويفصلها عن محيطها ، ويستبد بها استبداداً . فكل نفس شأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد (لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه) .

فهاهي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون ويكذب بها المكذبون . هاهي ذي تجيء ، أو هاهي ذي تقوم ! (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بأياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) وهؤلاء المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم في النجاة ، ولا رجاء لهم في خلاص ، ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء - حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم هاهم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين ثم هاهو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين . المؤمنين يتلقون فيها ما يفرح القلب ويسر خاطر ويسعد ضمير ، والذين كفروا في العذاب يحضرون باقون (إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) انكم في يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره ، فلمستم بفلتين أو مستعصين ، ويوم الحشر ينتظركم ، وانه لآت لا ريب فيه ولن تفلتوا يومها ،

ولن تعجزوا الله القوي المتين . فن كفر فسيلا في جزاءه ، ومن عمل صالحاً فقد مهّد لنفسه الراحة في ذلك اليوم العسير (فأتم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهّدون) ويمهّد معناها يمهّد ويعبّد ، ويعدّ المهّد الذي فيه يستريح ويهيء الطريق أو المضجع المريح لذلك اليوم ، يوم يجمع الله فيه جميع الخلائق (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) .

فأما أنه يوم الجمع فلأنّ جميع الخلائق في جميع الأجيال تُبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وغدهم لا يعلمه إلا الله ، ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله ﷺ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني أرى ما لاترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أظنّ (١) السماء وحق لها أن تظنّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات (٢) تجأرون (٣) إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد (٤)) والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع المائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباء الطائفة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع ! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغيب ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ،

(١) أظنّ : من الاطيط : وهو صوت القتب والرحل ونحوهما اذا كان فوقه ما يثقله ، ومعناه

أن السماء من كثرة ما فيها من الملائكة العابدين انقلها حتى أظنّ .

(٢) الصعدات : الطرقات .

(٣) تجأرون : تضجون وتستغيثون .

(٤) رواه البخاري باختصار ، والترمذي والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد .

وليبغى كل فريق مسابقة ! ففاز المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك .

وهناك يتضاءل في حس الكافرين كل ما وراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون : ما لبثوا غير ساعة (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .. ويحتمل أن يكون قسمهم منصبا على مدة لبثهم في القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم في الأرض أحياء وأمواتا ..

ننظر فإذا الحياة التي ترحم في حسهم وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم ، رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) في هذا المنظر ، المحشورون مأخوذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف ، هذه هي الحياة الدنيا ، والناس قد دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئا سوى اللقاء والتعارف .

إنه لتشبيه ولكنه حق اليقين .. إنه لتشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيا ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس في هذه الحياة .. ثم يرحلون !

وتبدو الحسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة . وكذبوا بقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا في تلك الرحلة — بل تلك الومضة — فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشيء يلقون به ربهم ، ولم يستعدوا كذلك للقاء الطويلة في الدار الباقية . في يوم القيامة تتضاءل الحياة الدنيا . وترى المجرمين يتخافتون بينهم الحديث ، انهم يحسدون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت فليست في حسهم سوى أيام قلائل (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا) فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) ، إنه أمد قصير . وإنها حياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة . انها لتافهة لا تترك وراءها من الواقع والأثر في النفوس إلا مثملا تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون

في الأمد الذي يدوم (فإنهم يوم يروث ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار)
ما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم (بلاغ فهل يهلك إلا
القوم الفاسقون) فما هي إلا ساعة من نهار ثم يكون ما يكون .

٤ — أحوال الناس في يوم الحشر

يقول الله سبحانه (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ،
واقترب الوعد الحق ، فإذا هي سائمة أبصار الذين كفروا . يا ويلنا قد كنا في غفلة
من هذا . بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها
واردون) .

هذه أبصار الذين كفروا لا تطرف من الهول الذي فوجئوا به . يقولون يا ويلنا .
وهو تفجع المفجوع الذي تنكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره
فلا بطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان .
إنها مشاهد يوم القيامة وما يجري فيها من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ،
ومن حيرة في مواجبة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي اغترار
النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالقار في المصيدة ! يرسمهم القرآن الكريم
(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث
سراعاً كأنهم كانوا نصب يرفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي
كانوا يوعدون) .

يرسم مشهد مكروب ذليل . وفي مشهدهم وهنتهم وحركتهم في ذلك اليوم
ما يشير الفزع والتخوف . كما أن التعبير فيه من التهمك والسخرية . فهؤلاء الخارجون
من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون الى نصب يعبدونه ، ونالج خلال الكلمات
سياهم كاملة ، صورة ذليلة عانية . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون .
(ترى الظالمين مشفقين بما كسبوا وهو واقع بهم) . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب

وكانما هو غول مفزع ، وهو الذي كسبه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ، ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون . وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً لا مخلص منه وهو واقع به . تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . تلك آيات الله وبياناته . هناك (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) .

هذه وجوه قد اشرقت بالبور ، وفاصت بالبشر ، فايضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن راغرت من الغم ، واسودت من الكآبة ..

وجوه مستنيرة منيرة ضاحكة مستبشرة ، راجية في رها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) فهي تنجو من هول القيامة الدهل لتتهلل وتستبشر وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . ووجوه تعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض (ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة) وقد عرفت ما قدمت . فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه ، ولكنه الذع بالتبكيك والتأنيب (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنها الخسارة المحققة المطلقة . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى ، وخسارة الآخرة (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) .

والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) . ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) (ومن أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً) . مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال . بل الدواب أحسن حالاً . فهي تحمل أوزاراً من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ! والدواب تحط

عنها أوزارها فتذهب لتستريح . هؤلاء يذهبون بأوزارهم الى الجحيم مشبعين بالتأثيم .
(ألا ساء ما يزرون) .

إنه مشهد ناطق بالحسرة والضياح ، مشهد ناطق بالهول والرهبة . هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب . قد أدى بهم ذلك الانكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) وشرطاً من ذنوب الذين يضلونهم (ومن أوزار الذين يضلونهم) ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالاً ذات ثقل — وساءت أحمالاً وأثقالاً (ألا ساء ما يزرون) .

مشهد مهين مذل

لقد جعل الله للهدى والضلال سنناً ، وترك الناس لهذه السنن يسرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الانسان مهياً للهدى والضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو في طريق الضلال (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً . ما واهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) . فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ، وهذا هو المهتدي حقاً ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال والاعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله في يومهم الموعود (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأبدان كأنهم جراد منتشر) .

يوم ترى جموع خارجة من الأحداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعبود يساعد على تصور المنظر المعروف) . وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب كبير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه . وفي أثناء هذا التجمع والحشوع والاسراع يقول الكافرون (هذا يوم عسير) وهي قولة المكروب المجهود الذي

يخرج ليواجه الأمر الصعب الرعب . فهذا اليوم الذي اقترب وهم عنه معرضون ، معرضون عن دلائل الهدى لذلك يحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة على وجوههم يتكفأون عمياً وبكماً وصماً مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام ، جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن ادراك دلائل الهدى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم) . قيل يا رسول الله ، وكيف يشون على وجوههم ؟ قال : (إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك) (١) .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : إن الصادق المصدوق حدثني (أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج (٢) : فوجاً راكبين طاعمين كاسين ، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم ، وتحشرهم النار ، وفوجاً يشون ويسعون يلقي الله الآفة على الظهر ، فلا يبقى ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة فيعطيه بذات القتب لا يقدر عليها (٣)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق (٤) : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، ثقل معهم حيث قالوا وتثبت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا (٥)) .

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) الفوج : الجماعة من الناس .

(٣) أخرجه النسائي في الجنائز ، باب البعث ، وإسناده حسن .

(٤) طرائق : حالات .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

ومشهد احشروا على الوجوه فيه من الالهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقابل
 التعالي والاستكبار والاعراض عن الحق . إنه مشهد يذل الكبرياء ويزلزل العناد
 ويهز الكيان ، (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) .
 عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى (الذين
 يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) أيحشر الكافر على وجهه؟
 قال رسول الله ﷺ (أنيس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على
 وجهه (١)) .

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله ﷺ
 يقول : (إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرؤون على وجوهكم (٢)) .
 إن هذه الانذارات تهزمهم هزاً ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظنون معاندين
 لذلك يكون مصيرهم كما بين رسول الله ﷺ .

روي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يبعث الله يوم القيامة ناساً
 في صورة الذر يطوهم الناس بأقدامهم ، فيقال : ما بال هؤلاء في صورة الذر ؟ فيقال
 هؤلاء المتكبرون في الدنيا (٣)) ثم مأواهم جهنم لا تبرد ولا تفتقر (مأواهم جهنم كلما
 خبثت زدنهم سعيراً) وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف ، ولكنهم يستحقونه بكفرهم
 بآيات الله فذلك جزاؤهم بما استبعدوا وقوع يوم البعث .

إنها مشاهد غنيمة رعية حين تنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتخفت كل
 حركة وكل نامة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين
 مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون — وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون
 ويعرضون (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الترمذي وتال حديث حسن .

(٣) رواه البزار .

(إلهاماً) ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر ، ويخيم الجلال على الموقف كله ، وتغر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . والمؤال خافت . والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيرم يغمر الوجوه بالجلال الرزين والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة والضلال والعمى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم تحشرني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فسيتها وكذلك اليوم تُنسى) . وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى . حتى إذا سأل كان الجواب . هؤلاء المجرمون يومئذ زرق الوجوه من الكدر والغم (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ويعضون على أيديهم حسرة وألماً (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا) .

إنه مشهد الظالم يعرض على يديه من الندم والأسف والأسى ، ويصمت كل شيء من حوله ، ويروح يد في صوته المتحسر ونبراته الأسيقة . . (ويوم يعرض الظالم على يديه) . . فلا تكفيه يد واحدة يعرض عليها ، إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينها لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عرضه على الدين . وهي حركة معهودة يرمز بها الى حالة نفسية . . يا ليتني سلكت طريق الرسول ، لم أفارقه ، ولم أضل عند ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، فلانا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله . لقد كان شيطانا يضل أو كان عوناً للشيطان يقوده الى مواقف الخذلان ، ويخذه عن الجد ، وفي مواقف الهول والكرب .

إنه يوم زحام وخصام ، يوم ذل ومهانة ، يوم عصب ، يوم عسير « يوم عسير على الكافرين غير يسير » . حيث تنشر صحف الأعمال « وإذا الصحف نشرت » ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فك من سوءة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذراها ، ويرجف ويذوب

من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهدة ! إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ، كما أنه سمة من سمات الانقلاب الكوني حيث يكشف الخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون في الصدور إنه يوم عسير يوم ثقل ، يوم مكروب ، كلُّه عذاب ورهبة .. يوم يقف الناس يوم القيامة « يوم يقوم الناس لرب العالمين » - عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ « يوم يقوم الناس لرب العالمين » قال : يقوم أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه (١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يعرقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقُهم سبعين ذراعاً ، وإنه يُلجمهم حتى يبلغ آذانهم (٢)) .

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل - زاد الترمذي : أو اثنين قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل : أمسافة الأرض أم الميل الذي تكحل به العين ؟ - قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه (٣) ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه (٤) .

وفي رواية للترمذي قال : (قتصرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقيبته ومنهم من يبلغ نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى العقب ، ومنهم من يبلغ

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) حقويه : الحقو : مشد الازاء عند الخصر .

(٤) أخرجه مسلم والترمذي .

الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ عنقه ، ومنهم من يبلغ وسطه ، وأشار بيده ألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يُشير هكذا « ومنهم من يغطيه عرقه ، وضرب بيده وأشار وأمره يده فوق رأسه من غير أن يصيب الرأس دور راحتيه يميناً وشمالاً » (١) .

وعن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسبح في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وماسه الحساب « قالوا » : « مم » ذلك يا أبا عبد الرحمن قال ، بما يرى الناس يلقون (٢) ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ، إن الرجل ليُلجمه العرق يوم القيامة فيقول : « يارب أرحني ولو إلى النار » (٣) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يوم يقوم الناس لرب العالمين » مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيكون ذلك على المؤمن كندلي الشمس للغروب إلى أن تغرب (٤) .

هذا المشهد .. مشهد المؤمنين المطمئنين الى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول ، الذين يعيشون في ظل الله وكنفه يوم لا ظل إلا ظله حتى يخفف ذلك اليوم العسير الرهيب على المؤمن فهم في أمن من الفزع الأكبر « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتت أنفُسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » .
ولفظه حسيسها من الألفاظ المصورة بجرسها المعناها . فهي تنقل صوت النار وهي

(١) رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه الطبراني موقوفاً بإسناد جيد قوي .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، وأبو يعلى ومن طريقه ابن حبان .

(٤) رواه أبو يعلى بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحه .

تسري وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع ، وأنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشع .
ولذلك نجى الذين سبقت لهم الحسن من سماعه - فضلاً عن معافاته - نجوا من الفزع
الأكبر الذي يذهل المشركين ، وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم وتولي
الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم في جو الفزع المرهوب .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال ، (يوماً كان مقداره خمسين
ألف سنة ، فقليل : ما أطول هذا اليوم ! قال النبي ﷺ) والذي نفسي بيده إنه
ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة^(١) .

إن الذي يريد الآخرة لابد أن يسعى لها سعيها ، وينهض بتبعاتها ، فما يقدم
الانسان في هذه العاجلة سيلقيه في الآجلة القريبة وسيلقي ربه على ما كانت عليه
وما مات عليه .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « يُبعث كل
عبد على ما مات عليه »^(٢) .

أما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال « يوم نحشر
المتقين إلى الرحمن وفداً » . .

وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم وِرداً كما تساق القطعان « ونسوق المجرمين
إلى جهنم وِرداً » .

يقول الامام المحاسب رحمه الله « . حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من
سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص
يرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم
يُفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلاق معك للعرض على الله عز وجل بالذل
والصغار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

(٢) أخرجه مسلم .

بأنك تدعى الى العرض على الملك الاعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والاكرام والعظمة والكبرياء. فيينا أنت فزع للصوت اذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلاق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلاق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي ، والخلاق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساع بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والانس عراة حفاة ، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه ، ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلاق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم أقبالها بذلتها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور ، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلاق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى اذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بجمود سراجها واطفاء نورها . فيينا أنت والخلاق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من

فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر الى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ،
 فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة
 والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات مايتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه
 السماء بعظمها ، فأذاها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لغزغ يوم القيامة
 كما قال الجليل الكبير : « فصارت وردة كالدّهان » ، « ويوم تكون السماء كالمهل
 وتكون الجبال كالعين » ..

فينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض
 والحساب ، وانحدروا من حافتها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس
 الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين الى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين
 يديه . فتوهم تحدّثهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم
 وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل - كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي
 قال ، حدثنا رشدين بن سعيد عن أبي السمع عن أبي قيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص
 عن النبي ﷺ أنه قال : الله ملك ما بين مواقي عينيه إلى آخر شفره مسيرة مائة عام .
 فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألهم إياهم : أفيكم ربنا ؟
 ففزع الملائكة من سؤالهم لإجلالاً للمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما
 توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آت ، حتى أخذوا مصافّهم محدقين
 بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا
 رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك وكذلك
 الى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء
 محدقين بالخلائق صفا ، حتى اذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع
 كسيت الشمس حر عشر سنين وأدريت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ،
 ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحوا
 ببحر الشمس ، قد صهرته ببحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم

وتدافعت ، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلقت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام .

عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي من طول القيام قالاً جميعاً) حتى يقول رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لا تحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علك العرق وأطبق عليك الغم وضائق نفسك في صدرك من شدة العرق والفرع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال يوم يقوم الناس لرب العالمين قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا الله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش واحتوت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلمهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي

بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلصها وكذلك يقول الله عز وجل : (يوم تأت كل نفس تجادل عن نفسها) . فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فإين أنت منهم في اشتغالك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبجزئك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرّ لربه ساجداً ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم (١) .

هـ - استجواب مرهوب ، وشهادة الحق

إن يوم القيامة عسير وثقيل ، ثقيل بأحواله ، ثقيل بنتائجه ، فهناك موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال . فالرسل قد أقُتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الحتمي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السموات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المتعلقة في الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون .. (وإذا الرسل أُقُتت) .

(١) من كتاب التوهم ص ٥ - ١٠ .

إنه مجلس الفصل بحضور الرسل فويل يومئذ للمكذبين . إنه إنذار من العزيز الجبار .

فالיום تجمع الحصيلة ويضم الشتات ويقدم الرسل حساب الرسالات (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتكم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) . هنا تعلن النتائج على رؤوس الأشهاد (ماذا أجبتكم ؟) ، والرسل بشر من البشر ، لهم علم ما حضر ، وليس لهم علم ما استتر . لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ، فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى ، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى . فإنما له ظاهر الأمر . ، وعلم ما بطن لله وحده . . وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف ، والذي يهابونه أشد من يهاب ، والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير .

إنه الاستجواب المرحوب^(١) في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملائكة الأعلى

(١) من تفسير ابن كثير :

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغتكم ؟ فيقولون : ما اتانا من نذير وما اتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول محمد وأمه . قال : فذلك قوله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . قال : الوسط « العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » . رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجرى النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغتكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قوماك ؟ فيقول نعم فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » قال : عدولا « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الأشجعي « عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا وأمتي يوم القيامة على كرم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد الا ودد أنه منا ، وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل » .

وعلى مشهد من الناس أجمعين ، الاستجواب الذي يراد به المواجهة ، مواجهة البشرية برسلاها ، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلمهم الذين كانوا يكذبونهم .
ليعلن في موقف الاعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاؤوهم من عند الله بدين الله ، وهام أولاء مسؤولون بين يديه - سبحانه - عن رسالاتهم وأقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون . ثم ينادي الله المكذبين ماذا أجبت المرسلين ؟ (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون) .

إن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والتذيل .
ولأنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب ، وصمت الذي لا يجد ما يقول . والقرآن يلقي ظل العمى على المشهد والحركة . فهم لا يملكون سؤالاً ولا جواباً وهم في ذهولهم صامتون ساكتون .

هام الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون بما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) . ولا يؤذن لهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء . وجاء وقت الحساب والعقاب .
ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر بمن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله . فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون : (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) فالיום يقررون (ربنا) واليوم لا يقولون عن هؤلاء أنهم شركاء الله . إنما يقولون (هؤلاء شركاؤنا) .

ويفزع الشركاء من هذا الاتهام الثقيل فإذا هم يجهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد (فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين (وآلقوا إلى الله يومئذ السلم) .. وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب .

٦ - الحساب

يقول الله سبحانه : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) آيات تهز الغافلين هزاً ، والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جدّ وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . والله سبحانه يبين ذلك (يوم ندعو كل أناس بأمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون شيئاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) .

إنه مشهد يصور الخلاق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الامام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفي أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الحيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشدّ ضلالاً . وجزاؤه معروف . والقرآن يرسمه في المشهد المزدهم الهائل . أعمى ضالاً يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك ، لأن مشهد العمي والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر في القلوب . والله سبحانه يصور ذلهم وخزيهم فيقول : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنه السؤال الذي يزلزل ويذيب . فيجيبون إجابة المهين الذليل (بلى وربنا) . فيجيبون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . هذا هو مشهدهم البائس الخزي المهين وهو مصير يتفق مع الخلاق التي أبنت على نفسها سعة التصور الانساني وآثرت عليه حجر التصور الحسي ، والتي أبنت أن ترتفع إلى الأفق الانساني الكريم ، وأخذت إلى الأرض . وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل القدارتكست

هذه الخلائق التي أهملت نفسها لهذا العذاب ، الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ، الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ، بذلك التصور الهابط الهزيل ، هناك سيقف هؤلاء مشفقين بما يجدونه في صحيفة أعمالهم . يقول سبحانه : (ويوم نُسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ، وعرضوا على ربك صفاً . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

إنه مشهد الهول يرسم على صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسية فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز مكشوفة لإنجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية . ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبئ شيئاً ، ولا تخفي أحداً (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى العرض الشامل . (وعرضوا على ربك صفاً) هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا . هذه الخلائق كلها محشورة بمجموعة مصفوفة ، ولم يتخلف منها أحد . فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحداً . وإن النكاد نلمح الحزني على الوجوه ، والذل في الملامح ، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب . فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق ، وهم خائفون من العاقبة ضيق الصدر بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة (ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً ولا هرباً ولا مغالطة ولا مداورة (ووجدوا ما عملوا حاضراً) ولاقوا جزاء عادلاً لقاء ما قدموا من عمل يقول سبحانه : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كتابة عما يعمل . والزامه له في عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقتة . فعمله لا يتخلف عنه ولا هو يملك التملص منه . كما أن اخراج كتابه منشوراً يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك اخفائه أو تجاهله أو المغالطة فيه ، ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور فإذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ، وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ، ويلحظ هذا الكتاب في فزع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) إنها مواجهة قاسية . (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) . وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري وتحاصره برصيده من الخير والسوء . وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود - ولكن لات حين مودة - لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمداً بعيداً . أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمداً بعيداً . بينما هو في مواجهته ، آخذ بخناق ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار !

لقد عمل القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عملها في تربية الجماعة المسلمة حتى أنت بالعجب العجيب ، وحتى أنشأت مجموعة من الناس تتمثل فيهم الأمانة والورع كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً وكانت الآخرة في حسّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه . فالآخرة كانت حقيقة يعيشها ، لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفي ما كسبت وهم لا يظلمون وكان هذا هو سر تقواه وخشيته (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

لقد كان المسلمون يعيشون في الآخرة ، فلقد شقّ عليهم قول الله عز وجل : (من يعمل سوءاً يجز به) . كانوا يعرفون النفس البشرية - كما هي على حقيقتها ،

ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتهم ، ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحياناً ، ولم ينكروا أو يغطوا هذا الضعف الذي يجدونه . ومن ثم ارتجفت نفوسهم . وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يُجْزَوْنَ به . ارتجفت نفوسهم كالذي يواجه العاقبة فعلاً ويلامسها . وهذه كانت ميزتهم ، أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلاً بمشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت راجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد .

لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى . ولقد هزّت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جدّاً ، ويعرفون صدق وعد الله حقاً ، ويعيشون هذا الوعد ، ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا . لقد كانوا يعيشون لهذا القرآن كانوا يعرفون معنى قوله سبحانه (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) . فما معكم إلا ذواتكم مجردة ، ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفراداً لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفراداً ، ينزل أحدهم من بطن أمه فرداً عربان أجرد غلبان ! ولقد ندّ عنكم كل شيء وتفرّق عنكم كل أحد ، وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه .

تركتكم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! « لقد تقطع بينكم » تقطع كل شيء كل ما كان موصولاً كل سبب وكل حبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى وما لهم من شفاعاة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب ! إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزاً عنيفاً ، وهو يشخص ويتحرك ، ويلقي ظلاله على النفس ، ويسكب أحياءه في القلب ، ظلاله الرعية المكروبة ، وأحياءاته العنيفة المرهوبة .

إن مشاهد القيامة تزلزل القلب . . فاليوم للعمل ، فإن الاعتراف بالخطأ والاقوار

بالحق يوم القيامة لا ينفع لقد فات الأوان .. فالיום للجزاء لا للعمل .. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان . مشهد وراء مشهد ، وكل مشهد يزلزل القلوب ويخلخل المفصل ويمزج الكيان ، ويفتح العين والقلب - عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه على الحق .

إن الإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الاسلامي ، والذي يقوم على أساس أن الله خلق الانسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط ، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض ، وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا ، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء .

عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ^(١)) .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به ^(٢)) .

فالיום الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الاسلامي .. وهذا الإيمان على هذا النحو هو الذي يُكفي ضمير المسلم وسأوكه ، وتقديره للقيم والنتائج في هذه العاجلة . فهو يمضي في طريق الطاعة ، وتحقيق الخير ، والقيام على الحق والاتجاه الى البر سواء كانت ثمرة ذلك في الأرض - راحة له أم تعباً . كسباً له أم خسارة . نصراً له أم هزيمة ، وجداناً له أم حرماناً . حياة له أو استشهاداً . لأن جزاءه هنالك في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء ، واجتياز الامتحان . لا يرحمه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشر والقتل .. فهو إنما يتعامل مع الله .. وينفذ عهده وشرطه ، وينتظر الجزاء هنالك !

(١) رواه الترمذي وقال حديث صحيح .

(٢) رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له .

قاعدة الحساب والجزاء

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ، ولا يحاسب الناس على ما اجتروا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ، وتوجد الحاكمة في الدنيا والآخرة على هذا الأساس .. فاما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ، فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي يحكمون بها ، ويتحكمون اليها أم يحاسبون وفق شريعة الله السامية التي لم يكونوا يحكموا بها ولا يتحكموا إليها .

« ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .. فهو وحده يحكم وهو وحده يحاسب ، وهو لا يبطئ في الحكم ، ولا يهمل في الجزاء . ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري . فهو ليس متروكاً ولو إلى مهلة في الحساب إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته ولا شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، وقيموا معاملاتهم - كما يقيموا شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله سبحانه - إلهاً في الأرض ، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة وأنهم محاسبون إذن على الكفر بالوهمية الله - أو الشرك به باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر ، واتباع شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات - والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وإن القرآن ينبه إلى حقيقة هامة يجب أن يتبينوها .. « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » هؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلal سعيهم وذهاب سدى ، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال . ينفقون حياتهم فيه هدرًا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » فهم مهمالون ، لقيمة لهم ولا

وزن في ميزان القيم الصحيحة ولهم بعد ذلك جزاؤهم « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .

هؤلاء سيقفون أمام الله ويسألون « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون » . . احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متساكنون . . وفي الأمر - على ما فيه من لهجة حازمة - تهكم واضح في قوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها هي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهما هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال برىء « مالكم لا تنصرون » مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ؟ ولكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟ « بل هم مستسلمون » .

إن الله يقرر قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » . لقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللبجاذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم منها بغير حساب .

إن المؤمن يشعر بضخامة سؤال الله له يوم القيامة . سؤال الحواس والقلب (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) . إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يسأل عنها صاحبها . وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها ، كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً عن شخص أو أمر أو حادثة . فلا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تثبت من صحته .

فهنالك يوم القيامة فلا حاجة إلى كلمة تقال أو إلى صوت يرتفع (وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) . (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها . فالموقف موقف إذعان وتسليم ، ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف بركب الجنة ركب المتقين (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب وبيان السبب (طبتم) وتطهرتهم كنتم طيبين وجثمت طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب ، وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود في ذلك النعيم .

حساب وعرض

أمور القيامة هائلة رهيبة ، قل " أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . ومن ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . مشهد الناجي الآخذ كتابه يمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة (وأما من أوتي كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابه . إني ظننت أني ملاق حسابه فهو في عيشة راضية في جنة عالية) . فهو يدعي الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة وما يكاد يصدق بالنبأ .

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أؤت كتابه ولم أدر ما حسابه ..) يا ليتني ! بهذا التفجع الطويل الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . من ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . يوم العرض يوم تتكشف الأمور فلا يخفى شيء . (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

فالكل مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف

العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار ..
وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الانسان من
حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن
يستوره حتى عن نفسه ! .

وما أقسى الفضيحة على الملائ . وما أخزأها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل
خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الانسان لا يشعر بهذا حق الشعور ، وهو
مخدوع بستور الأرض . فما هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء
بارز في الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئاً وراء تنوء ولا بروز .
والسما متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً ، والأجسام معراة ولا يستترها شيء ،
والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر .. ألا إنه لأمر عصيب
أعصب من ذلك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الانسان ، عريان
الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل مظهر منه وما
استتر . أمام تلك الحشود الماثلة من خلق الله من الانس والجن والملائكة ، وتحت
جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

إن طبيعة الانسان لمعقدة شديدة التعقيد ، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب ،
تتخفى فيها نفسه وتندس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها
وإن الانسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخز إبره ،
فتنتطوي سريعاً ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماماً . إن الانسان ليصنع
أشد من هذا حين يحس أن عيناً قد تدمست عليه فكشفت منه شيئاً بما يخفيه ، وإن
لمحة أصابت منه درباً خفياً أو منحنى سرياً ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين
يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية .. فكيف بهذا المخلوق وهو عريان حقاً ،
عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . كيف

به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار . ألا إنه لأمر أمر
من كل أمر .

كل شيء مكشوف .. كل شيء مسجل وقد أحصاه الله (يوم يبعثهم الله جميعاً
فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) (ألم تر أن الله يعلم ما في
السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو
سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم
القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

إنها صورة تترك القلب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة ، وهي مأخوذة بمحضر الله
الجليل المأنوس .. وحيثما اختلى ثلاثة تلتفتوا ليشعروا بالله رابعهم ، وحيثما اجتمع خمسة
تلتفتوا ليشعروا بالله سادسهم ، وحيثما كان اثنان يتناجيان قاله هناك ! وحيثما كانوا
أكثر قاله هناك !

إنها حالة لا يثبت لها قلب ، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز ، وهو
محضر مأنوس . نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله وهو معهم أينما كانوا ثم
ينبئهم بما عملوا يوم القيامة وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل فكيف إذا كان لهذا الحضور
والسماع مابعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان مايسرته المتناجون وينعزلون به
ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم
المشهد .. يرم تبعثر القلوب بعد بعثرة القبور (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحُصِّل
ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) .

وهو مشهد عنيف ، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل
لأسرار الصدور التي ضُتَّت بها ونخبأتها بعيداً عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف
القاسي . أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي
لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وتردد كل مراد ، فالمرجع إلى ربهم
وإنه لخبير بهم يومئذ وبأحوالهم وأسرارهم .. والله خير في كل وقت وفي كل حال .

ولكن لهذه الخبرة يومئذ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . خبرة مسجلة (أم يحسبون أننا لانسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .. كل شيء مسطر في الصحائف ليوم الحساب لا ينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب الله (وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر) .

إن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسى ، والله هو الذي يحصي كل شيء ويثبت (إنما نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) .. (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) .

جاءت كل نفس ، فالنفس هنا هي التي تحاسب . وهي التي تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا وقد يكونان غيرهما والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق المحاكمة ولكن بين يدي الجبار (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الذي لم تحسب حسابه . وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها . فالآن انظر . فبصرك اليوم حديد . هنا يتقدم قرينه والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته (وقال قرينه هذا ما لدي عتيد) .. حاضر مهياً معد لا يحتاج الى نهضة أو إعداد . وكل شيء مسجل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ، ولا يظلم أحد ، فالجأزي هو الحكم العدل . (فو ربك لنساءلهم أجمعين عما كانوا يعملون) « هناك تبلوا كل نفس ما أسلفت » إنها حقائق مخيفة عجيبة .. يا أيها الانسان ألا فاختر لنفسك إما السعادة وإما الشقاء (فأما من أوتي كتابه يمينه فسوف يحاسبه حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيراً) .

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد ، الذي آمن وأحسن ، فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حساباً يسيراً فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب ، والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ - وفيها غناء .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : (من نوقش ^(١) الحساب عُدَّ ب) فقلت : أليس يقول الله : (فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً) فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ^(٢) . وفي رواية (وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُدَّ ب) .
وعنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته (اللهم حاسبني حساباً يسيراً) فلما انصرف قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك ^(٣) .
وعن ابن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من نوقش الحساب هلك ^(٤)) .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ثم ينجو ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، من الناجين الذين سبقوه إلى الله ، إن هذا يصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتألفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان ! .

إنه مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحه جوائحه وتغلبه على لسانه فيهتف (هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حساييه) ويذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن

(١) نوقش : المناقشة في الحساب : تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه .

(٢) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي .

(٣) رواه الامام احمد باسناد عن عبيد الله بن الزبير عن عائشة وهو صحيح على شرط مسلم .

(٤) رواه البزار والطبراني في الكبير باسناد صحيح .

ينافس الحساب (ومن نوقش الحساب عُدَّ ب) كما جاء في الأثر .. انها رحمة الله تحيط
بالمؤمن يصورها النبي ﷺ :

عن صفوان بن محرز المازني قال : (بينما ابن عمر رضي الله عنه يطوف ، إذ
عرَّضَ له رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ
في النجوى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يُدْنَى المؤمن من ربه حتى يضع
عليه كَنَفَهُ ^(١) فيقرره بذنوبه . تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : أعرف رب ،
أعرف - مرتين - فيقول : سترتها عليك في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى
صحيفة حسناته ، وأما الآخرون - أو الكفار ، أو المنافقون ، فينادى بهم على رؤوس
الخلاتق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ^(٢)) .

ومن رحمته سبحانه أن يبدل السيئات بالحسنات :

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر
أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها : رجل يؤتى به يوم القيامة .
فيقال : أعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ،
فيقال له : عملت يوم كذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ؟ فيقول
نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له :
فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول رب ، قد عملت أشياء لا أراها هاهنا . قال :
فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه ^(٣)) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ،
أخبرنا العاصم عن الأحول عن أبي عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر
من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع

(١) كنفه : المراد به قرب الله تعالى ودنو رحمته وفضله من العبد .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي .

إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) .

وروي عن عبد الله بن حنظلة - غسيل الملائكة - قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي - أي يظهر - سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له أنت عملت هذا ؟ فيقول نعم أي رب ! فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم (فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . وأما المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيئ الذي يؤتى كتابه وهو كاره (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيراً) .

إنها هيئة السكاره المكره الحزبان من المواجهة . فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً ، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً - ولكن في المعصية والاثم والضلال - يعرف نهايته ، وبراجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبوراً ، وينادي الهلاك لينقذه بما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الانسان بالهلاك لينجوه به يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء .

هذا الشقي عرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأُتِ إلى العذاب مصيره ، فيقف في المعرض الحافل الحاشد ، وقفه المتحسر الكئيب (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أؤت كتابيه ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) وهي وقفه طويلة وحسرة مديدة ، ونعمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر يمضي بلا نهاية . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجعة من وراء هذا المشهد الحسير ، ومن ثم يطول ويطول ، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت

هذا الموقف ولم يؤت كتابه ، ولم يدرك ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً ، ثم يتحسر أن لا شيء نافعه بما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقي أو دفع ، مع الرنة الحزينة الحسيرة المديدة .

قضاء عادل

إن يوم الحساب هو يوم العدل . يوم القضاء والفصل ، ومن عدله سبحانه أن تقوم الشهود على الانسان من نفسه (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيه الله دينهم الحق . ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(ويومئذ يشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فات يصبروا فالنار مثنى لهم وإن يستعتبوا ففاهم من المعتبين) .

لإنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب ، وسلطان الله الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب وهم يوصمون بأنهم أعداء الله فما مصير أعداء الله ؟

لأنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع ، إلى أين ؟ إلى النار ، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب إذا شهود عليهم لم يكونوا في حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفترى وتستزىء ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم لتستجيب لربها طاعة مستسامة ، تروي عنهم ما حسبه سراً . قد يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم ولكنهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهي معهم

بل كيف وهي أبعاضهم ؟ ها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين وعن الله رب العالمين .

عن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرّون ممّ أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، فيقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ يقول : بلى ، فيقول : إني لا أجزى اليوم على نفسي شاهداً إلا مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه ، ويقول لأركانها : أنطقي فتنتطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول مُبعداً لَكُنْ وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون^(٢) في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ، قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، فيلقى العبد ربه فيقول : أي فل (أي فلان) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل ، وأدرك ترأس وتربع^(٣) ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول فاني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول أي فل ، فيقول : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأدرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول فاني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول : أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأدرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : أي رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت

(١) رواه مسلم .

(٢) تضارون : أي لا يضابق بعضكم بعضاً في رؤيته ولا ينازعه .

(٣) تربع : معناه ما يأخذ رئيس الجيش لنفسه وهو ربع الغنائم .

وبصدقت ، وبثني بخير ما استطاع ، فيقول : منها إذاً ، ثم يقول : الآن نبعث شاهداً عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ، ويحتم على فيه ويقال لفضله : انطقي فينطق فخذ راحته وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يخطط الله عليه ^(١) . وحتى الأرض تشهد عليه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) ، قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا ^(٢) . يا للمفاجأة بسلطان الله الحفي ، يغلبهم على أبعاضهم فتبلي وتستجيب ، وقالوا : جلودهم لما شهدتم علينا ، فإذا هي تبجيهم بالحقيقة التي خفت عليهم في غير موازية ولا جمالة . أليس هو الله الذي جعل الألسنة هي الناطقة ؟ إنه لقادر على أن يجعل سواها وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

فما كان يحظر بالكم أنها ستخرج عليكم وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم . لقد خدعكم الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم . يا للسخرية ، فالصبر الآن صبر على النار ، وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء . وما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب ، فالיום يغلق الباب في وجه العتاب لا الصفح ولا الرضى الذي يعقبه العتاب . (فإن يصبروا فالنار مئوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

لا ظلم . إنما تجزى كل نفس بما كسبت (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لتؤذن الحقوق إلى أهلها

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه .

يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلياء^(١) من الشاة القرناء^(٢) .
ورواه أحمد ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : يقتص الخلق بعضهم من بعض ،
حتى للجماء من القرناء ، وحتى الذرة من الذرة^(٣) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليختصمن كل شيء
يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا^(٤) .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت عنده مظلمة
لأخيه من عرضه أو شيء منه ، فليتحلله منه اليوم ، من قبل أن لا يكون دينار ولا
درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من
سيئات صاحبه ، فحمل عليه^(٥) .
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه
ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ،
قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يارب ، خذ لي
مظلمتي من أخي ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ، قال :
يارب فليحمل من أوزاري ، وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن
ذلك ليوم عظيم ، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم^(٦) .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : المفلس من أمتي من يأتي
يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا
وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته من

(١) الجلياء : التي لا قرن لها

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) رواه رواة الصحيح .

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

قبل أن يُقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطُرح عليه ثم طُرح في النار (١) .
 إنها ظلال يوم القيامة . ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة لمشاعر التقوى والوجل
 والاستسلام . لقد تلقى المسلمون هذا القرآن وتوجيهات النبي ﷺ تلقى القبول فعاشوا في
 الآخرة عملاً وواقعاً . عاشوا وأقدامهم في الأرض وقلوبهم في السماء .

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ - جلس بين يديه
 فقال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويعصونني وأضربهم وأشتهم ، فكيف
 أنا منهم . فقال له رسول الله ﷺ : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم
 فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم
 كان كفافاً لالك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل
 الذي بقي لك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله
 ﷺ : « مالك أما تقرأ كتاب الله » (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم
 نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة أنثينا بها وكفى بنا حاسيين) فقال الرجل : يا رسول
 الله ما أوجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ، يعني عبيده ، أشهدك أنهم كلهم أحرار (٢) .
 اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم القضاء الفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه سوطاً
 ظمأً اقتصّ منه يوم القيامة (٣) .

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « يحشُر الله
 العباد يوم القيامة » أو قال ، « الناس عراة غُرلاً » قال : قلنا وما بهما قال : ليس
 معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والترمذي ، قال الحافظ واسناد أحمد والترمذي متصلان ورواها ثقات

احج بهم البخاري ومسلم .

(٣) رواه الطبراني والبخاري باسناد حسن

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة ، قال : قلنا كيف ولنا نأقي عراة غرلاً بهما؟ قال : الحسنات والسيئات^(١))

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . حتى الذرة . (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن من سيّد خلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً . كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتتكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتني الخافضون ؟ فيقول لا يارب ، يقول : أفلك عذر ؟ فيقول لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم . فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضر وزنك فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت ، وثقلت البطاقة ولا يتحمل مع اسم الله شيء^(٢) .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملناه في الجاهلية ؟ قال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر^(٣)) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، فهل تضارون^(٤) في رؤية الشمس بالظهيرة صعوأ

(١) رواه أحمد بإسناد حسن .

(٢) أخرجه الترمذي في الايمان واسناده صحيح ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه

والحاكم والبيهقي وغيره .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) تضارون : أي لا يضايق بعضكم بعضاً في رؤيته ولا ينزعه .

ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوً ليس فيها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فما تضارون في رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا ويتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر* وفاجر وغير^(١) أهل الكتاب ، فيدعى اليهود ، فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فما تبغون ؟ قالوا عطشنا ياربنا فأسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ، ثم تدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فما تبغون ؟ فيقولون : غطشنا ياربنا فأسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ، فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر* وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ولا نشرك بالله شيئاً ، مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أي ينقلب ، فيقال : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذرت الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر* على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاسة ، ويقولون : اللهم سلم سلم ، قيل يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحش مزلة^(٢) ،

(١) الغير : الباقى .

(٢) دحش مزلة : الدحش : الرلق ، المزلة : هو المكان الذي لا يثبت عليه قدم الأتات .

فيه خطاطيف وكلايب وحسكه يكون بنجد ، فيها تشويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطوف العين ، وكالبوق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والرّكّاب . فتناجى مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوش^(١) في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدّ مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لآخوانهم الذين في النار .

وفي رواية : فما أنتم بأشدّ مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأو أنهم قد نجوا في آخوانهم ، فيقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويصّلون ، ويحجّون ؟ فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيُخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها ممن أمرت به ، فيقال : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً .

وكان أبو سعيد يقول . إن لم تصدقوني بهذا الحديث فافروا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيّون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً من النار لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً^(٢) . فيلقينهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الجهر ، أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس يكون أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض « فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : « فيخرجون كاللؤلؤة في رقابهم الخواتيم ، ويعرفهم أهل الجنة .

(١) المكدوش : المدفوع في نار جهنم دفعا عنيفا .

(٢) الحمم : جمع حممة وهي الفحمة .

هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ! فيقول لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : باربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضي فلا أسخط عليكم أبداً^(١) .

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل . بلا إهمال ولا إبطاء ، ونعيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخضع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .

إنها القيامة المقتربة الزاحفة (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاطمين ، ما لظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق والذي يدعون من دونه لا يقضون بشيء . إن الله هو السميع البصير) والآزفة .. القربة والعاجلة .. وهي القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة . والأنفاس من ثم مكروبة لاهنة وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كانوا لأنفاسهم ولآلامهم ولخاوفهم ، والظلم يكرههم ، ويشغل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العسير المكروب ، وهم بارزون في هذا اليوم لا تخفى على الله منهم شيء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور ، والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها ولكنها لا تخفى على الله . والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله .

والله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق (والله يقضي بالحق) فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً ، ونرى الكافر والظالم يتحسر ولكن يوم لا تنفع الحسرة ولا الندم وإذا بصوت الجبار يقول (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرّعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) . خذوه كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول

(١) رواء البخاري ومسلم واللفظ له .

ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال ابن عمرو (إذا قال الله تعالى « خذوه » ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول مكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار) . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ! فخالوه .. فاي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه ؟ (ثم الجحيم صلوه) ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وهذا العذاب . خلا قلبه من الايمان فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجملاد . فكل شيء مؤمن ، ويسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

إنه المصير المخزي ، والعلة في هذا هو عدم اليقين ببقاء الله .
عن أبي سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ :
(يأتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ؟ وسخرت لك الأنعام والحراث ؟ وتوكتك ترأساً^(١) وتربع^(٢) ؟ فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ . فيقول لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني^(٣)) .
أخرجه الترمذي وقال : معنى قوله (أنساك اليوم كما نسيتني) اليوم أتركك في العذاب .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله (.. فيينا أنت مع الخلائق في ظلم القيامة وشدة كربها منتظر متوقع لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن إذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه

(١) (ترأس) الترؤوس : التقدم على القوم وأن يصير رئيسهم .

(٢) (ربع) أي تأخذ المربع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها .

(٣) رواه الترمذي وإسناده حسن ، قال هذا حديث صحيح غريب .

لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر إلا في أمرك - عن حميد بن هلال ، قال : ذكر لنا أن الرجل يدعى يوم القيامة الى الحساب فيقال : يا فلان بن فلان هلم الى الحساب ، حتى يقول ما يراد أحد غيري بما يحضر به من الحساب - ثم نادى : يا جبريل اثني بالنار ؛ فتوهمها وقد أتى جبريل فقال لها : يا جهنم أجيبي ، فتوهم اضطرابها وارتعاضها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به ؛ فتوهمها حين اضطربت وفارت ونارت ، ونظرت الى الخلائق من بعد مكانها فشبهت إليهم وزفرت نحوهم وجذبت خزانها متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه ؛ فتوهم صوت زفيرها وشهيقها ، وترادف قصبها ، وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فرعاً ورعباً ، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وذلك يوم التنادي ، لما سمعوا بدوّ زفيرها ولوا ما يبرين وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم فأرسلوا الدموع من أعينهم .

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها وينادى الظالمون بالويل والثبور ، وينادي كل مصطفى وصدّيق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام : نفسي نفسي ، فتوهم أصوات الخلائق الانبياء فمن دون كل عبد منهم ينادي : نفسي نفسي وأنت قائلها ، فينأ أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية فيزداد رعبك ورعبهم وخوفك وخوفهم ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم ينظرون من طرف خاشع خفي خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بجريقتها ، وانتصفت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين فكظموا عليها وقد غصت في حلقهم وطارت الابواب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلا ذمهل لذلك عقله ، فأقبل الله عز وجل عند ذلك على رسله وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم إليه لأنهم الدعاة الى الله عز وجل والحجة على عباده ، وهم أقرب الخلائق الى الله عز وجل في الموقف وأكرمهم عليه ، فيسألهم عما أرسلهم به الى عباده ، وماذا ردوا عليهم من الجواب فقال لهم : (ماذا أجبتم) ؟ فردوا عليه الجواب عن

عقول ذاهلة غير ذاكرة فقالوا : (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قريهم منه وكرامتهم حتى أذهل عقولهم ، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أمهم .

عن أبي الحسن الدمشقي ، قال : قلت لأبي قرّة الأزدي : كيف صبر قلوبهم على أهوال يوم القيامة ؟ قال : إنهم إذا بعثوا خلقوا خلقة يقوون عليها . قال أبو الحسن : قلت لاسحاق بن خلف قول الله عز وجل للرسول : (ماذا أجبتهم قالوا : لا علم لنا) أليس قد علموا ما رُدّ عليهم في الدنيا ؟ قال : من عظم هول السؤال حين يسألون طاشت عقولهم فلم يدروا أي شيء أجيبوا في الدنيا ، فهم صادقون حتى تجلّست عنهم بعد ، فعرفوا ما أجيبوا . قال : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : صدق اسحاق هم في ساعته تلك صادقون ، حتى تجلّست عنهم فعرفوا ما أجيبوا .. فتوهم نفسك لذلك الخوف والفرع والرعب والغربة والتحير إذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر ، وفردت أنت منهم أجمعين ، فكيف خذلنتهم وخذلوك ، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تنفّر من أمك وأبيك وصاحبك وبنيك وأخيك ، ولكن عظم الخطر واشتداد الهول فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون .

فبينما أنت في ذلك إذ ارتفعت عنق من النار فنطقت بلسان فصيح بن وكتلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب ، ثم أقبل ذلك العنق فيلقطهم لقط الطير الحب ثم انطوت عليهم فالقتهم في النار فابتلعهم ، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الحمد لله على كل حال ، فيقدمون فيسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه حتى إذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنة والنار ، ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشكائل نهبت الموازين^(١) .

(١) كتاب المتوهم ص ١٥ - ١٧ .

٧ — طلب القداء

إن الاسلام يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب . وإلا أن يفيء إلى الحى الآمن ، ويعمل صالحاً . فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب فأما الذين لا يتوبون ولا يشوبون . الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرأ والذين يلجئون في هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهي أمد الاختيار ويبقى دور الجزاء .

هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون أنه خير وبر ، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله . ومن ثم فهو غير موصول له بطبيعة الحال . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة . فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب :

(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرأ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به . أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) .

فليس لهم من ناصر من الله . إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح من فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار ، وهم أصحاب النار (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

إن الله يقرر مصائر الأعمال والأقوال . فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما في الأرض ومثله معه أن يفتدي به وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذي بسوء ، وإنما هي جهنم لهم مهاد . وبإساءة المهاد (للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في

الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ، وماوهم جهنم وبئس المهاد) .

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض ، هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً ، ولكن القرآن يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض . فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم) .

ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم) .

إنه الهول المملوف . فلو أن هؤلاء الظالمين — لو أن هؤلاء ما في الأرض جميعاً ، بما يحرصون عليه وينأون عن الاسلام اعتزازاً به ومثله معه ، لقدموه فدية بما يرون من سوء العذاب يوم القيامة (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى لأهل النار عذاباً ، لو كانت لك الدنيا كلها ، أكنت مفتدياً بها ، فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أينسرت من هذا ؟ وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك^(١)) .

والله سبحانه يقول (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأمروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالسطر وهم لا يظلمون) . فلا يقبل منها حتى على

(١) أخرجه مسلم .

فرض وجوده معها وهم في كمد يظلل الوجوه . إنه الرعب لينهب بالإنسان وإنه يود لو يفقد من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، بمن كان يفقد بهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم (يود المحرم لو يفقد من عذاب يومئذ بينه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيها كلاً إنها لظى) بينه وزوجه وأخيه . وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقدته الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفقد من في الأرض جميعاً ثم ينجيها ، وهي صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجائعة في الافلات .. كلاً .. في ردع عن تلك الأمانى المستحيلة في الافناء .

٨ - الميزان

يقول الله سبحانه (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) في هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلاق التي تشهد ذلك اليوم المشهود . وتلقي الخلائق كلها بربهها في ساحة الحساب (ليند يوم التلاق) فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي . ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا سائر ولا واق ولا تزييف ولا خداع ، (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) والله لا يخفى عليه منهم شيئاً في كل وقت وفي كل حال ولكنهم في غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيحسبون أنهم مكشوفون ويعلمون أنهم مفضوحوون ويقفون عارين من كل سائر حتى ستار الأوهام . يومئذ يتضائل المتكبرون وينزوي المتجبرون ويقف الوجود كله خاشعاً ، والعباد كلهم خضع . ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان . وهو سبحانه متفرد به في كل آن ، فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ويعلم هذا كل مفكر ويستشعره كل متكبر ، وتصمت كل نائمة وتسكن كل

حركة وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب فما في هذا الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب : (لمن الملك اليوم ؟) .. (لله الواحد القهار) .

هناك تبعثر القبور ويصدر الناس ليروا أعمالهم (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) ، ترى مشهد القيام من القبور ، ترى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض كأنهم جراد منتشر ، وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) وحينئذ امتد البصر ترى شعباً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه ، (مهطعين إلى الداع) بمدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع : مفزع . مرعب . مذهل ، كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق ! (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) .. (ليروا أعمالهم) ، وهذه أشد وأدهى . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء . ولأن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجهه بعمله على رؤوس الأشهاد في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ ..

إنها عقوبة هائلة وهيبة ، مجرد أن يروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يحاكي عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

ذرة .. كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة ، وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة ، فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك

الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً
 حتى بأعظم المجاهر في العالم . إنما هي رؤيا في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن
 رآها بعينه ولا بجهره . وكل ما رآه هو آثارها ، فهذه وما يشبهها من ثقل ، من خبر
 أو شر ، تحضر ويراه صاحبها ويجد جزاءها ! عندئذ لا يحقر الانسان شيئاً من عمله
 خيراً كان أو شراً . ولا يقول هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانا
 أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجع به الذرة أو تشيل !
 إن هذا الميزان لم يوجد له شبيه أو نظير بعد في الأرض ، إلا في القلب المؤمن ،
 القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل
 من الذنوب والمعاصي والجراثيم ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسب من الخير دونها رواسب
 الجبال ، إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة نحت أثقالها تلك في يوم الحساب .
 وتقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيماً لها عند الله اعتبار (فأما من ثقلت موازينه
 فهو في عيشة راضية) . فأما من ثقلت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فهو في عيشة
 راضية ، إنها توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .
 (وأما من خفت موازينه فأتمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) وأما من
 خفت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فأتمه هاوية ، والأم هي مرجع الطفل وملأذه .
 فمرجع القوم يومئذ وملأذه يومئذ هو الهاوية ، نار حامية ، هذه هي أمّ الذي خفت
 موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فإذا هو واجد
 عند أمه هذه ، الهاوية ، النار ، الحامية ، إنها حقيقة قاسية .
 إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن ، ولا التليس في الحكم ، ولا الجدل الذي
 يذهب بصحة الأحكام والموازين ، (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ، فأولئك
 هم المفلحون) . فمن ثقلت موازينه ، فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق .
 وجزاؤها إذن هو الفلاح . وأي فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة الى الجنة ، في نهاية
 الرحلة المديدة ، وفي ختام المطاف الطويل ؟

روي عن أنس يرفعه ، قال (ملكٌ موكل بالميزان ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق . سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا تسعد بعدها أبداً (١)) .

ومن خفت موازينه فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطيء (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) ، وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟

إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ؟ . . لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله ، إن الحساب يومئذ بالحق وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وإن عملاً لا يبض ولا يغفل ولا يضيع فكل شيء مسجل منسوخ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .

إن هذه الأجيال الحاشدة التي عمرت هذا الكوكب في عمره الطويل القصير وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب الحساب المرهوب . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها في صعيد واحد ، ومرهوب بهيئته ، والكل جاثون على الركب . ومرهوب به وراه من حساب . ومرهوب قبل كل شيء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق يقال لهم (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع ، وكيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ولا يغيب . وإن الله يعلن لهم الاهمال والتحقير والمصير الأليم (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وماؤاكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) .

(١) رواه البزار والبيهقي .

إن الله سبحانه لا يترك ذرة تضيع يوم الحساب (ونضع الموازين القسط ليوم
القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين) .
والحبة من الخردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك
يوم الحساب ولا تضيع والميزان الدقيق يشيل بها أو ميل .

عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو
دُرِّي في السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟
فيقول الله : لمن شئت من خلقي ، فيقولون سبحانه ما بهدناك حتى عبادتك (١)) .
وعند الميزان لا يذكر أحد أحداً فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت ، فهل
تذكرون أهلكم يوم القيامة ؟ فقال : أما في ثلاثة مياطن فلا يذكر أحد أحداً : عند
الميزان حتى يعلم أخف ميزانه أم أثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه
أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز (وفي
رواية الحاكم قال : (وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، ما فتاه كلاليب كثيرة ،
وحسك كثيرة ، يحبس الله بها من يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ؟ (٢)) .

هؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم .. (فمن
ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا
أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) .
وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسر التي
بين جنبه ، وخسر ذاته التي تميزه ، كأنما لم يكن له وجود .

فلتنظر نفس ما قدمت لغدا . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون
المعرضون المستهزون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة .

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

إن الله يقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان وهو يطالع علم الله الشامل المائل الدقيق اللطيف . (يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبير) وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور ، حبة من خردل . صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السموات) في ذلك الكيان المائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . (أو في الأرض) ضائعة في ثراها لا تبين (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها وقدرته لا تفلتها . إن الثقة واليقين بالآخرة لا ريب فيها والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل .

يقول الامام المحاسي رحمه الله (.. فتوهم الميزان بعظمه منصوباً ، وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك ، فيينا أنت واقف مع الخلائق ! إذ نظرت الى الملك وقد أمر أن يحضر بالزبانية فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار ، فلما رأيتهم فبهتتم طار قلبك فرعاً وربعاً؛ فيينا أنت كذلك إذ نودي باسمك فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ هلم الى العرض على الله عز وجل ، وقد وكتل الملائكة بأخذك حتى يقربوك إلى ربك فلم يمنعها استباه الاسماء باسمك أن تعرفك لما ترى بك أنك المراد بالدعاء المطلوب .

قال : حدثنا طلحة بن عمرو قال : قال لي عطاء بن أبي رباح : يا طلحة ما أكثر الاسماء على اسمي ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان فقام الذي يعني لا يقوم غيره لما ألزم قلبك من العلم — فوثبت على قدميك ترتعد فرائذك وتضطرب جوارحك فتغير لونك ، فزع مرعوب مرتكض قلبك في صدرك بالحلققان ، فلما عاينتك الملائكة

الموكلون بأخذك قد حلّ بك الاضطراب بالارتعاد والخافة ، علمت أنك المراد من العباد فأهوت اليك بأيديها فقبضت عليك بعنفها ثم جذبتك الى ربك عز وجل كما تجذب الدواب المتقادة تتخطى بك الدفوف محثوثاً الى العرض على الله عز وجل والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم وأنت مجبوذ الى ربك عز وجل فيما بينهم . فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك ، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك ، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف ، طائر فؤادك منخلع قلبك ، فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك الى عرش الرحمن فقدفوا بك من أيديهم ، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه : ادن مني يا ابن آدم ، فغيّبك في نوره ، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ، وجل مرعوب ، وطرف خائف ، خاشع ذليل ، ولزت متغير ، وجوارح مرتعدة مضطربة ، كالحمل الصغير حين تلده أمه ، ترتعد بيدك صحيفة محبرة لا تغادر بلبة كسبتها ولا محبة أسررتها ، فقرأت ما فيها بلسان كليل وحجة داحضة وقلب منكسر . فكم لك من حض وخجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسناً ، وعليك ساتراً ، وبأي لسان تحببه حين يسألك عن قبيح فعلك ، وعظيم جرمك ، وبأي قدم تقف غداً بين يديه ، وبأي نظر تنظر اليه ، وبأي قلب تحتل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟ فتوهم نفسك بصغر جسمك ، وارتعاد جوارحك ، وخفقان قلبك ، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك ، وإظهار مساوئك ، وتوقيفك وتقويرك بمخباتك ، فتوهم نفسك بهذه الهيئة والأحوال بك محدة من خلفك ، فكم بليّة قد نسيته ، قد ذكرتها ، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك الى ميل الهوى عما يفسده قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه ؛ بعد ما كان تأملك فيه عظيماً ، فباحسرات قلبك وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك ، حتى إذا كرّر عليك السؤال بذكر كل بليّة ونشر كل محبة فأجهدك الكرب ، وبلغ منك الحياء منتهاه لأنه الملك الأعلى فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس له مثل ،

المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول ، فما ظنك بسؤال من هو هكذا
أبانت عن مخالفتك إياه ، وقلة هيبتك له ، وحيائك منه ، ومبارزتك له ، فما ظنك
بتدكيره إياك مخالفته وقلة اكتراثك في الدنيا بالطافه عليك ونظرك إليه ؛ إذ يقول :
يا عبدي أما أجاللتني أما استحييت مني ، أستخففت بنظري اليك ، ألم أحسن اليك ، ألم
أنعم عليك ، ما غرتك مني ، شبابك فيما أبليت به ، وعمرك فيما أفنيت به ، وما لك من أين
اكتسبته ، وفيم أنفقت ، وعملك ماذا عملت فيه .

عن ابن مسعود أنه بدأ باليمين ، فقال : والله مامنكم من أحد إلا سيخلو به الله
عز وجل كما يخلو أحدكم بالقمر براه ثم يقول : يا ابن آدم ما غرتك بي ، يا ابن آدم ما عملت
لي ، يا ابن آدم ما استحييت مني ، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ، يا ابن آدم ألم أكن
رقيباً على عينيك وأنت تنظر بها الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع
بها الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لا يحل لك ، ألم أكن رقيباً
على يديك وأنت تبطش بها الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشي
بها الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهتم بما لا يحل لك ؟ أم أنك كرت
قربي منك وقدرتي عليك وأنت يا ابن آدم بين خطيرين عظيمين : إما أن يتلافك برحمته
ويتطول عليك بجوده ، وإما أن يناقشك الحساب ، فيأمر بك الى الهاوية وبئس المصير .
فما ظنك بنفسك وضعف قلبك ، والله عز وجل يكرر عليك إحسانه اليك ، ومخالفتك
له ، وقلة حيائك منه ، فأعظم به موقفاً ، وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية ،
وأعظم بما يناله من الحزن والغم والتأسف على ما فرطت في طاعته وركوبك معصيته ،
فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك منه أحد الأمرين : الغضب أو
الرضا عنك والحب لك ، فإما أن يقول : يا عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها
لك اليوم ، فقد غفرت لك كبير جرمك وكثير سيئاتك ، وتقبلت منك يسير احسانك
فيستطير بالسرور والفرح قلبك فيشرق لذلك وجهك ، فتوهم نفسك حين قالها لك ،
نابتداً إشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسفه من الحياء من السؤال

والحصر من ذكر مساوىء فعلك ، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك ، فأسفرت وجهك وابيض لونك ، فتوهم رضاه عنك حين سمعته منه ، فثار في قلبك ، فامتلاً سروراً وكدت أن تموت فرحاً وتطير سروراً ، ويحق لك ، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل ، فوالله تعالى لو أنك مت فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حرياً ، وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة ، ولكن أملت لذلك ، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة ، ولو توهمت نفسك ، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً ، فكيف ان لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنك والمغفرة لك ، فأمن خوفك وسكن حذرَكَ وتحقق أملك ورجاؤك بخلود الأبد ، وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا يفنى ، ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب ؛ فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل ، وقد بدا لك منه الرضا ، وطار قلبك فرحاً ، وابيض وجهك ، وأشرق وأثار وأحال عن خلقته ، فصار كأنه القمر ليل البدر ، ثم خرجت على الخلائق بوجه محبوب قد حل به أكل الجمال والحسن ، يسطع نوراً مشرقاً بتلألؤه تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء كتابك يمينك ، أخذ بضبعك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان سعيد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه ، ولقد حقق حسن ظن الظانين وأبطل تهم المتهمين لك ، وإن في هذه المنزلة غدا على رؤوس الخلائق لعروضاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنع لهم زهداً في المنزلة عندهم ، والتعظيم عندهم بطاعة ربه عز وجل بصدق معاملته وحده لا شريك له ، عوضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق فشرك برضاه عنك وموالاته إياك ؛ فتوهم نفسك وأنت تتخطى الخلائق ، وكتابك في يمينك بجمال ونبهك ونوره ، وفرح قلبك وسروره ..

عن ابن مسعود أنه قال : ينشر الله عز وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن ويبسط كفه لظهرها ، فيقول يا ابن آدم هذه حسنة قد عملتها في يوم كذا وكذا قد

قبلتها ، وهذه خطية قد عملتها في يوم كذا وكذا قد غفرتها لك فيسجد ، فيقول الناس : طوبى لهذا العبد الصالح الذي لم يجد في صحيفته إلا حسنة .

عن عبد الله بن حنظلة قال : إن الله عز وجل يقف عبده يوم القيامة فيبيدي حسناته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ، فيقول : نعم أي رب ، فيقول : إني لم أفضحك به اليوم وإني قد غفرت لك اليوم ، فيقول عندها : هلموا اقرأوا كتابه ، إني ظننت أني ملاقٍ بحسابه ، حين نجا من فضيحة يوم القيامة .

وأما الأمر الآخر فإما أن يقول لك : عبي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي ، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت ، ولن أتقبل منك ما عملت ، فيقول لك في ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة [أن يقول لك] : أتعرفها ؟ فتقول : نعم وعزتك ، فيغضب عليك فيقول : وعزتي لا تذهب بها مني ، فنادى الزبانية فيقول : خذوه ، فما ظنك بالله عز وجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله . فتوهم إن لم يعف عنك ، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب ، وأسند اليك الزبانية بغضاؤها وغلظ أكفها ، فلم تشعر حين قالها إلا وبجسة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك ، فتوهم نفسك مستجذبا ذليلاً موفناً بالهلاك وأنت في أيديهم وهم ذاهبون بك إلى النار مسود وجهك تتخطى الحلائق بسواد وجهك وكتابك في شمالك تنادي بالويل والنبور ، والمملك آخذ بضبيحك ينادي : هذا فلان بن فلان شقى شقاء لا يسعد بعده أبداً .

لقد شهرك بالغضب والسخط عليك ، ولقد تمت فضيحتك عند خلقه ، فأخلف حسن ظن الظانين بك ، وحققتهم المتهمين لك ، ولعله إن فعل ذلك بك فعله بتصنعك لطاعته عند عباد بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه عنده ، ففضحك عند من آثرته عليه في المعاملة ، ورضيت بحمده على طاعة ربك عز وجل عوضاً من حمده إياك تبارك وتعالى . فتوهم ذلك ثم توهمه واذكر هذا الخطر ، وكن مفكراً حذراً أي الأمرين يرتفع بك وأي الأمرين قد أعد لك .

عن كعب قال : إن الرجل ليؤمر به إلى النار فيبتدر مائه ألف ملك .

قال أبو عبد الله : وقد بلغني أنه إذا وقف العبد بين يدي الله عز وجل فطال وقوفه ، تقول الملائكة مالك من عبد عليك لعنة الله أبكل هذا بارزت الله عز وجل وقد كنت تظهر في الدنيا علانية حسنة ؟

قال أبو عبد الله : ولقد بلغني أيضاً أنه إذا حوسب فوبخ بكثرة أعماله الحبيثة ، تقول الملائكة : مالك من آدمي عليك لعنة الله ، أبكل هذا بارزت الله عز وجل ، وقد كنت تظهر الحسن في الدنيا ؟ قال : من تحبب الى الناس بما لا يحب الله عز وجل وبارز الله عز وجل بما يكره لقي الله عز وجل وهو عليه ساخط وله ماقت^(١) .

٩ - رقابة الله

إن رحلة الحياة واحدة تبدأ من الميلاد . وتمر بالموت وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ، ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد ، وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يفلت ، وتحت رقبته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنما لرحلة رهيبة تملاً للحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام (لا تأخذه سنة ولا نوم) إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه في حركته وسكونه ، وسلطان الأرض معها تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمي منه إذا أوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فيه ! أما في قبضة الجبار فهي مُسلّطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار . فكيف بهذا الانسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم)

(١) التوهم : ١٠٠ - ٢٦ .

قاله يعلم ما بين أيدي الناس وما خلفهم ، وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولهم فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم وما خلفهم .. من شأنه أن يحدث في النفس رجّة وهزة . النفس التي تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديها وما خلفها . يعلم ما تضر . علمه بما تجهر ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل . ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت بما لا تعلمه هي ولا تدريه ، شعور النفس بهذا خلق بأثر يحدث فيها هزة ، الذي يقف برئاً بكل ما في سريره أمام الديان ، كما أنه خلق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه . وشعور المؤمن بأن عين الله — سبحانه — على نيته وضميره — وعلى حر كنه وعمله ، يثير في حسه مشاعر حية متنوعة . شعور التقوى والتخرج أن يهيج في خاطره هاجس رياء أو تظاهر ، وهاجس شح أو بخل ، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن . وشعور الاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء . وشعور الرضى والراحة بما وفقى الله وقام بشكر نعمته عليه . إنها لمسات للقلوب .. وأشعاراً أن عين الله عليها ، وأن علم الله يتابعها ، ومو امعان في التحذير والتهديد واستجاشة الحشية واتقاء التعرض للنقمة فلا ملجأ من الله ولا نصرة ! (قل إن تخفوا ما صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) . (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) .

إن هذا التوكيد يتفق مع وحدانية الألوهية والقوامة ، فلن يفلت شيء من علم الله في الأرض ولا في السماء ، بهذا الشمول والاطلاق ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه . ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التغلّت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق . فالله حاضر . الله شاهد . يالها من رهبة إذن ومن روعة تخف به . والسرائر مكشوفة فيه الله . وهو يسمع ما تقول الألسنة ويعلم ما تهجس به الضمائر (والله سميع عليم) فهو سبحانه يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب وذات الصدور (والله عليم بذات الصدور) .

وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المحتبئة فيها ، المصاحبة لها . التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . إنه العلم الإلهي المحيط بكل شيء المطلع على سر الانسان وعلايته . وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، (يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيد المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته ، ويمنحه جانباً من التصور الايماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ، فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائبة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

إنه علم الله الشامل الكامل الذي لا تخفى عليه خافية في السماء وفي الأرض ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . (ولأن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) . إنه الله يعلم المشاعر الخافية ، والحواطر الكامنة ، والأسرار الدفينة . وهي على خفائها وكنائنها مكشوفة لعلم الله المطلع على ذات الصدور ، (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) .

إنها رقابة الله تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتبعها في مرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . رقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف اطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً . ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نفس معدود ، وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب ، وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي

مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . في كل وقت وفي كل حال .

إن هذه المراقبة تروع النفس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر الم هول الرهيب . إن الله معه ، ناظراً إليه ، مطلعاً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جداً قريب ، (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) ، وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله سبحانه مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت وفي كل مكان ، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ، ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض ، كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتعرج من كل دنس ومن كل اسفاف . إن هذا الأمر يقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلنه ، وحر كته وسكونه ، وخواجه ونجواه . وهو يعلم أنه لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حمائه .

ويشير القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، والخوف ، من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ويطلع على سره ونجواه . إنها التربية ، التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرفقة والتطلع والحذر والانتظار .

ما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذي يعلم ما خلق ، وهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ، لافي ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب ، (إن الله كان عليكم رقيباً) ، (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء ، ولا شيء مما يخفونه في صدورهم ، وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر ، وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم . فهو المطلع على السرائر ،

المحيط بكل مضر وظاهر ، الذي لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

هذه اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر في هذه الآيات تشعر بمراقبة الله . إنه شعور مطمئن وخفيف معاً ، مؤنس ومرهب معاً ، وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيئته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته ، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . الله مع هذا المخلوق البشري . إن القلوب ترتجف حين تتدبر ذلك وتتصور . يالها من رهبة غامرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله سبحانه ، وإحاطة علمه وقهره (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه علم بذات الصدور) .

إن الله سبحانه يصور الوضع الخفي الدقيق من أوضاعهم ، حين يأوون إلى فراشهم ، ويخونون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون . . والله يعلم ما هو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالقرآن يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسو عنها فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه : والله عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها والتي تلزمها كما يلزم صاحب صاحبه ، أو المالك ملكه : فهي لشدة خفائها مميت ذات الصدور ومع ذلك فالله عليم بها . . وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة أو سكنة تذهب أو تضيع (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) .

إن الله يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية . فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . فالله مع الانسان يسمعه ويراه (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وهو سبحانه رقيب على كل نفس مسيطر عليها في كل حال عالم بما كسبت في السر والجهر (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) . إنها الرقابة والسيطرة والعلم : صورة ترتعد لها الفرائص . فلنتصور كل نفس ، مسيطر عليها في كل حال ، عالم بما كسبت في السر والجهر .. فلنتصور كل نفس أن عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مراقباً محاسباً بما كسبت . ومن ؟ إنه الله ! فآية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق . إن الله قائم على كل نفس بما كسبت . لا تقلت منه ولا تروغ ، فالله هو الذي خلق النفوس ويعلم مداخلها ومكائنها التي أودعها إياها (وأسرأ قولكم أو اجهرأ به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .. وأسرأ أو اجهرأ فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما أخفى من الجهر والسر . إنه عليم بذات الصدور . التي لم تفارق الصدور ! عليم بها . فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور . ألا يعلم وهو الذي خلق .. الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخطي المستور . إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير ، يبدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله وهو يعلم دروبه وحنايه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ؟ وأين يخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكاً صحيحاً للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تُنشط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية .. وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذي يعلمه الله وهو اللطيف الخبير . عندئذ يتقي المؤمن النية

المكنونة ، والمهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة والصوت الجهر . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر . الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

١٠ - تسجيل واحصاء دقيق

إن الله هو المنشئ الموجد الخالق . إن الإنسان خارج من يد الله أصلاً ، فهو مكشوف الكنه والوصف والسر خالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره .. (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ..) وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذي ينكره ويحججه . (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) . الوريد الذي يجري في دمه وهو تعبير يثمل ويصور القبضة المملوكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لابد أن يرتعش ويحاسب. ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ماجرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل ماجرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال بالقبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لاتغفل عن المحاسبة . ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة . فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به . عن اليمين وعن الشمال يلتقيان منه على كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها .. (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وحسبنا أن نعيش في هذه الحقيقة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة ، وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير . والذين انتفعوا بهذا

القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بمحاثق القرآن ، كان سبيلهم أن يشعروا وأن يعملوا وفق ما شعروا .

قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية : عن بلال ابن الحارث المزني رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) ، قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعني حديث بلال ابن الحارث (١) .

وحكي عن الامام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه . وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها عن يقين .

فكل نفس عليها من أمر الله رقيب ، (إن كل نفس لما عليها حافظ) وما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها . وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار وهي التي يناط بها العمل والجزاء . ليست هناك فوضى إذن ولا هيصة ، والناس ليسوا مطلقيين في الارض هكذا بلا حارس ، ولا مهملين في شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاؤوا بلا رقيب ، إنما هو الاحصاء الدقيق المباشر والحساب المبني على هذا الاحصاء الدقيق المباشر . ويلقي النص ايجاه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً في خلوة — وإن خلّت — فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمين من كل طارق ، هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور .

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو وبه وقال الترمذي : حسن صحيح .

فإنه سبحانه صاحب السلطان القاهر ، وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السلطان ، لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون (وهو القاهر فوق عباده . ويرسل عليكم حفظة) وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس ، مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة ، إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ، وكل حركة في كيانه خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانه من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة .

وخل الرقابة المباشرة على كل نفس (ويرسل عليكم حفظة) ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نامة ، ويعفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء . وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري . وتستيقظ فيه كل خالصة ، وكل جارحة . وإن علة الغرور ، وعلّة التقصير ، هو التكذيب بالحساب والمواخظة والجزاء (كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) .

فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف . فتطيع ربها وتعبد حبا فيه ، لا خوفاً من عقابه ، ولا طمعاً في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع إليه ، لتلقى ربها الذي تحبه وتشتاق للقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الانسان تكديباً بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير ، تكذبون بيوم الدين ، وأنتم صاثرون إليه ، وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لا يضيع منه شيء ، ولا ينسى منه شيء . وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالانسان — من الملائكة — التي ترافقه ، وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه — ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وإن عليه حفظة كراماً كاتبين يعلمون ما يفعله ،

ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود ، والله يذكر أن من صفة الحافظين كونهم « كراماً » ليستجيش في القلوب احساس الحبل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الانسان ليحتشم ويستحي وهو بحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبدل في لفظ أو حركة أو تصرف ، فكيف به حين يشعر أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة كرام لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كريم من الحصال والفعال ؟

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر بأقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الادراك المألوف ، ومن ثم يقرر الله تفردة بالأمر في ذلك اليوم العصيب ليحاسب الانسان على ما قد سجل عليه الحفظة وعلى ما اطلع الله به عليه . (وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس نفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

والنفس في ذلك اليوم في العجز الشامل . وهو الشلل الكامل ، والأمر يومئذ لله ، يتفرد به سبحانه ، وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة ولكن في هذا اليوم - يوم الدين تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون .

إن المؤمن حين يشعر برقابة الله يعيش قلبه في حساسية مرهفة ، وتوفز دأته ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً بقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال ، شاعراً برقابة الله التي لا يغيب عنها شيئاً (إنه يعلم الجهر وما يخفى) .. (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) .. (عالم الغيب والشهادة) .

ويستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ويعمل الانسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله ،

المراقب لله . الذي لا يعيش وحده ، ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام . وكيف يغفل الانسان وينام والله بالمرصاد (إن ربك بالمرصاد) يرى ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور ولكن بحقائق الأشياء ، وإن رقابة الله لا تدع النفس الانسانية لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهبة تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في هذه القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً أو قليلاً . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة ، وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهبة مضروبة على وساوس القلب . كما هي مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة في كل وقت وفي كل حال .

١١ - الصراط

يقول الله سبحانه (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب فهم يرردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتلطمز ، ويرون العناء يُنزعون ويقذفون . عن قيس - هو ابن أبي حازم - قال : كان عند عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته ، فبكي ، فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) ولا أدري أنجو منها أم لا ؟ (١) .

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما .

ولو لم يكن بين يدي الانسان إلا هول الصراط لكفاه هولاً وفزعاً ورعباً .
حيث لا يسأل أحد أحداً .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت فقال رسول الله ﷺ :
ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت النار ، فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟
قال : أما في ثلاثة مواطن ، فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أخف ميزانه
أم يتقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء
ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز^(١) . .

عن أنس رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ،
فقال : أنا فاعل إن شاء الله تعالى ، قلت فإين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط
قلت : فإن لم ألقك على الصراط قال : فاطلبي عند الميزان : قلت فإين لم ألقك عند
الميزان ، قال : فاطلبي عند الخوض ، فإنني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن^(٢) . وعلى
الصراط الكلايب والخطاطيف تخطف الناس إلى جهنم . قال رسول الله ﷺ « يضرب
الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ
أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ سلم سلم ، وفي جهنم كلايب مثل شوك السعدان^(٣)
هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم : قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم
قدر عظمتها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق^(٤) بعمله ومنهم من
ينجردل^(٥) ثم ينجو^(٦)) .

(١) أخرجه أبو داود ، وهو حديث حسن له شواهد ، يشهد له الحديث الذي بعده .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

(٣) شوك السعدان : شوك ترعاه الإبل .

(٤) يسقط .

(٥) يخردل : يخدش .

(٦) البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم سلم . فمن الناس من يره مثل البرق ومنهم من يركل ريع ومنهم من يركل فرس المجري ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشي مشيا ، ومنهم من يجبو حبوا ، ومنهم من يزحف زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون . وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيموتون فيكونون فحما ثم يؤذن في الشفاعة^(١) .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة رب سلم سلم^(٢) .

عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ (يجمع الله الناس - فذكروا الحديث إلى أن قالا - فيأتون محمدا ﷺ ، فيقوم ويؤذن له وترسل معه الأمانة والرحم ، فيقوم جنبتي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت بأبي أنت وأمي . أي شيء كمر البرق ؟ قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفه عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير وشدة الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفا ، قال : وفي حافتي الصراط كلايب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفا^(٣)) .

حيث تختطف كلايب جهنم المجرمين (هذه جهنم التي كنتم توعدون أصلاها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) .

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن بشواهد .

(٣) رواه مسلم .

إنه موقف يؤذي . ثم مشهد عجيب ، تشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً يكذب بعضها بعضاً . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى ربه مستسلماً . إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب . الألسنة معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون .

مشهدهم عيان مطموسين ، ثم هم مع العبي يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخطب العميان حين يتسابقون ويتساقطون تساقط العميان حين يسرعون متنافسين (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يصرون) ، ثم مشهدهم قد جدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تقضي ولا تعود ، بعد أن كانوا منذ لحظة عياناً يستبقون ويضطربون (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) ولأنهم ليبدون كالدمى واللعب في حال تثير السخرية والهزاء .

أما المؤمنون فتزحزح عنهم النار وينجون (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا أقم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) .

إنه تكريم عظيم أن يضم الله المؤمنين إلى النبي ﷺ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الحزي ثم يجعل لهم نوراً ، نوراً يُعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونوراً يهتدون به في الزحام المريج ، ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف .

هؤلاء المؤمنون ، نراهم ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخصيات الانسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . (يوم ترى

المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .. ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه الى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم) . وهم في رهبة الموقف وشدة ما يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه يستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم والنور وبالنجاة من العذاب .

عن أم مبشر الأنصارية رضي الله عنها : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة : (لا يدخل النار إن شاء الله من أهل الشجرة أحد وللذين بايعوا تحتها) قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة (وإن منكم إلا واردها) فقال النبي ﷺ قد قال الله تعالى (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا^(١)) .

لأنها نعمة النجاة من بعد الورود على جهنم ، نعمة النجاة . فالناس سيقوا إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر . فمن استقام خف على الصراط ونجا ، ومن ابتعد عن الاستقامة وأثقل على ظهره الذنوب وعصى تعثر على الصراط وسقط .

يقول الامام الحارث المحاسبي^(٢) (.. فتوهم ما حل من الرجل بفؤادك حين رفعت طرفك فنظرت اليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه ، وجهنم تحفق بأمواجها من تحته ، فياله من منظر ما أفظعه وأهوله ، وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر الى سواد جهنم من تحته ، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها ، والملائكة تنادي : ربنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادي : ربنا ربنا سلم سلم ؛

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) التوهم ٢٧ - ٢٩ .

فبينما أنت تنظر اليه بفضاعة منظره ، قيل لك وقيل للخلق معك : اركبوا الجسر . فتوهم خفة ان فؤادك وفزعه ، وقد قيل لك اركب الجسر ، فطار عقلك رعباً وفزعاً ، ثم رفعت أحد قدميك لتركبه فوجدت بباطن قدميك حدته ودقته فطار قلبك فزعاً ، ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكباً وقد أثقلتك أوزارك وأنت حاملها على ظهرك ، وتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك ؛ فتوهم صعودك بضعفك عليه ، وقد نظرت إلى الزلازل والزلاجات من بين يديك ومن خلفك وقد تنكست هاماتهم وارتفعت على الصراط أرجلهم ، وثارت انوار بطلبتها وفارت وشهقت على هاماتهم ، ورمتهم الملائكة بالكلاليب فجذبتهن وثارت اليهم النار بطلبتها وحريقها ، وزفرت وشهقت على هاماتهم وبادرت شرر النار الى هاماتهم فتناولتها ثم جذبت هاماتهم الى جوفها ، وبهم ينادون ويصرخون وقد أيسوا من أنفسهم ، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون ، وأنت تنظر اليهم مرعوباً خائفاً أن تتبعهم فتزل قدمك فتوهي من الجسر وتنكسر قامتك وترتفع على الصراط رجلاك .

فتوهم ذلك بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك تخفف في الدنيا للمرور عليه ، فان أهوال القيامة إنما تخفف على أولياء الله عز وجل الذين توهموها في الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم ، فتعموا من ثقل مومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على ضرورتهم فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم ، فالزم قلبك توهمها والخوف منها والغم بها لأن الله يخففها عليك بذلك ويهونها لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة .

فتوهم مراك على الجسر بشدة الخوف وضعف البدن ، وان يكن مغضوباً عليك غير معفي عنك ، ولم تشعر إلا وقد زلت قدمك عن الصراط ، فتوهم نفسك إن لم يعف عنك أن زلت رجلك عن الصراط فقلت في نفسك مع ذلك ذهبت أبداً . هذا الذي كنت أحاذر وأخاف ، وطار عقلك ، ثم زلت الأخرى فتكست هامتك ، وارتفعت عن الصراط رجلاك فلم تشعر إلا والكلوب قد دخل في جلدك ولحمك ،

فجذبت به وبادرت اليك النار فاثرة غضبانة لغضب مولاه ، فهي تجذبك وأنت تهوي من الجسر وتنادي حين وجدت مسّ نفعها : ويلي ويلي ، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف إلا كنت أروضيت الله عز وجل ، فرضي عنك وأقلعت عما يكره قبل أن تموت ، فغفر لك ، حتى إذا صرت في جوفها التحمت عليك بجريقتها ، وقلبك قد بلغ غاية حرقة ومضيقه ، فتورمت في أول ما ألقيت فيها ، وفادى الله عز وجل النار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور ، فناداها : هل امتلأت ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها له : هل من مزيد ؟ يقول : هل من سعة وأنت في قعرها ، وهي تتلهب في بدنك . لها قصيف في جسدك ثم لم تلبث أن تقطر بدنك وتساقط لحك وبقيت عظامك ، ثم أطلقت النار على ما في جوفك فأكلت ما فيه ، فتوهم كبك والنار تداخل فيها وأنت تنادي فلا ترحم وتبكي وتعطي الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال (هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس دونه سحب ؟) قالوا : لا يا رسول الله ، قال : (هل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سمعاب ؟) قالوا لا ، قال : (فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيدعوهم ، ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمره ، لا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان^(١) ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمتها

(١) السعدان : نبت ذو شوك معقف .

إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق^(١) بعمله ، ومنهم من يخرج دل^(٢) ، ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم بآثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا^(٣) ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار ، فيقول : يا رب اصرف وجهي عن النار قد قشني ريحها^(٤) وأحرقني ذكائها^(٥) فيقول : هل عسيت أن أفعل أن تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكنت ما شاء الله أن يسكت ، ثم قال : يا رب قدمني عند باب الجنة ، فيقول الله : أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت قد سألت ؟ فيقول : يا رب لا أكون أشقى خلقك . فيقول : ما عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غير هذا ، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فسكت ما شاء الله أن يسكت ، فيقول : يا رب أدخلني الجنة ، فيقول الله : ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ! أليس قد أعطيتني العهود أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ، ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمن ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته ، قال الله : تمن من كذا وكذا يذكره ربه ، حتى إذا انتهت به الأماني قال الله : لك ذلك ومثله معه^(٦) .

(١) يوبق : يهلك .

(٢) المخردل : المرمي المصروع : والمعنى أنه تقطعه كالليب الصراط حتى يهوي في النار .

(٣) امتحش : احترق .

(٤) قشني ريحها : أي أذاني .

(٥) ذكائها : اشغالها ولهيبها .

(٦) رواه البخاري .

١٢ - الشفاعة

يقول الله سبحانه (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ويقول تباركت أسماؤه (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) .
إن الشفاعة هي مظهر من مظاهر الرحمة الالهية التي يغمر بها الله سبحانه العصاة والمذنبين من خلقه ، وهي كذلك مكرمة لرسوله ﷺ في أن يشفع لأمته .
عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل نبي سأل سؤالاً - أو قال : لكل نبي دعوة قد دعاها لأمته - وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ^(١) .
ولمسلم قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى وانصرف إليهم ، فقال لهم : (لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيت أحد قبلي : أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر إلىء منه ، وأحلت لي الغنائم أكلها ، وكان من قبلي يُعظمون أكلها ، وكانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم ويبيعهم ، والخاصة هي ما هي قيل لي : سئل ، فإن كل نبي قد سأل ، فأخبرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله ^(٢)) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (خيرت بين الشفاعة أو

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح .

يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أما إنما ليست للمؤمنين المتقدمين ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين^(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي^(٢)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً) .

وفي رواية أن أبا هريرة قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال : لكل نبي دعوة يدعوها فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم^(٣) .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتاني آت من عند ربي ، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً^(٤)) .

وشواهد الشفاعة كثيرة يقول الله سبحانه (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، ويقول عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . والمقام المحمود الذي وعد الله عز وجل رسوله به إنما هو تلك المنزلة العظيمة التي تخوله في أن يشفع لأهل المحشر. وفي أُمَّته . ناهية .

عن أنس رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ قال : (إني لقائم انتظر

(١) رواه أحمد والطبراني ، واللفظ له ، وإسناده جيد .

(٢) رواه أبو داود والبخاري والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٤) أخرجه الترمذي وإسناده حسن .

أمتي تعبر إذ جاء عيسى عليه السلام قال : فقال هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون—أو قال : يجتمعون اليك يدعون — الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء لعظم ما هم فيه ، فاخلق ملجمون في العرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، قال : يا عيسى انتظر حتى أرجع اليك ، قال : وذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن اذهب إلى محمد فقل له : ارفع رأسك سل مُعطه واشفع مُشفع ، قال : فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين انساناً واحداً ، قال : فما زلت أتردد على ربي ، فلا أقوم فيه مقاماً إلا شفعت ، حتى أعطاني الله من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك (١) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم ، فصلى الغداة ثم جلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ وجلس مكانه حتى صلى الأولى ، والعصر والمغرب ، كل ذلك لا يتكلم ، حتى صلى العشاء الآخرة ، ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبي بكر رضي الله عنه : سل رسول الله ﷺ ما شأنه ؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط ، فقال : (نعم ، عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ، والعرق يكاد يلجمهم ، فقالوا : يا آدم ، أنت أبو البشر اصطفاك الله ، اشفع لنا إلى ربك ، فقال : قد لقيت مثل الذي لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) فينطلقون إلى نوح عليه السلام ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله ، واستجاب لك في دعائك فلم يدع (على الأرض من الكافرين دياراً) فيقول : ليس ذاك عندي ، فانطلقوا إلى

(١) رواه أحمد ورواه محتج بهم في الصحيح .

ابراهيم ، فان الله اتخذہ خليلًا ، فينطلقون إلى ابراهيم عليه السلام فيقول : ليس ذاك عندي ، فانطلقوا إلى موسى فان الله كلمه تكليمًا ، فينطلقون إلى موسى عليه السلام ، فيقول : ليس ذاك عندي ، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ، فانه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فيقول : عيسى : ليس ذاك عندي ، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، فانه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، انطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم ، قال : فينطلقون إليّ ، وآتي جبريل ، فيأتي جبريل ربه فيقول له : ائذن له وبشّرہ بالجنة ، قال : فينطلق به جبريل فيخرّ ساجدًا قدر جمعة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع ، فيذهب ليقع ساجدًا ، فيأخذ جبريل بضبعه ، ويفتح الله عليه من الدعاء ما لم يفتح على بشر قط ، فيقول : أي رب جعلتني سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه ليرد عليّ الخوض أكثر ما بين صنعاء وأيلة ، ثم يقال : ادعوا الصديقين ، فيشفعون ، ثم يقال ادعوا الأنبياء ، فيجيء النبي معه العصاة ، والنبي معه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد ، ثم يقال : ادعوا الشهداء ، فيشفعون فيمن أرادوا ، فاذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله جلّ وعلا : أنا أرحم الراحمين أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئًا ، فيدخلون الجنة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : انظروا في النار هل فيها أحد عمل خيرًا قط ؟ فيجدون في النار رجلًا ، فيقال له : هل عملت خيرًا قط ؟ فيقول : لا ، غير أنني كنت أسامح الناس في البيع ، فيقول الله : اسمحوا لعبدي كما سمحاه لعبيدي ، ثم يخرج من النار آخر ، فيقال له : هل عملت خيرًا قط ؟ فيقول : لا ، غير أنني كنت أمرت ولدي إذا مت فاحرقوني بالنار ثم اطحنوني حتى إذا كنت مثل الكحل إذهبوا بي إلى البحر فذرّوني في الريح ، فقال الله ، لم فعلت ذلك ؟ قال : من مخافتك ، فيقول : انظر إلى ملك أعظم ملك فإن لك مثله

وعشرة أمثاله ، فيقول : لم تسخر بي وأنت الملك ؟ فذلك الذي ضحكت منه من الضحى (١) .

إنها الشفاعة العظمى للنبي ﷺ عند الله تبارك وتعالى ليبريخ الناس يوم القيامة من عظيم ما هم فيه من شدة وهول ذلك اليوم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون يمّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويُسَمِّعهم الداعي ، وقدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا تنظرون إلى ما أنتم فيه ، وإلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما بلغنا ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، وإن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض ، اسفّع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنني كنت كذبت ثلاث

(١) رواه أحمد والبرار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه وقال : قال اسحاق - يعني ابن

إبراهيم - هذا من أشرف الحديث .

كذبات ، فذكرها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ، فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اسفّع لنا الى ربك ، أما ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلتُ نفساً لم أُؤمر بقتلها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، اسفّع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ، نفسي نفسي نفسي . اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتوني ، فيقولون يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اسفّع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فانطلق فأتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ من محامده وحُسنِ الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سلّ تعطه ، واسفّع تُشفّع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمّتي يا رب ، أمّتي يا رب ، أمّتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب) ثم قال (والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصرّاعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى ^(١)) .

كما تتمثل الرحمة الالهية في شفاعة المؤمنين لغيرهم : عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيتين ربيعة ومضر (فقال رجل يا رسول الله ، أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : (إنما أقول ما أقول ^(٢)) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة ^(١)) .

ورحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء تجلت فيما تجلت بالنبي ﷺ حين أرسله الله لانتقاذ الناس من الظلمات إلى النور (وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين) : روى عبد الله بن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام - (رب أنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى عليه السلام . (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ثم رفع يديه وقال : أممي أممي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فسلمه ما يبكيك فأتاه جبريل فأخبره والله أعلم به ، فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك ^(٢))

ومن مكرمة الله أن يكون محمداً ﷺ هو الذي يستفتح الجنة :
عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، قال : فيقوم المؤمنون حتى تؤلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أياكم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنتُ خليلاً من وراء وراءه ، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليماً ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق قال : قلت : بأبي وأمي أي شيء كالبرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط

(١) رواه البزار ورواه رواية الصحيح .

(٢) رواه مسلم .

يقول : ربّ سلّم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفاً^(١)

١٣ - الحوض

واعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وهو من مظاهر اكرام الله تعالى له وزمة بعباده ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يبرزنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه ، فان من صفاته أن من شرب منه لم يظما أبداً :

عن أنس رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً ، قلنا ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أنزلت عليّ آتفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر (إن شأنك هو الأبتَر) ، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : فانه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض^(٢) ترد عليه أمّتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول رب إنه من أمّتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك^(٣) .

وفي وصفه بين الرسول ﷺ بياناً جميلاً :

(١) رواه مسلم .

(٢) ان ماء الحوض والكوثر شيء واحد كما نص على ذلك هذا الحديث ، وان أصله في الجنة ، فما كان جارياً منه في داخلها فهو ماء الكوثر وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض الذي يردّه المؤمنون .

(٣) رواه مسلم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ (حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظلم أبداً^(١)) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله قد وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب) فقال يزيد بن الأختس : والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصب في الذباب ، فقال رسول الله ﷺ (قد وعدني سبعين ألفاً مع كل سبعين ألفاً وزاد في ثلاث حثيات) ، قال : فما سعة حوضك يا نبي الله ! قال : كما بين عدن إلى عمان ، وأوسع وأوسع (يشير بيده ، قال : (فيه شعبان^(٢) من ذهب وفضة) ، قال : فما حوضك يا نبي الله ؟ قال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً ، ولم يسود وجهه أبداً^(٣)) .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إني ليعقر^(٤) حوضي أذود الناس^(٥) لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض^(٦) عليهم) فستل عن عرضه فقال : (من مقامي إلى عمان) وستل عن شرابه . فقال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يغث^(٧) فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق^(٨))

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) المثعب : وهو مسيل الماء .

(٣) رواه أحمد ، ورواه محتج بهم في الصحيح وابن حبان في صحيحه

(٤) عقر الحوض : مؤخره .

(٥) أذود الناس لأهل اليمن : أي ادفعهم ليرد أهل اليمن .

(٦) يرفض : أي يسيل ويترشش .

(٧) يغث فيه ميزابان : أي يجريان فيه جرياً له صوت .

(٨) رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما بين جنبتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة) وفي رواية (ما بين المدينة وعمّان) . وفي رواية (مئري فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء) وفي رواية (أو أكثر من عدد نجوم السماء^(١)) .
وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، لا نيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشغب^(٢) فيه ميزابان من الجنة ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمّان الى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل^(٣)) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (حوضي كما بين عدن وعمّان ، أبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، أكوابه مثل نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً . أول الناس عليه وروداً صعاليك المهاجرين) قال قائل : من هم يا رسول الله ؟ قال : (الشعنة رؤوسهم ، الشحبة^(٤) وجوههم ، الدنيسة ثيابهم ، لا تفتح لهم السُدود^(٥) ، ولا ينكحون المنعمات ، الذين يعطون كل الذي عليهم ، ولا يأخذون كل الذي لهم^(٦)) .

ولا يحرم من ورود حوض النبي ﷺ إلا من عصى وارتد وبدل من دين الله :
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي — أو قال من أمتي — فيحلسون عن الحوض ، فأقول : يا رب

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) يشغب : سال وجري .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي .

(٤) الشحبة وجوههم : من الشحوب ، وهو تغير الوجه من جوع أو هزال أو تعب .

(٥) أي لا تفتح لهم الابواب .

(٦) رواه أحمد بإسناد حسن .

أصحابي ، فيقول : إنه لا عِلْمَ لك بما أحدثوا بعدك ، انهم ارتدوا على أدبارهم القهقري^(١) .
ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : (تَرُدُّ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ وَأَنَا أَذُودُ النَّاسِ
عَنْهُ ، كَمَا يَنْذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ ، قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَعْرِفُنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَكُمْ سِيْمَا
لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ ، تَرِدُونَ مُغْرَأَ مُحْجَلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ وَلِيَصِدُّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ،
فَلَا يَصِلُونَ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي ، فَيَجِيبُنِي مَلَكٌ فَيَقُولُ : وَهَلْ تَدْرِي
مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج الى المقبرة فقال : (السلام
عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قا. رأيت اخواننا ،
فقلنا : يا رسول الله ألسنا باخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، واخواننا الذين لم يأتوا
بعد وأنا فرطهم على الحوض ، فقالوا يا رسول الله : كيف تعرف من يأتي بعدك من
أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غير محجلة في خيل دُهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟
قالوا بلى يا رسول الله . قال : فانهم يأتون يوم القيامة مُغْرَأَ مُحْجَلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا
فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ . فلا يَنْدَانُ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أنا ذاهبهم :
ألا هلُمَّ ، ألا هلُمَّ ، فيقال : انهم قد بدَّلُوا بعدك . فأقول : فسُحْقًا ، فسُحْقًا فسُحْقًا^(٢) .

عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ
يقول (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردنَّ
عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان
ابن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت :
نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : فانهم مني ، فيتال :
انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحْقًا سحْقًا لمن بدَّل بعدي^(٣)) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم ومالك في الموطأ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم أختلجوا^(١) دوني ، فأقول : أي رب ، أصحابي ، فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك^(٢)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال لهم : هلم ، فقلتُ إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلم فقلتُ : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل^(٣) النعم^(٤)) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهري أصحابه : (إني على الحوض أنظر من يرد علي منكم فوالله ليقطعن دوني رجال ، فلاقولن : أي رب من أمي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم^(٥)) .



(١) اختلجوا : استلبوا ، واخذوا بسرعة .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) همل النعم : ضوالها ، ومعناه أن الناجي قليل كفضالة النعم بالنسبة إلى جملة لها .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم .

الباب الحادي عشر

عذاب النار

— صفة جهنم —

يقول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)
إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك .
لأنها نار فظيعة متسعة وقودها الناس والحجارة . الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة . وفي كذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها نارا هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلبسها فظيع رهيب . عليها ملائكة غلاظ شداد . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون ومن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . وهم بغلظتهم هذه وستنتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ناركم هذه التي توقدون : جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فانها

فصّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها (١))
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن هذه النار جزء من مائة جزء
من جهنم (٢))
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو كان في المسجد مائة ألف
أو يزيدون ثم تَنَفَّسَ رجل من أهل النار لأحرقهم (٣)) .
وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال : (إنه ذُكر
لنا أن الحجر يلقى من سفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعرأ والله لثملأنه ،
أفعبجتم ؟ (٤))
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كنا عند النبي صلى الله فسمعنا وجبة (٥)
فقال النبي ﷺ : (أتدرون ما هذا ؟) قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : (هذا حجر أرسله
الله في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن حين إنتهى إلى قعرها (٦))
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن مقمعا (٧)
حديد جهنم وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان (٨) ما أقلوه من الأرض (٩))
وعلى المؤمن أن يقي نفسه ، وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها
بينهم قبل أن تضع الفرصة ولا ينفع الاعتذار .
لأنها لمسات تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع ، وقد سبقه النذير بخطوة . لينقذ

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) رواه أحمد ورواته رواية الصحيح .

(٣) رواه الزار وأبو يعلى .

(٤) سمعنا وجبة : معناه سمعنا صوتاً يشبه سقوط شيء من مكان عال

(٥) (٦٤) رواه مسلم .

(٧) مقمعا : المطرق .

(٨) الأثمن والجبن .

(٩) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والحاكم وقال صحيح الإسناد .

من يستمع : (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)
لينقذ من يستمع . كالماتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهب من لا يفر
من الحريق . وهو تصوير - فوق أنه صادق - بارع موح مؤثر . .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو نعيم بشير ابن المهاجر ، حدثني عبد الله ابن بريرة
عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنأدى ثلاث مرات : « أيها
الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « إنما مثلي
ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتهم ، فبعثوا رجلاً يترأى لهم ، فيبصرونه كذلك أبصر
العدو ، فأقبل لينذرهم ، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فاهوى بثوبه .
أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم ،

وروى بهذا الاسناد قال قال رسول الله ﷺ : بعثت أنا والساعة جميعاً . إن
كادت لتسبقني »

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إنما مثلي ومثلي كمثل رجل
استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والقراش يقعن فيها فأنا أخذ بمحجزكم^(١) وأنتم
تقحمون فيها^(٢) .

وفي رواية لمسلم « إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله جعل
القراش ، وهذه الدواب يقعن فيها ، وجعل يحجزهم^(٣) ويغلبه ، فيقحمون فيها ، قال :
فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بمحجزكم عن النار ، هلم عن النار هلم عن النار ، فيغلبوني
ويقحمون فيها » .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال :
وأشاح^(٤) ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم
قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة^(٥) ،

(١) المحجز - جمع حجزه وهي مقعد الازار .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أشاح : معناه حذر النار كأنه ينظر إليها .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنها قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يقول :
أُنذرتكم النار ، أُنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعهُ من مقامي هذا ،
حتى وقعت خيمته كانت على عاتقه عند رجله (١) »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية « وأُنذر عشيرتكَ
الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمَّ وخَصَّ ، فقال : يا بني كعب
ابن لؤي أُنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب أُنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني
هاشم أُنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أُنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة انقذي
نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً (٢) »

هذه جهنم ! ففيها الكفاية ! جهنم التي وقودها الناس والحجارة ، جهنم التي يككب
فيها الغاؤون وجنود إبليس أجمعون : جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة . جهنم التي
لا تُبقي ولا تذر . جهنم التي تكاد تميز من الغيظ .

والغاؤون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال « وإن جهنم لموعدهم
أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » . فلكل باب منهم جزء مقسوم
بحسب ما يكونون وما يعملون . وجهنم تحصرهم فلا يفلت منهم أحد « وجعلنا جهنم
للكافرين حصيراً » . وجهنم تتسع لهم فلا يند عنها أحد « يوم نقول لجهنم هل امتلأت
وتقول هل من مزيد »

وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . هذا هو كل كفار عنيد .
هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعاً ، وتتكدس ركماً ثم تنادي جهنم هل امتلأت ؟
واكتفيت ! ولكنها تتلمظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكل النهم : هل من مزيد
فيا للهول الرعب . إنها جهنم . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها (٣) »

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه مهلم والبخاري والترمذي والنسائي .

(٣) رواه مسلم والترمذي .

هذه نار الدنيا فكيف بنار الآخرة . ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو مدته !
وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق . وحريق الدنيا
لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله . ومع حريق الآخرة غضب الله
والارتكاس الهابط الذميم ونحن نتصور حريق الآخرة من أحاديث رسول الله ﷺ
التي أُنذر فيها وأرهب :

روى عن أنس رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «وقودها الناس
والحجارة» فقال : أوقد عليها ألف عام حتى احترت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف
عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة . لا يطفأ لهبها (١) ،

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : جاء جبريل الى النبي ﷺ في حين
غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « يا جبريل مالي أراك
مُتغير اللون ؟ فقال : ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافع النار ، فقال رسول الله
ﷺ : يا جبريل صف لي النار ، وانعت لي جهنم ، فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى
أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احترت
ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت . فهي سوداء مظلمة ، لا يضيء شررها ،
ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب ابرة فتح من جهنم لمسات من في
الأرض كلهم جميعاً من قبس وجهه ومن نتن ريحه ، والذي بعثك بالحق لو أن خلق سلسلة
أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت ، حتى
ينتهي إلى الأرض السفلى ، فقال رسول الله ﷺ حسبي يا جبريل ، لا ينصدع قلبي فأموت ! »
قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال : « تبكي يا جبريل وانت
بالمكان الذي أنت به ؟ » فقال : ومالي لأبكي ؟ أنا أحق بالبكاء ، لعلي أكون في

(١) رواه البيهقي والاصبهاني .

علم الله على غير هذه الحال الذي أنا عليها، وما أدري لعلني أبتلي بأبنتي به ابليس فقد كان من الملائكة ، وما أدري لعلني أبتلي بأبنتي به هاروت وماروت ، فما زالوا يبكيان حتى نوديا أن ياجبريل ويا محمد إن الله قد أمركما أن تعصياه ، فارتفع جبريل عليه السلام) وخرج رسول الله ﷺ فرمى بقسم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال : (أتضحكون وورائكم جهنم ، فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما أسغتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصععدات تجأرون إلى الله)^(١) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : (مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قط ؟) قال : ما ضحك منذ خلقت النار^(٢) .

هذه هي جهنم .. جهنم التي لا تبقي ولا تذر (لا تبقي ولا تذر لراحة للبشر) فهي تكس كساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى ورائها شيء ، ولا يفضل منها شيء إلا أنها وعيد مفزع .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدت الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بها فحُفَّتْ بالمسكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها ، فقال وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحُفَّتْ بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها^(٣))

(١) رواه الطبراني في الاوسط وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » .

(٢) رواه أحمد من رواية اسماعيل ابن عياش وبقيّة رواه ثقات .

(٣) رواه ابو داود والنسائي والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح .

أما أصحاب النار » وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا (

فهم من ذلك الخلق العجيب المغيّب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله، وقد قال لنا عنهم أنهم .. (لا يعصون الله) .. فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وان بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرّون بها .. (ويفعلون ما يؤمرون) .. مزودون بالقوة التي يقدرّون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة كما يعلمها الله .

إن هذا القرآن هو تنبيه وتذكّر فمن شاء فليذكر ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

٢ - أهل النار

إن الكفر عمى . عمى في طبيعته . وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء . والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الايمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعزّ فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء . والكفر هاجرة حرور . تلفح القلب فيه لوافح الخيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف وعدم الاطمئنان الى نشأة أو مصير . ثم تنتهي إلى حرّ جهنم ولفحة العذاب هناك . والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصل . . . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقي المؤثرين في سير الحياة .

إن هؤلاء نتيجتهم أن يكونوا وقوداً لجهنم (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)

حطباً لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب . إن جهنم . تستقبل أهلها الذين كفروا في غيظ وحنق شديد (والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) .
وجهنم مخلوقة تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وهي تفور، ويملاً جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ العظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين . .

ونلمح ظاهرة في خزانة جهنم . . (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزال الله من شيء إن أثم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب ! والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحق والغفلة . . فالذي يسمع أو يعقل لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . لا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ثم هو دعاء الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . . (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . . والسحق البُعد . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعودون من رحمته . لارجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . وبألها من صعبة ! وبأله من مصير ! . وهذا العذاب عذاب السعير ، في جهنم التي تشقى بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقاً . والله لا يظلم أحداً . ونحسب والله أعلم — أن النفس التي تكفر بربها — وقد أودع فطرتها حقيقة الايمان ودليله — هي نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من

كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت الى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار . والنفس التي تكفر بالله تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة . ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يائلمها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسوخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يُسبح بحمد ربه ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيعة التي تشده الى محور الوجود . . ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلته من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية المسوخة النفور . فأى مكان في الوجود كله تنتهي اليه ، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود انها تنتهي إلى جهنم المتغيطة المتملظة ، الحارقة ، المهذرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان : فريق حَيٍّ ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون) .

وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله — فدليله كائن فيه ، ومتى بُلِّغَ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت اليه حتماً — إنما ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفؤارة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي . . هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة تكشف حقيقة الموقف كله .

فهذا الذي جاء من عند الله بصائر . والبصائر تهدي وتهدي (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) وهذا بذاته بصائر

تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . معطل الحواس ، مغلق المشاعر ، مطموس الضمير .

لقد منح الله سبحانه أسماعاً وأبصاراً وأفئدة (ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء إذ أنهم عطّلوا وحجبوا . (أولئك الذين احبهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) إنهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ، ولكنهم عطّلوا السمع وعطّلوا البصر ، أو عطّلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

(أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خدّبروا أنفسهم وذلّ عنهم ما كانوا يفترون) . صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى عنها ، وهي أن تكون أدوات موصولة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجراح والحواس - والفريق الثاني كالبصير يرى ، وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .. (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) .. والفرق بين الحق والباطل واضح ؟ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، فالعمى وحده هو الذي يعمد عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحسّ بآثره كل من في السموات والأرض .. (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق

كمن هو أعمى . إنما يتذكر أولوا الألباب) .. إن المقابل لمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده الذي ينشأ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والناس أزاء هذه الحقيقة الكبرى — كما بينا — صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمي فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب وانطماس قس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .. (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) .

وهم ليسوا صمًا ولا عميًا ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والاشارة الى دلائله . ووظيفة الرسول أن يسمع من يسمع ، وأن يهدي من يبصر . فإذا هم قد عطوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يستمعون بآذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يربون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون الى الطريق .

إن هؤلاء الخلائق يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا .. إن هؤلاء الكثير ، في كل زمان وفي كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها .. (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) .

وإذا كانت الآذان والألسنة واليئون لتلقي الأصدا والأضواء والانتفاع بالهدى والنور فهم قد عطوا آذانهم فهم صم . وعطوا ألسنتهم فهم بكم ، وعطوا عيونهم فهم

عمي فلا رحمة لهم الى الحق ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .
إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين مغلقة عند الكافرين . فعلى أبصارهم غشاوة
فلا نور يوصل لها ولا هدى .. (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة
ولهم عذاب عظيم) .. وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم جزاء
وفاقا على استهتارهم بالانذار حتى تساوى لديهم الانذار وعدم الانذار (سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة
حركة الختم على القلوب والاسماع والتغشية على العيون والأبصار . (فهم صمّ بكم
عمي) .. ولو كانت لهم آذان والسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون ،
فكانها لا تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان
وعيون ، وهذه منتهى الزاوية بن يعطل تفكيره ويغلق منافذ المعرفة والهداية ويتلقى
في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة .
إنهم صمّ لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون غارقون في الظلمات لا يبصرون ! ..
(والذين كذبوا بآياتنا صمّ وبكمّ في الظلمات) .. إنهم كذلك من ناحية التكوين
الجبائي المادي فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً ولكن ادراكهم معطل فكأنما هذه
الحواس لا تستقبل ولا تتقل ؟ .. وانه كذلك هذه الآيات المبثوثة في صفحات الوجود
والآيات الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن .. هذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها
وايقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الادراك ، وما يعرض عنها معرض إلا وقد
فسدت فطرته فلم يعد صالحاً حياة الهدى ، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقى من الحياة ،
(أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .
إن الهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي .. هذه مصارع الغابرين شاحصة موحية ،

تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات .. (أفلم يسيروا في الأرض) .. فيروها فتوحى لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحديثهم بما تتطوي عليه من عبر ؟ (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .. فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل ، أفلم تكن لهم قلوب ؟ فانهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت الى الايمان . ويخلع الله على (الصم البكم الذين لا يعقلون) صورة البهيمة في الحس والخيال ! .. (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

وانهم كذلك ! إنها لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمه ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية .

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون الى ادراكهم الذي لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعاً (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) .. أي لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم ، ولكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى ، فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون حقيقة ما يدعون إليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .. لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحقى لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هي السماع الصحيح . وكما من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب .. (أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) .

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها . ونحكم شهواتها ، وتعبّد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحج ، ولا تعتق بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويطاع .

إنه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة . فهو غير قابل للهدى . ويخطو القرآن في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكمون شهواتهم ، ويتكبرون للحجة والحقيقة ، تعبداً لذواتهم وهواها وشهواتها ، يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام الى درك أسفل وأحط .

هذه الكثرة التي تتخذ من الهوى إلهاً مطاعاً ، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول ، فهي كالأنعام . وما يفرق الانسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والادراك ، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع . وهو قوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الانسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهدي بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدي وذلانها أداء كاملاً صحيحاً . بينما يهمل الانسان ما أودعه الله من خصائص ولا يلتفت بها كما قننتفع البهيمة .

فهم لم يقتنحوا القلوب التي أعطوها 'يفقهوا' — ودلائل الايمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركها التلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة — وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتأخرة ، لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبها ولم يستخدموها . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) والذين يغفلون عما

حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . فللأنعام استعدادات فطرية تنهدها . أما الجن والانس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فاذا لم يفتحوا قلوبهم رأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهداتها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيماءاتها ، فانهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة الى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجزي بهم قدر الله اليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حطب جهنم منذ كانوا .. (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

والله سبحانه يرسم مشهداً حسيّاً لهذا الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والايان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون .. (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . إن أيديهم مشدودة بالأغلال الى أعناقهم ، مضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لا يملكون أن ينظروا بها الى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم الى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ، فإلى أخرى الشد لا تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فان الانسان ليلتقي بأناس من هذا النوع يخيل اليه وهم لا يربون الحق الواضح ولا يدركون أن هنالك حائلاً عيقاً كهذا بينهم

وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة
ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك .. مكدودة عن الهدى قسراً
وملفوة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سدٌّ من هنا وسد من هناك .

كذلك يصورهم الله موتى لأحياة فيهم ، صماً لا سمع لهم ، عمياً لا يهتدون إلى
طريق .. (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت
بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) . . والذي
ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لأحياة فيه . إنما هي حياة
حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه ! والذي لا يستجيب
لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصمّ ولو كانت له أذان تسمعان
ذبذبة الأصوات ! والذي لا يبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت
له عينان كالحيوان !

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة .
حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور (إنك لا تسمع الموتى
ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن
تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

والقرآن يخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول ﷺ يدعو ، وهم لا يسمعون
الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجون مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ؛
لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون !

أما المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون (إن تسمع إلا
من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ..

إنما تسمع الذين تميأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمع والبصر وآية

الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم .

إن الاسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ، فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له .

أما الذين لا يستجيبون فهم الذين يتعبدون هواهم .. (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ..

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيم لها قاهراً لها مستولياً عليها ، وتتلقى إشارات المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .. يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد . لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .. هؤلاء هم أهل النار (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) .

أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . عليهم نار مؤصدة .. أي مغلقة .. أي أبوابها مغلقة عليهم . وهم في العذاب محبوسون .. لا يخرجون منها .. وهل أعسر من جهنم ؟ وإنما هي العسرى .

لقد عاشوا معطي المدارك مغلق البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر .. (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، ولهم عذاب عظيم) .. وهي النهاية الطبيعية للكفر العنيد الذي لا يستجيب للذئير ، والذي يستوي عنده الانذار وعدم الانذار كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد .

إنها آيات القرآن تنند من جهنم ونارها لعل " القلوب الغافلة تفيق قبل أن يواجهها

العذاب . (فأنذرتكم ناراً تلتظى) . . هذه النار المستعرة . . وهل بعد الصلي في النار شقوة . .

وود وصف النبي ﷺ بأحاديثه الشريفة كيف يتعذب أهل النار في النار :
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بنرس يجعل كل خطو
منه أقصى بدمه ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون في يوم
ومحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال :
هؤلاء المجاهلون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء ،
فهو يحفّفه ، ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ،
ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تناقلت
رؤوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ، وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون
كما تسرح الأنعام في الزرع والرقوم ورضف جهنم ، قال : ما هؤلاء يا جبريل قال : هؤلاء
الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد
جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها ، قال يا جبريل ما هذا ؟ قال :
هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس لا يستطيع أداؤها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم
أتى على قوم تفرّض شفاهم وألسنتهم بقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت
لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على
جعر صغير يخرج منه نور عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ،
قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن
يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على وادٍ فوجد ريحاً طيبة ووجد ريح سلك مع صوت ،
فقال : ما هذا ؟ قال : صوت الجنة ، تقول يا رب اتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثر
غرسي وحريري وسنديسي واستبرقي رعبقري ومزجاني وفضتي وذهي وأكوابي
وصيغاني وأباريقي وفواكهي وعسلي وماضي ولبي وخمري ، اتني بما وعدتني ، قال :

لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل عليّ كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا خلف لميعادي ، قد أفلح المؤمنون ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، فقال : يا جبريل ، ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب اتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثرت سلاسل وأغلال وسعيري وحميمي وغساقى وغسليني ، وقد بعد قعري ، واشتد حري ، اتني بما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت^(١) عن أبي سعيد رضي عنه عن النبي ﷺ قال : (ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره^(٢)) وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : في قوله (سارقه صعوداً) قال : (جبل من نار بكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده عليه ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله عليه ذابت ، فإذا رفعها عادت ، يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوى كذلك^(٣))

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بالله من جُحَبِ الحزن أو وادي الحزن) قيل : يا رسول الله ، وما جُحَبِ الحزن أو وادي الحزن ؟ قال (وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة ، أعنه الله للقراء المرائين^(٤)) وعن أنس عن النبي ﷺ قال ، (الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة

(١) رواه البزار ، عن الربيع بن أنس عن أبي العالبة - أو غيره - عن أبي هريرة « الترغيب والترهيب ٥٢٥٢ » .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي إلا أنه قال : « واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره » ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه أحمد والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٤) رواه البيهقي بإسناد حسن .

الأوثان . فيقولون يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من علم كمن لا يعلم^(١)
وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لا يدخلون الجنة :
مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصديق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاء الله جل وعلا
من نهر الغوطة) قيل : وما نهر الغوطة؟ قال : (نهر يجري من فروج المومسات^(٢) ،
يؤذي أهل النار ربح فروجهن^(٣))

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من
شرب الخمر لم يرضى الله عنه أربعين ليلة ، فإن مات مات كافراً ، فإن عاد كان حقاً على
الله أن يسقيه من طينة الجبال) . قيل : يا رسول الله وما طينة الجبال؟ قال : (صديد
أهل النار^(٤))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (صنفان من أهل النار لم أرهما :
قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . . ونساء كاسيات عاريات بميلات
مائلات رؤوسهن^(٥) كاسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يخرجن ربحها . وإن ربحها
لتوجد من مسيرة كذا وكذا^(٥))

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (النائحة إذا لم تتب^(٦)
قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب^(٦))
وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بالعالم يوم القيامة
فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا ، فيطيف به أهل النار فيقولون :

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم .

(٢) المومسات : هن الزانيات .

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم .

مالك؟ فيقول : كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية^(١))

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعل القلوب الغافلة تفتق قبل أن يواجهها العذاب (فانذرتكم ناراً تلتظى) .. هذه النار المستعرة .. وهل بعد الصلى في النار شقوة (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ..) ليس بالبعيد .. فجهنم تنتظركم وتترصد لكم على النحو الذي رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب ! وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً) ..

وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب ! وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم . حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم ، ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعب الشديداً .

إنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المحدودة . وإنه لبكاء في الآخرة . وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون .. (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) ..

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ - أنه قال : (والذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) قالوا : وما رأيتم يا رسول الله؟ قال : (رأيتم الجنة والنار)^(٢))

روى عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقوم وهم يضحكون فقال : (تضحكون وذِكْر الجنة والنار بين أظهركم) قال : فمارئي أحد منهم ضاحكاً حتى مات ، قال : ونزلت فيهم : (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم)^(٣))

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وأبو يعلى .

(٣) رواه البزار وليس في استناده من ترك ولا اتهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ — أنه خطب فقال : (لا تنسوا العظيمتين : الجنة والنار) ثم بكى أو بلّ لحيته ، ثم قال : (والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشيتم إلى الصعيد والحثيم على رؤوسكم التراب^(١))

قال محمد بن كعب : (لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً : يقولون : (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) .. فيقول الله تعالى مجيباً لهم : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) .. ثم يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) . فيقولون : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

ثم يقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) . فيجيبهم الله تعالى : (اخشوا فيها ولا تكلّمون) .. فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب^(٢) .

٣ — أحوال الناس في جهنم

يقول الله سبحانه : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً) .
هذه جهنم ، مشهد وراء مشهد ، مشهد مؤلم مفزع رعب ، إنها عذاب الله القوي العزيز ، لا يتصور هذا العذاب إلا من ذاقه — والعياذ بالله — (يومئذ لا يعذب عذابه

(١) رواه أبو يعلى .

(٢) أحياء علوم الدين ج ٤ ص : ٥١٨ .

أحد ولا يوثق وثاقه أحد) .. فأهون العذاب كما يصوره النبي ﷺ بقوله : (إن أهون أهل النار عذاباً رجلاً في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل بالقمقم^(١)) .

وقوله ﷺ (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشرا كان من نار يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً رجلاً منتعل بنعلين من نار يغلي منها دماغه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى كعبيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى ركبتيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من قد اغتمر^(٢)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منها دماغه^(٣)) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته^(٤)) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا [من أهل النار] فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط^(٥)) .

(١) رواه البخاري والثاني لفظ مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد والبخاري ورواه رواه الصحيح .

« ٣ ، ٤ ، ٥ » رواه مسلم .

إنه الهول .. فكيف بمن (كلما نضجت جلودهم بدلنهم جلوداً غيرها) .. إنه مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . ولل هول جاذبية آسرة قاهرة !

إن القرآن يرسمه مشهداً عنيفاً مفزعاً (كلما نضجت جلودهم) ويرسمه عجباً خارقاً للمألوف (بدلنهم جلوداً غيرها) .. ذلك جزاء الكفر — وقد تهيأت أسباب الإيمان — وهو مقصود . وهو جزاء وفاق .

السعير المتأجج . الجلود الناضجة المشوية المعذبة . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد ، إنه مشهد مكروب ملهوف . مشهد أولئك الكافرين حين تكون النار ثيابهم ، وتسيل جلودهم ولحومهم (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها — من غم — أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

إنه مشهد عنيف صاخب ، هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يُصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس . وهذه سياط من حديد أحمرته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهب الذين كفروا من الروع والحميم والضرب الأليم يهيمون بالخروج من الغم . وهامهم أولاء يردون بعنف . ويسمعون التأنيب ، وذوقوا عذاب الحريق .

هاهي ذي جهنم محيطة بالكافرين (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول: ذوقوا ما كنتم تعملون) .. إنه مشهد مفزع في ذاته ، يصاحبه التقريع الهزلي والتأنيب المرير .

فأني يستعجل . أن تحيط به جهنم وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ، يصيرون إليها ويأوون . ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) . وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) .. فهو التقرير زيادة على الدفع والتعذيب .

ولهم في جهنم مهاد ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم (فبئس المهاد) ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيء . إنه ما يخسق ويسيل من أهل النار ! أولهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب

(هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصاونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) .

ثم مشهد أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متواودة متحابّة . فهي اليوم متناكزة متنازعة .. (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم لأنهم صالحوا النار . قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

ههم يقتحمون النار فوجاً بعد فوج . وههم أولاء يقول بعضهم لبعض (هذا فوج مقتحم معكم) .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في اندفاع وحقن (لا مرحباً بهم لأنهم صالحوا النار) .. فهل يسكت المشتومون ؟ كلا لأنهم يردّون .. (بل أنتم لا مرحباً بكم) .. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذ دعوة فيها الحق والضيق والانتقام (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

وإننا لنجد الحق المخدوعين الذين زين لهم قرناؤهم وأغروهم (وقال الذين كفروا ربنا أرينا الذين أضلّنا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) ، إنه الحق العنيف ، والتحرّق على الانتقام ، وذلك بعد المادة والخنادنة والوسوسة والتزيين .

لأنها جهنم يكتوون فيها ويحترقون وفيها يفتنون (يوم هم على النار يفتنون)
ومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب ، (ذوقوا قنتكم هذا الذي كنتم به
تستعجلون) .. (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا إنما
تجزون ما كنتم تعملون) .

٤ — هيئة أهل النار

إن حديث القيامة هو حديث هذا القرآن المتكرر ، يُذكر به وينذر ويبشر ،
وليستجيش به في الضمائر الحساسة والحشية والتقوى والتوجس ، كما يثير به الرجاء
والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستجيب هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل . يقول الله
سبحانه : (ها أتك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً
حامية) .. فهناك يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ، عملت ونصبت فلم تحمد العمل
ولم ترضى العاقبة . ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً ، فهي
عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدينها
ولأطعامها ، ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . وجدته
في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس
الخائب الرجاء ! ومع هذا الذل والرهق والعذاب والألم تصلى ناراً حامية تذوقها وتعانيها
يقول الله سبحانه : (إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم
ذوقوا مس سقر)

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوى الجلود والأبدان . وهم
يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار .
وهم يزدادون عذاباً بالإيلام النفسي .. (ذوقوا مس سقر) . هؤلاء المجرمون في ضلال
وسعر يسحبون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير .

هذه هي جهنم حاضرة معروضة - كما ترون - (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين هذا السائل الآتي . إنظروا إنهم يطوفون الآن .

والهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يبرد ولا يروي (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في ميموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) .. وهناك الظل .. ظل من يحموم .. ظل الدخان اللافح الخائق .. إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل لا بارد ولا كريم .. فهو ظل ساخن لارواح فيه ولا بارد ، وهو كذلك كز لا يمتع وراده راحة ولا انعاشاً .. هذا الشظف كله جزاء وفاق .. (إنهم كانوا قبل ذلك متوفين) .. وما آلم الشظف للمتوفين .

إنه جزاء وفاق ، وإننا لنكاد نسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ليأخذوا طريقهم إلى العذاب ، في تأنيب مرير وإيلام عسير : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين) .

ذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه انطلاقٌ خيرٌ منه الارتهان . فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . إنه ظل لدخان جهنم تمتد السنة في ثلاث شعب . ولكنه ظل خيرٌ منه الوهج .. إنه ظل خائق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم . انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفون هذه التي تنطلقون إليها .. إلى جهنم .. فالشرر يتتابع في حجم البيت .. فإذا تتابع بدا كأنه جمالت صفر ترتع هنا وترتع هناك ! وهذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟

تغشاهم وتكرههم الذلة (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ..

الآية ترمز صورته حسية للظلام النفسي والكدر الذي تغشى وجهه المكروب المأخوذ المرعوب . كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه .. وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبة ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم .

هناك الخسران الذي مابعده خسران ، خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم وخسران (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المين . لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقوا) ..

وهو مشهد رعب حقا . مشهد النار في هيئة ظل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار ! إنه مشهد رعب . يعرض الله لعباده . وهم بعد في الأرض يملكون أن ينشأوا بأنفسهم عز وريشه ، ويخوفهم مغيبه لعلهم يجتنبوه .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيبا لهم نارا مسعرة متوقدة ، فهي معدة جاهزة حاضرة .. (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيل . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) .. إنها نار معدة جاهزة . باقين فيها عهدا طويلا ، لا يعلم مداه إلا الله ، ولا نهاية له إلا في علم الله ، حيث يشاء الله . وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير . . يوم تقلب وجوههم في النار . والنار تغشاهم من كل جهة ، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال . يقولون : ياليتنا .. وهي أمنية ضائعة ، لا موضع لها ، ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنما هي الحسرة على ما كان

إنها البغثة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتحرمهم مهلة الأنظار والتأجيل ،
(لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم
ينصرون . بل تأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) .

ها هي النار حميت واحمرت . وها هي ذي معدة مهيأة . فليبدأ العذاب الأليم ..
(والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم
يجمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم
فذكروا ما كنتم تكنزون) .

ها هي ذي الحماة تكوى .. لقد انتهت عملية الكي في الجباه ، فليداروا على
الجنوب . ها هي ذي الجنوب تكوى .. لقد انتهت هذه فليداروا على الظهر ..
ها هي ذي الظهر تكوى .. ثم يتبع ذلك التزديل والتأنيب . هو بذاته الذي كنزقوه
للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .. ذوقوا كنوزكم .. إنه هو الذي
تذوقون منه مسّة للجنوب والظهر والجباه ! ألا إنه لمشهد مفزع مروع . هذه هي
هيئتهم في النار .. (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) فلهم من نار جهنم من
تحتهم فراش ، يدعوه - للسخرية- مهاداً ، وما هو مهّد ولا لين ولا مريح . ولهم من نار
جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

إنها الاهانة والتحقير في العذاب . لا مجرد العذاب .. (إذ الأغلال في أعناقهم
والسلاسل يسحبون) .

بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ ولقد خلعوا من
أنفسهم شارة التكريم . وبعد السحب والجر في هذا العذاب ، وفي هذه المهانة ينتهي
بهم المطاف الى ماء حار والى نار .. (في الحميم ثم في النار يسجرون) .. أي يربطون
ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أي يملأ لهم المسكات ماء حاراً وناراً موقدة .
والى هذا ينتهون . وبيناهم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والتزديل

والاحراج والاعنات (ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) ..
فيجيئون لإجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير .. وقالوا :
ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) .. لقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل .
ويوجه إليهم التأييب : (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم
تفرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ..

يا مغيث ! وأين كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟
يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود .

إن أغلال العقل والقلب جزاؤها الأغلال في الأعناق يوم القيامة (وإن تعجب
فعجب قولهم إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك
الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل
مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة
يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر
والشعور والاحساس .

لذلك أعدَّ الله للكافرين جهنم بأغلالها وسلاسلها .. (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلًا
وأغلالاً وسعيراً) .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تتسعر يلقي فيها بالمسلسلين المغلولين .
وقد زاد الله عذاب الكافرين بزيادة حجم أسبسامهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ما بين منكبي الكافر مسيرة
ثلاثة أيام للراكب المسرع^(١)) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار كما بين قديد ومكة ، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار ^(١)) ^(٢) .

وفي رواية للترمذي قال : (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة ^(٣)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى .. (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من نور يتلأل ، فينطلق الى أم حابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، حتى يأتيهم ؛ فيقول لهم : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، قال : وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً في صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار ، فيراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا ^(٤)) .

عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ، والله ما تدري ! إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري فيه أودية القيع والدم ، قلت أنهار ؟ قال : بل أودية ^(٥)) .

ومن ظلال هذه المشاهد تنطلق صيحة من صيحات الانذار ، وهزة للنساءين السادرين في الخمار (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً

(١) الجبار : ملك اليمين له ذراع معروف المقدار كذا قال ابن حبان وغيره .

(٢) رواه أحمد واللفظ له ، ومسلم ولفظه : قال : « ضرس الكافر - أو ثاب الكافر - مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » .

(٣) وقال في هذه : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٥) رواه أحمد بإسناد صحيح والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .
إن الفرصة ما تزال ساحة . فمن شاء اتخذ الى ربه ما بآ قبل أن تكون جهنم
مرصداً وما بآ .. وهذا الانذار الذي يوقظ من الخمار : (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) ..
ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب .
وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر
المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .. وما يقوله إلا هو ضائق
مكروب . وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الانساني أن
ينعدم . ويصير الى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف
الرعب الشديد .

من هناك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور يعطي الرسول ﷺ
هذه المشاهدة لعل الانسان يراجع نفسه ويتخذ إلى ربه ما بآ :
عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (وهم فيها كالحوت) قال :
(نشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى
تضرب سرته)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يرسل البكاء على
أهل النار فيكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة
الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت) رواه ابن ماجه وابو يعلى ، ولفظه قال :
سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فبأكوا ، فإن
أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع
فيسيل — يعني الدم — فيقح العين (٢)) .

(١) رواه أحمد والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٢) وفي اسنادهما يزيد الرفاعي ، وبنية رواية ابن ماجه ثقات احتج بهم البخاري ومسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفة ، فلم تدع لهما على عظم إلا ألقتة على العرقوب^(١)) .
وعن النبي ﷺ قال : (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضره مثل أحد^(٢)) .

قال الحافظ عبد العظيم : وقد ورد أن من هذه الأمة من يعظم في النار كي يعظم فيها الكفار ؛ فروى ابن ماجه ، والحاكم وغيرهما ، من حديث عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبي بردة ذات ليلة ، فدخل علينا الحارث بن أقيش رضي الله عنه ، فحدثنا الحارث ليلئذ أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر ، وإن من أمتي من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها^(٣)) .

هـ — طعام أهل النار

لقد كان الانذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الانذار بيوم الجمع « وتندريوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .
يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد (فريق في الجنة وفريق في السعير) بحسب عملهم في دار العمل في هذه الأرض . في فترة هذه الحياة الدنيا . حيث يُلقى أهل النار في النار .. يلقي أهل جهنم في جهنم ليندوقوا العذاب .. (إن عذاب جهنم كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً)

(١) رواه الطبراني في الاوسط ، والبيهقي مرفوعاً ، ورواه غيرهما موقوفاً عليه ، وهو أصح .

(٢) رواه احمد والطبراني في الكبير والاضبط ، واسناده قريب من الحسن .

(٣) اللفظ لابن ماجه ، واسناده جيد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يوم تنتج جهنم فاهها ، ثم أن تلتهم ، باسطة أيديها ثم أن تقبض على القريب والبعيد .
إن عذابها ملازماً لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقله . فهذا ما يجعله مروعاً مخيفاً
شنيعاً .. وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الإنسان ويقيم . وابن الاستقرار وهي
النار ؟ وابن المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار ! (هل أذاك حديث الغاشية وجوه
يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) تذوقها وتعانيها .. وتسقى من عين آنية .
حارة بالغة الحرارة . وطعامهم شجر من نار جهنم (تسقى من عين آنية ليس لهم طعام
إلا من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع)

فهذا لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان لا تسمن
ولا تغني من جوع . وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في
الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف للتمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصويره من الألم
الذي يتجمع من الذل والوهن والحياة ومن لسع النار الحامية ، ومن البرد والارتواء
بالما ، الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك
لا نفع فيه ولا ينماء .

من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب
الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعاياذ بالله ! . فكيف بمن
طعامهم الضريع والزقوم التي يتكرر ذكرها في القرآن .. (أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرة
الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها مكانه
رؤوس الشياطين . فإنهم لا كلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا
من حميم . ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم) .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ؟ ولكنها مفرعة ولا شك .
ومجرد تصورهما يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كان طلعها يأكلونه . ويملاؤون
منه البطون .

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا :
كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق . فإذا شأكت حلوقهم وهي كروؤس
الشياطين - وحرقوا بطونهم - وهي في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم !
وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللمب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخنًا
مشوبًا غير خالص ، وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم .
وباله من نزل ! وباله من معاد .. (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)

فالجوع طاع والحنة غالبة وليس لهم إلا شجرة الزقوم (ثم إنكم أيها الضالون
المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالثون منها البطون) ..

ولا يدري أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به من أنطلعها كروؤس
الشياطين . وروؤس الشياطين لم يرها أحد ، ولكنها تلقي في الحسّ ما تلقيه ! على أن لفظ
الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمسًا خشنًا ، شائكًا مدببًا يشوك الأكف يبله الحلق ، ومع
أن الزقوم كروؤس الشياطين فإنهم لا تكون منها فمالثون منها البطون .

إنها نار الله تتلظى وتتحرق (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) .. تنزع الجلود عن
الوجوه والروؤس نزاعًا . وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب
عن إرادة وقصد (تدعوا من أدبر وتولى) تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر
ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى . ولقد كان من قبل
مشغولًا عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك
أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها .

إنها مشاهد عنيفة لتلمس في حسنا الألم لنخاف ونستقيم .. (إن شجرة الزقوم
طعام الأثيم كاللبل يغلي في البطون كغلي اللحم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم
صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . مُدِّقُ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إن هذا ما كنتم
بِهِ تَقْتَرُونَ) ..

إنه مشهد مفرع موعب مخيف .. إن هذا الطعام مثل دردري الزيت المغلي - وهو المهل - ينزل في البطون كغلي اللحم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يليق بمقامه الكريم .. خذوه أخذاً، واعتلوه عتلاً ، وشدوه في إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هودة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك اللحم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل ، والكي والشوي .. التأنيب والترذيل .. وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزّة ولا كرامة . إنه الأخذ والعتل والصب والكي والتأنيب والحزي .

إنه العذاب الأليم الأليم . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .. فقال رسول الله ﷺ (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه^(١))

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين .. لقد أعد لهم ما لم يتصوروه .. (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً) ، تخلص بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين ، والمكذبون بشر من البشر ، والذي يهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض ب .. (كن) ولا تريد .

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة منها يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من الخالقي ، ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار إلهي قليل أياً كان

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال « فكيف بمن ليس له طعام غيره » ورواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وروى موقوفاً على ابن عباس .

الأمَد ، ولو مضوا من هذه الحياة .. ثم إلى عذاب الله .. (إن لدينا أنكلاً وجحياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً) .

والأنكال - هي القيود - والحميم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلق والعذاب الأليم ، كلها جزاء مناسب ، إن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحياً تجمعهم وتصليهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم نحيف .
عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله تعالى (طعاماً ذا غصة) قال : (شك يأخذ بالخلق لا يدخل ولا يخرج^(١)) .

إنها صور حسية عيفة من العذاب تتناسب مع الناس الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) ، فالجو متاع غليظ وأكل غليظ ، والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء التي كانت تحشى وتلتهم الأكل كالأنعام : (وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم) .

٦ - شراب أهل النار

إن الذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ولا تحس بحكمة الخلق والاعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا . وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً ، والقيامة تقترب : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بأذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) .

يرتسم أمامنا مشهد التجمع يشمل الخلق جميعاً . على غير إرادة منهم ، إنما هو

(١) رواه الحاكم موقوفاً ، وقال صحيح الإسناد .

سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، والصمت الهائل يغشى الجميع ، والرعبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فمنهم شقي في النار مكروبي الأنفاس لهم فيها زفير وشهيق من الحرق والكتمة والضيق .

لهم لا يخشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء .. (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبورا كثيراً) .

إنه مشهد يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخاملة ، ماذا ينتظرهم ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، إنه مشهد السعير المتسعة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هي تنظر فتري أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهي تتحرق عليهم ، وتصدر الزفرات غيظاً منهم ، وهي تتميز من النعمة ، وهم إليها في الطريق .

مشهد رعب يزلزل الأقدام والقلوب ! ثم هاهم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقيوا إليها إلقاء . ألقيوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل . وألقيوا في مكان منها ضيق ، يزيدهم كرباً وضيقاً ، ويعجزهم عن التفلت والتأمل ، ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون في السعير . فراحوا يدعون إلى الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء . فالهلاك اليوم أمنية المتمني ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب ، وكيف وشرابهم يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء : (وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم) .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون

إليها إذا هي معدة لهم ، مهياة لاستقبالهم (إن جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً لابثنين فيها أعقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاً) .

فهم يتسربون الماء الساخن يشوي الخلق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل فهذا هو الشراب . وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا ، انهم كانوا لا يرجون حساباً ولا يتوقعون مآباً ، فآبهم يوم القيامة هو جهنم (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً) .

أعدناها وأحضرناها ، فهي لا تحتاج الى جهد لإبقائها ، ولا تستغرق زمناً لإعدادها . وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل في النجاة والافلات . ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح . فإن استغاثوا من الحريق والظما أغثوا بماء كدر دري الزيت المنقي في قتل ، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها . فكيف بالخلق والبطون التي تتجرعه . عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله كالمهل قال : كعكر الزيت ، فإذا قرَّب الى وجهه سقطت فروة وجهه فيه ^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم ، حتى يخلص الى جوفه فيسل ما في جوفه حتى يمرق من قدميه . وهو الصهر ثم يعاد كما كان ^(٢)) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : يُقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة

(١) رواه احمد والترمذي . قال الحافظ : قد رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال

صحيح الاسناد ..

(٢) رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

رأسه ، فاذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من ذبوره ، قال الله عز وجل : (وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم) ويقول (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب ^(١)) .

لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوي الحلق والبطون ، وعذاب أليم بسبب كفرهم : (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) . وإن الشوك الحشن الذي يأكلونه في جهنم ليدفع الى الماء لتسليك الحلق وري البطون ! فطعامهم ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ . (فشاربون شرب الحميم) وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء .

إنه الشراب ، ليس شراب ارتواء إنما شراب للحريق والعذاب (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه . ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) . . (فليذوقوه حميم وغساق) .

مشهد عجيب .. إنه مشهد الحية لكل جبار عنيد . مشهد الحية في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، من ورائه تخاليل جهنم وصورته فيها ، وهويسقى من الحديد السائل من الجسوم . يسقاء بعنف فتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقدارته ومرارته ، والتقزز والتكره بأديان تكاد نلحمها من خلال الكلمات !

(١) دواء أحمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن دَلّوا من غساق. ^(١))
يهرق في الدنيا لأنّ أهل الدنيا ^(٢)) .

ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل
عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . . (هذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة
والاستقرار . ولكن نزلهم هذا لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا
يَشْكُون فيه ويتساءلون عنه . إنه مشهد عجيب للجبار الخائب المهزوم ووراءه
مصيره يخال له على هذا النحو المروع الفظيع .

وإن الله سبحانه يدعو الناس للاستجابة لمنهجه قبل أن يفجأهم هذا المصير
(استجيبوا للربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ
وما لكم من نكير) .

استجيبوا للربكم قبل أن يفجأكم المصير فلا تجدوا ملجأ يقيكم ، ولا نصير ينكر
مصيركم الأليم . هناك يفيق الانسان كما يفيق الخمور ، ويفتح عينيه بعد العشي
والكلال . فما نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبيل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء
(وفادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفوضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

(١) هو المذكور في القرآن (فليدوقوه حميم وغساق) (لا يدوقون فيها برداً ولا شراباً ، الا
حميماً وغساقاً) وقد اختلف في معناه ، ف قيل : هو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه ، قاله ابن
عباس ، وقيل هو صديد أهل النار ، قاله ابراهيم وقتاده ، وعطية وعكرمة ، وقال كعب : هو عين
في جهنم تسيل اليها حمة كل ذات حمة من حية او عقرب او غير ذلك فيستنقع فيؤتى بالادمي فيغمس
فيها غمسة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه
وكعبيه ، فيجر لحمه كما - يجز الرجل ثوبه ، وقال عبد الله بن عمرو : الفصح الغليظ ،
لو ان قطرة منه تهراق في المغرب لانتنت أهل المشرق ، ولو تهراق في المشرق لانتنت أهل المغرب .

(٢) رواه الترمذي « قال الحافظ » : رواه الحاكم وغيره من طريق ابن وهب عن عمرو بن
الحارث به ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

قالوا : إن الله حرمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) .

هكذا يجيب أهل الجنة جواباً ملؤه التذكير الألم المرير ، ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطلق رب العزة والجلالة ، وصاحب الحكم : (فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يمحذون) .

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

يقول الامام المحاسبي (.. فتوهم كبذك والنار تداخل فيها ، وأنت تنادي فلا ترحم ، وتبكي وتعطى الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك وألح العذاب ، فبلغت ، غاية الكرب ، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا ففزعت إلى الجحيم ، فتناولت الاناء من يد الخازن الموكل بعذابك ، فلما أخذته نشئت كفك من تحته ، وتفسخت لحرارته ، وهيج حريقه ، ثم قربته إلى فيك فشوى وجهك ، ثم تجرعتة فسلخ حلقك ، ثم وصل إلى جوفك فقطع أمعاءك ، فناديت بالويل والشبور ، وذكرته شراب الدنيا ويرده ولذته ، ثم أقلت الحريق ، فبادرت إلى حياط الجحيم لتبرد بها ، كما تعودت في الدنيا الاغتسال والانغماس في الماء إذا اشتد عليك الحر فلما اغتمست في الجحيم تسليخ من قونك إلى قدمك ، فبادرت إلى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك ، ثم اشتد عليك حريق النار فرجعت إلى الجحيم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن ، وهو الذي قد انتهى حرقه وتطلب الروح فلا روح بين الجحيم وبين النار ، تطلب الروح فلا روح أبداً . فلما اشتد بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل ، وحزناً على نعيم الجنة ، ثم ذكرت شرابها وبرد

مائماً وطيب عيشها ، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك ، ثم ذكرت أن فيها بعض القرابة من أب أو أم أو أخ ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق فلق : يا أماء أو يا أبناء أو يا أخاء أو يا خاله أو يا عماء أو يا أختي ، شربة ماء ، فأجابوك بالحبة فتقطع قلبك حسرة بما خبيوا من أملك ، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل ، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبى أن يردك إلى الدنيا ، فمكث عنك دهرأ طويلاً لا يجيبك هواناً بك وإن صوتك عنده بمقوت ، وجاهك عنده ساقط ، ثم ناداك بالحبة منه أن (اخسثوا فيها ولا تكلمون) ، فلما سمعت نداءه ضاقت نفسك في صدرك وبقيت قلقاً تزفر لا تطيق الكلام ولا يخرج منك نفس ، ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها . فما ظنك إن لم يعف عنك ، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق ؟

فيا إياسك وإياس سكان جهنم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل إذا أطبقها لئلا يخرج منها أحداً أبداً ، فتقطع قاربهم إياساً وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبداً ولا يخرج منها ولا يحيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً خلوداً فلا موت ، وعذاب لازوال له عن أبدانهم ، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً ، أحزان لا تنقضي ، وغموم لا تنفد ، وسقم لا يبرأ ، وقيود لا تحل ، وأغلال لا تفك أبداً ، وعطش لا يروئن بعده أبداً ، وكرب لا يهدأ أبداً ، وجرع لا يشبعون بعده أبداً إلا بالزقوم ينشب في حلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم ، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد في صدورهم ، لا يرحم بكأؤهم ، ولا يحجب دعاؤهم ، ولا يغاثون عن تضرعهم ، ولا تقبل توبتهم ، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع ، فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك . فلو رأيت المعتذرين في خلقهم وقد أكلت النار لحومهم ومحت محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم ، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقتوا واضطربوا في قيودهم

وأغلاهم وهم ينادون بالويل والنبور ، ويصطرخون بالبكاء والعيول ، إذا لذاب قلبك
 فزعاً من سوء خلقهم وتضعفت من رائحة نتنهم ولما بقي روحك في بدنك من شدة وهج
 أبدانهم وحرارة أنفاسهم . فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أحدهم ، وقد
 زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والإياس وعطفت على بدنك فتقحمت على
 الحدقتين فسمعت تفضيضا انتقاماً وبدلاً من نظرك الى ما لا يحب ولا
 يرضى ، ودخلت النار في مسامعك فتسمع لها فيه قصيفاً وجلبة ، والتحفّت عليك
 فنفضت منك العظام ودوبت اللحم ، واطلعت الى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء
 فغلبت على قلبك الحسرة والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منك رحمة لضعفك ، وارجع عما يكره
 مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك وأعذ به بعقلك واستقله يقلك عثراتك ، وابك من
 خشيته عسى أن يرحمك ويقل عثراتك ، فان الخطر عظيم وان البدن ضعيف والموت
 منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك ، وناظر لا يخفى عليه منك سر ولا
 علانية ، فاحذر نظره بالملت والبغضة والغضب والقلاء ، وأنت لاتشعر فرحاً أو قرير
 العين ، فاحذر الله عز وجل وخفه واستحي منه وأجله ، ولا تستخف بنظره ولا تتهاون
 باطلاعه ، وأجل مقامه عليك وعلمه بك وافرقة واخشه قبل أن يأخذك بغتة ، ولير
 أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ منك خلافة ، فيعظم حزنك ويشد غمك بمخالفته ،
 فان علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك ، فلا تتعرض لله عز وجل فانه لا طاقة لك بغضبه
 ولا قوة لعذابه ، ولا صبر لك على عقابه ، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك
 قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة الموت فكأنه قد نزل فتوهم ما وصفت
 لك فإنما وصفت بعض الجمل ، فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك
 وما استوجبت بجنايتك ، وفكر في مصيبتك في دينك ، ولير الله عز وجل عليك أثر
 المصيبة لعله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته^(١))

(١) التوهم ص ٢٥ .

٧ - اغواء .. وتبرؤ .. وعذاب

إنه لا إمهال ولا فكاك ، يوم عصيب تشخص فيه الأبصار من الفزع والملمع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .. (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) . إنهم في زحمة الهول ، مسرعين لا يلبون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء رافعين رؤوسهم لاعن ارادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب . فلا يطوف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء .

إن الله يؤخر الناس حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب المذهل . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأندركم الناس أنه إذا جاء فلا فكاك يومئذ ولا اعتذار (وأندركم الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخترنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ! أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) .

هناك الكل مكشوفون لا يستترهم ساتر ، ولا يقهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنما هم في العراء أمام الواحد القهار : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) ثم ترى الجرمين (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) .

مشهد الجرمين : اثنين اثنين مقرونين في الوثاق ، يرون صفاء وراء صف . مشهد مذل . ويضاف إلى قرينهم في الوثاق أن سرايلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب . وهي في ذات الوقت قدرة سوداء . ففيها الذل والتحقير وفيها الإيحاء بشدة

الاشتعال بمجرد قربهم من النار . وتغشى وجوههم النار . مشهد العذاب المذل المتلظى المشعل جزاء المكر والاستكبار (ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب) أولئك لم يمدّوا بأبصارهم الى يوم يقفون بين يدي الله الواحد ! لو تطلّعوا ببصائرهم الى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين ! (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرا الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) . لو يرون إذ تبرا المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب ، وانشغل كل بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً . وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية نفسها فضلاً على وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب . وتبدى الحق والغيط من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة . وقنوا لو يردون لهم الجمل ! لو يعودون الى الأرض فيتبرؤوا من تبصيرهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها ، التي خدعتهم ثم تبرات منهم أمام العذاب !

لأنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين . وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

إلى النار ، انضموا الى زملائكم وأوليائكم من الجن والانس (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا داركوا فيها جميعاً . قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما

كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، هنا في النار ، أليس ابليس هو الذي عصى ربه ؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟ . فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء ! .

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاة بحيث يتبع آخرها أولها ، ويأتي متبوعها بتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بيننا ، وكيف يكون التنازع فيها (كلما دخلت أمة لعنت أختها) ، فما أباسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه .

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيمهم بدانيم ، بدأ الخصام والجدال ، وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم . ويكشف المشهد عن الأصفاء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من (ربنا) شر الجزاء . فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ! لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب ، إنه مشهد ساخر أليم .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجّ الجمل في في سم الحياط وكذلك نجزي المجرمين) .

مشهد الجمل تجاه ثقب الابرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمروء الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلجّ الجمل في سم الحياط ، فهم هنا في النار ، انتي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ، وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، ودالب بعضهم لبعض سوء الجزاء .

هناك وقد برزوا لله جميعاً . الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين

(وبرزوا لله جميعاً) ، برزوا جميعاً مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسّون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يستوهم ساتر ، ولا يقيم واق .

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم (إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) ، وقد اتبعناكم فأنهينا إلى هذا المصير الأليم .

لقد حقق العذاب ، ولا رادّ له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان فيه العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ، وكانت الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ولم يعد هناك مفر ولا محيص . . (قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) . . لقد قضي الأمر وانتهى الجدل ، فالنار هي الرشد والعطاء فهي وردهم ، وبأبشاه من ورد (بنس المورد المورد) ، ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب ، أولئك المبعودون المطرودون لهم اللعنة (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم .

٨ — حسرة وألم

لأنها حلقات عذاب رهبة لاهثة مكروبة ، فإذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ووعباً وهكذا .
فها هي الجحيم وقد سُعرت ، (وإذا الجحيم سُعرت) ، حيث تتوقد الجحيم وتتسع ، ويزاد لهبها ووهجها وحرارتها ، فعندما تقع أحداث القيامة الهائلة ، في كيان الكون . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب ، (علمت نفس ما أحضرت) .

كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل مامعها ومالها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها ، تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً بما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه ، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء . وتبدل كل شيء . ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل ، فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده سبحانه ، عندما يتحول الكون كله ويتبدل ! فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله في ذلك اليوم العظيم ، (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التكبير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الانس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم ، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي والإسماعهم ما يكرهون وتبشيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم .

وأنذرهم يوم الحسرة، يوم تشتد الحسرات حتى لكان اليوم بمحض الحسرة لاشيء فيه سواها، فهي الغالبة على جوه، البارزة فيه . أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات . أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه . أنذرهم العذاب الدائم، أنذرهم عذاب الخلود . (إن الجرمين في عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبسلون) . وهو عذاب دائم، وفي درجة شديدة عصبية، لا يفتر لحظة، ولا يبرد هنية . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم ياتسون قانطون . ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق (ونادوا يا مالک ليقضي علينا ربك) . إنها صيحة

متناوذة من بُعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، لمنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح . وحسب المنايا أن يكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقي ظلًا كثيفًا للكرب والضيق ، وأنا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها حدّ الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ، (يا مالك ليقضي علينا ربك) . والجواب يجيء في تيسر وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام . (قال : إنكم ما كنون) . فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ، انكم ما كنون ، (إنه من يأت ربه مجرمًا فان لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حي فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي الى موت ولا ينتهي الى حياة . فهم مترون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) . (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) .

نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار ، فلا هذه ولا تلك . حتى الرحمة بالموت لاتال ، ونسمع صوت غليظ محسرج مختلط الاصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) ، ولنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) . إنه الانابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان .

فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التائب القاسي (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .

إنه العذاب الشديد ، فلا مراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغييره أو تعديل . وقد قضى الأمر (إن الله قد حكم بين العباد) ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً

من حكم الله . رحين يدرك هؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، إتجد هؤلاء خزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة . لإنهم يستغيثون حراس جهنم ، ليدعوا وبهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء (ادعوا ربكم فيخفف عنا يوماً من العذاب) .

.. يوماً .. يوماً فقط يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون فيوم واحد يستحق الشفاعة والشفعة والدعاء ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب .

وعندئذ نفخ الخزنة أيديهم منهم وأسأموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار ، (قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ! فادعوا) . إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً . فتولوا أنتم الدعاء . (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء .

لقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكدبوا بيوم الدين . وانهم لعلی مشهد من الجحيم يقفون ، حيث يسمعون التقريع والتأنيب . (وبزرت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبا فيها هم والغاوون ، وجنرد ابليس أجمعون . قالوا : وهم فيها يختصمون : قاله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

لإنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله . ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب ، فكبكبا ، واننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام . وصوت الكركبة الناشئة من الكبكية ، كما ينهار الجرف فتبعه الجروف . ولإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوين . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات

وأنه لا جدوى من توزيع التبعات . فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها . وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين ، فلا نسمع إلا الويل (ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) .

يقولون ياويلنا ، وهو تفجع المفعجوه الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . ويقذفون في جهنم قذفاً بلا رفق ولا أناة، وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة . هذه مشاهد مؤلمة ، كلها ملؤها الحسرة والأسى ، فبعد ان اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ، واستيقن أصحاب النار من مصيرهم ، وإذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ! فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) ، وفي هذا السؤال من السخرية المثرة ما فيه . هؤلاء الذين يريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون، انهم يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ما عداها فهو أعوج . وهو ارادة للعوج . وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة فما يؤمن بالآخرة أحد ، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ، ثم يصد عن سبيل الله ، ويحيد عن منهجه وشرعه .

إن الله سبحانه قد أحصى كل شيء احصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف (وكل شيء أحصيناه كتاباً) ، فلا رجاء في تغيير أو تخفيف انما هي زيادة العذاب (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) .

إن هذه الذكري سينتفع بها من يخشى ويخاف الله (سيدكر من يخشى) ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى ،

منذ يعلم أن للوجود إلهاً خلق فسوّى وقدرّ فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملاً ، وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى فإذا ذكر ذكر ، وإذا بصر أبصر ، وإذا وعظّ اعتبر . وكل من يتجنب هذه الذكرى هو الأشقى (ويتجنبها الأشقى) يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو اذن (الأشقى) .. الأشقى اطلاقاً واجمالاً . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهىها . الأشقى في الدنيا بروحه الحاسوبية الميتة الكثيفة الضعيفة ، التي لا تحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكالباً على ما في الأرض كادحاً لهذا الشأ الصغير ! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى (الذي يصلى النار الكبرى) ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ، ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذي يتطلع صاحبه الى الموت كما يتطلع الى الأمانة الكبرى .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار . جيء بالموت ، حتى يجعل بين الجنة والنار ، فيُدبج ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وأهل النار حزنًا الى حزنهم) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (يُدخلُ الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذنٌ بينهم ، فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌّ خالد فيها هو فيه (١)) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح^(١) ، فينادي منادٍ ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون^(٢) ، وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي منادٍ ، يا أهل النار : فيشرئبون وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده الى الدنيا^(٣) .

وتنطوي هذه الحباة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون ، تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تأففة ، أفن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة وماوى ! ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها انسان . يسمع ويرى !



(١) كبش أملح (الاملح : المختلط البياض والسراد .

(٢) فيشرئبون (اشرب الى الشيء : اذا تطلع ينظر اليه .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

البَّائِغُ السَّعِيدُ

نعيم الجنة

١ - صفة الجنة

يقول الله سبحانه : (يا أيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرَضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) .

في روحانية وتكريم ، وفي ثناء وتطمين ، ارجعي الى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعي الى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة .. راضية مرضية ، بهذه الندادة التي تفيض بالتعاطف والرضى فادخلي في عبادي المقربين المختارين لينالوا هذه القربى وادخلي جنتي في كنفي ورحمتي، لأنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة .. إلى هذه النفس المطمئنة . المطمئنة إلى ربها ، المطمئنة الى طريقها ، المطمئنة إلى قدر الله بها ، المطمئنة فلا ترتاب ، والمطمئنة فلا تنحرف ، والمطمئنة فلا تتلحج في الطريق ، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعب .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية تتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية . وقد فصل الله متاع الجنة التي أعدت للمؤمنين ، ووراءها متاع يعرفونها هناك يوم يتهاون لإدراكها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل :
« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،
واقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين^(١)) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه
الجنة حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا
خطر على قلب بشر » ثم قرأ هاتين الآيتين : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون
ربهم خوفاً وطمعاً وبما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء^(٢)
بما كانوا يعملون^(٣)) .

وعن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنهم عن
النبي ﷺ قال : « لو أن مائتة ظفر^(٤) بما في الجنة بدا لتزخرف له ما بين خوافي
السموات والأرض ، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء
الشمس ، كما تطمس الشمس ضوء النجوم^(٥) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقاب^(٦) قوس في الجنة
خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب^(٧) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قيد سوط أحدكم في
في الجنة خير من الدنيا ومثلها معها ، ولقاب^(٨) قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا
ومثلها معها ، ولنصف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها » قلت : يا أبا هريرة

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا ، والترمذي وقال : حديث حسن غريب .

ما النصيف ؟ قال : الحمار^(١) . .

وفي رواية الطبراني في الأوسط مختصراً بإسناد رواه رواة الصحيح ، ولفظه :
قال رسول الله ﷺ « لموضع سوط في الجنة خير مما بين السماء والأرض » .
وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أن موسى عليه السلام
سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ،
فيقال له : ادخل الجنة فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟
فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ،
فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت رب ، فيقول :
هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب .
قال : رب فأعلاهم منزلة ، قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ،
وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم
القيامة ؟ قال : « وهل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » ؟ قالوا : لا
يا رسول الله ، قال : « هل تمارون في الشمس ليس دونه سحاب » قالوا : لا ، قال :
« فانكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ،
فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى
هذه الأمة فيها منافقوها فيأتهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى
يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت
ربنا ، فيدعوهم ، ويضرب الصراط بين ظهرا في جهنم ، فأكون أول من يجوز من
الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم

(١) رواه احمد بإسناد جيد ، ورواه البخاري بلفظ آخر .

(٢) أخرجه مسلم .

وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فانها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظيمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبقى (يهلك) بعمله ، ومنهم من يخردل ، ثم ينجو ، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم بآثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا^(١) ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل^٢ بوجهه قبل النار ، فيقول : يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبنى^(٣) ريحها ، وأحرقني ذكاه^(٤) فيقول : هل عسيت^١ إن أفعل أنت تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فاذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكنت ما شاء الله أن يسكت ، ثم قال : يارب قدّمتني عند باب الجنة ، فيقول الله : أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لاتسأل غير الذي كنت سألت ؟ فيقول : يارب لا أكون أسقى خلقتك . فيقول : فما عسيت^٢ إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غير هذا ، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه الى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فسكت ما شاء الله أن يسكت ، فيقول : يارب أدخلني الجنة ، فيقول الله : ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ! أليس قد أعطيتني العهود أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول : يارب لا تجعلني أسقى خلقتك ، فيضحك الله منه ، ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمن^٣ ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته ، قال الله : تمن^٤ من كذا وكذا ، يُذكره ربه ، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله لك ذلك ومثله معه^(٤) .

(١) امتحش : احترق .

(٢) قشبنى ريحها : أي آذاني .

(٣) ذكاه : اشعلها ولهبا .

(٤) و : البخاري .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة رجلٌ صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثّل له شجرة ذات ظل ، فقال : أي ربّ قربني من هذه الشجرة أسكن في ظلها » فذكر الحديث في دخوله الجنة وتمنيه . إلى أن قال في آخره « إذا انقطعت به الأمانى قال الله : هو لك وعشرة أمثاله . قال : ثم يدخل بيته فتدخل عليه زوجته من الحور العين . فيقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك . قال : فيقول : ما أعطي أحد مثل ما أعطيت (١) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة ، من يقول له : تَمَنَّيْ فَيَتَمَنَّى ، وَيَتَمَنَّى ، فيقول له : هل تَمَنَيْتَ ؟ فيقول : نعم فيقول له : فان لك ما تَمَنَيْتَ ومثله معه (٢) » .

إنها الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين ، جنة وحريرا ، جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه . (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، ودُلِّلَت قُطُوفُهَا تَذِيلًا) .

فهم في جلسة مريحة مطمئنة . والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حرٍّ ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها . وكفى !

وهناك الظلال الدانية . وإذا دنت الظلال ودنت القُطُوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يبتد إليه الخيال . (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) . فهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال .

إنها صورة الجزاء الرفيع الخالص الفريد . الجزاء الذي تتجلى فيه ظلال الرعاية

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

الخاصة ، والاعزاز الذاتي ، والاكرام الالهي والحفاوة الربانية بهذه النفوس (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . تعبير عجيب يشي بحفاوة الله سبحانه وتوليّه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة بما تُقر به العيون . هذا المذخور الذي لا يطلع عليه أحد سواه . والذي يظل عنده خاصة مستوراً حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقيه ! رانها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله .

يا الله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضلّه ! ومن هم حتى يتولى الله جلّ جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، في عناية ورعاية وودّ واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان ؟ فضل الله الكريم حتى يفتح أبواب رحمته الواسعة ، أبواب الجنان :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ليدخلن الجنة من أمي سبعون ألفاً - أو سبعائة ألف - متماسكون آخذٌ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخوهم ، وجوهم على صورة القمر ليلة البدر ^(١)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكبأ بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة ^(٢)) . عن خالد بن عُمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فإن الدنيا قد آذنت بصرم ^(٣) ، وولت حذاء ^(٤) ، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الاناء لصطبها صاحبها ، وانكم منتقلون منها الى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما يحضرنكم ، ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينها

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) قطيعة .

(٣) حذاء : مسرعة .

مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم كظيظ من الزحام ^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتخيطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ^(٢) ، أزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء ^(٣)) .

وفي رواية قال رسول الله ﷺ (أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر . لا يبصقون فيها ، ولا يتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يدخل أهل الجنة الجنة جرداً ^(٤) ، مُرداً ^(٥) ، مكحلين ^(٦) ، بني ثلاث وثلاثين ^(٧)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ (أهل الجنة جرد ، مُرد ، كحلي ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم ^(٨)) .

(١) رواه مسلم هكذا موقوفا .

(٢) الألوة : من أسماء العود الذي يتبخر به .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) الجرد : جمع أجرد وهو من لا شعر على جسده .

(٥) الرد : جمع امرء : وهو من لا شعر في وجهه .

(٦) الكحل : جمع أكحل : وهو الذي اسودت عينه كأنما فيها الكحل .

(٧) رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وهو حديث حسن بشواهده .

(٨) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن بشواهده .

وعن المقدم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مامن أحد يموت سيقطاً ولا هوماً وإنما الناس فيما بين ذلك ، إلا بُعثَ ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فإن كان من أهل الجنة كان على مسحة آدم ، وصورة يوسف ، وقلب أيوب ، ومن كان من أهل النار عظموا وفخموا كالجبال^(١)) .

درجات الجنة :

قال الله تعالى (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة . وكلاً وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقال تبارك وتعالى : (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) .

وقال سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكوكب الدري الغابر^(٢) في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم) قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : (بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين^(٣)) .

(١) رواه البيهقي بإسناد حسن .

(٢) الغابر : هو الداهب الماضي الذي قد تدلى للغروب ، وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للراس وهو أعلا فائدتان : أحدهما بعده من العيون ، والثانية : أن الجنة درجات ، بعضها أعلا من بعض .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ (إن في الجنة مائة درجة رُلو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن وسعتهم)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض^(١)) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، منها تُفجّر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألت الله فأسأله الفردوس^(٢))

وأما أعلا درجة في الجنة فهي الوسيلة وهي درجة النبي ﷺ ، وُسِّيت الوسيلة لأنها أقرب الدرجات الى عرش الرحمن . وهي أقرب الدرجات الى الله . وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب وهي فصيلة من وسَل إليه إذا تقرب إليه .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إذا سمع المؤمن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلّى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً ثم سلّوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه شفاعتي^(٣)) .

وقال أحمد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إذا صليتم فسلّوا الله لي الوسيلة ، قيل : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : أعلا درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من قال حين يسمع النداء : « اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرجه الترمذي وهو حديث صحيح .

(٣) رواه مسلم .

الرفيعة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة (١) .
 « ومعنى الوسيلة من الوصلة ، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نوراً .
 وقد كشف الله سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله (أولئك الذين يدعون
 يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) فقوله (أيهم أقرب) هو تفسير للوسيلة . ولما
 كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به ، وأشدهم له خشية وأعظمهم له
 محبة ، كانت منزلته أقرب المنازل الى الله وهي أعلا درجة في الجنة ، وأمر النبي ﷺ
 أمته أن يسألوه ، لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الايمان (٢) .

٢ — طعام أهل الجنة

يقول الله سبحانه : (إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه ما يشتهون كلوا واشربوا
 هنيئاً بما كنتم تعملون) وقال سبحانه : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا
 كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية
 كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) وقال عز وجل : (وتلك الجنة التي
 أوردتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) وقال تباركت
 أسماؤه : (مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها)
 وقال تعالى : (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) وقال تعالى : (وأصحاب اليمين
 ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة
 كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) كل شيء هنا معد للتناول بلا كد ولا مشقة ، نعيم فيه
 ما تشتهيه النفس وتلذ العين ، فهنا لاشيء ممنوع . ولا شيء على غير ما يشتهي السعداء
 الخالدون (ولحم طير مما يشتهون) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) - لادي الارواح ص ٧٢ .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن طير الجنة كأمثال البُخْت ، ترعى في شجر الجنة) فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه لطيورُ ناعمة ، فقال (أكلتها أنعم منها ، قالها ثلاثاً ، ولمني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها) .

وفي رواية أنترمذي ، وألفظه : قال : سئل النبي ﷺ : ما الكوثر ؟ قال : (ذاك نهر أعطانيه الله — يعني في الجنة — أشدهُ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طير أغناقها كأغناق الجُزُر) . - (الجزر : جمع جزور ، وهو البعير ، والبُخْت هي الأبل الخراسانية) -

قال عمر : ان هذه لناعمة ، فقال رسول الله ﷺ (أكلتها أنعم منها^(١)) وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يا كل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، ولا يبولون ، طعامهم جُشاء كريح المسك ، يلهمون^(٢) التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس^(٣)) .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ترعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : (نعم ، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع) . قال : فان الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، وليس في الجنة أذى ، قال : (تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك ، فيضمر بطنه^(٤))

٣ — شراب أهل الجنة

وبينا أهل النار في النار يشربون ويشربون زيت الدردري أو القيقح . إذ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن للاقامة فنجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . .

(١) رواه أحمد بإسناد جيد والترمذي وقال حديث حسن .

(٢) يعني أن التسبيح والتكبير والتحميد من الأعمال غير الإرادية ، فهم لا يتكلفونها ، لأن الجنة ليست دار تكليف وإنما هي دار ثواب .

(٣) رواه مسلم وأبو داود .

(٤) رواه أحمد والنسائي ورواه محتج بهم في الصحيح .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الكوثر نهر في الجنة : حافته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج ^(١)) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بينا أنا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضرب المَلَكُ بيده ، فاذا طينه مسكٌ أذفر ^(٢)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنهار الجنة تخرج من تحت تلال — أو من تحت جبال المسك ^(٣)) .

وعن معاوية وهو جدّ بهز بن حكيم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر الماء ، ثم تنشق الأنهار بعد ^(٤)) .

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رُفِعَت لي السدرة ، فاذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فأما الظاهران : فالنيل والفرات ، وأما الباطنان : فنهران في الجنة ، وأُتِيتُ بثلاثة أقداح : قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ، فأخذتُ الذي فيه اللبن ، ففيل لي : أصبتَ الفطرة ^(٥)) .

إن أهل الجنة ينعمون بكل معاني النعيم واللذة وإذا شربوا فماذا يشربون : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يُفَجَّرُونَهَا تفجيرا) (ويُسْقَوْنَ فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا) .

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث .

(٢) مسك أذفر : إذا كان طيب الريح ، والحديث رواه البخاري .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٤) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) أخرجه البخاري

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة مزوج بالكافور ، ويشربون في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، في كثرة ووفرة .

وهم في ذلك النعيم يُطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة ، ولكنها شفة القوارير (ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قَدَرُوها تقديرا) .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (جنتان من فضة ، آينتهما وما فيها ، وجنتان من ذهب ، آينتهما وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن^(١)) .

كله مما لم تعده الأرض ، وهذه الآنية بأحجام مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال ، ثم هي تُزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور (ومزاجها زنجبيل) . وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا (عيناً فيها تسمى سلسبيلا) ، لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين . هؤلاء المتقون في ظلال ، وفي عيون من ماء .. (إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون) وهم يلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من المجموع (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) .

وهذا الماء الذي يشربونه هو كالينبوع المتدفق (فيها عين جارية) وهو يجمع إلى الري الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجاري يجاوب الحس بالحوية وبالروح التي تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الحقي ، الذي يتسرب إلى أعماق الحس . إنهم في موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يعضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة ، وهم على الأرائك . وهم في هذا النعيم ناعموا النفوس والأجسام ، تفيض النظرة على وجوههم وملاعهم حتى ليراها كل

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

راء : (تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك)
والرحيق الشراب الخالص المصفى ، الذي لا غش فيه ولا كدرة (ومزاجه من تسنيم
عيناً يشرب بها المقربون) ، فهم في نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم ، نعيم تستمتع
به النفس ويستمتع به الحس . وتجد فيه كل نفس ما تشتهي من ألوان النعيم : (أولئك
لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين .
يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) .
إنهم في أعلى مراتب التكريم . فهم يُجَدَّمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار
الراحة والرضوان والنعيم ، وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني
والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدر بهم
السن ؛ فهم يُخَلَّدون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا كاللؤلؤ المنشور
(ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منشوراً) . يطوفون عليهم
بأكواب وأباريق وكأس من معين من خمر صافية سائغة . فلا هم يفرقون عنها
ولا هي تنفذ من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام .

تلك أبهى أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابله ، فلا خمار
يصرع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ، فهم في متاعهم متكئين على
الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق (ودانية عليهم ظلالها
وُدُّلَّتْ - طوفها تذليلاً) فهم في ظل ظليل ناعم هاديء .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن في الجنة شجرة
يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، إن شئت فاقروا) (وظل يهود وماء
مسكوب^(١)) .

(١) رواه البخاري والترمذي .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام لا يقطعها) وزاد الترمذي : (وذلك الظل الممدود^(١)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : (أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) اقرءوا إن شئتم (وظل ممدود) وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، واقرؤا إن شئتم (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

فهم في نعيم والى نعيم فهم في جنات خضراء ، والعيون تنضّ بالماء : (ومن دونها جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيها عينان نضاختان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيها فاكهة ونخل ورمان) . وننظر إلى أهل الجنتين متكئين على الأبسط وكأنها من صنع عبقر ، وقد كانوا ينسبون كل عجب إلى وادي الجن عبقر (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) .

والسابقون المقربون : (والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سُرر موضونة متكئين عليها متقابلين) ، سرر مشبكة بالمعادن الثمينة متكئين عليها في راحة وخلو بال من الموم والمشاغل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاذه وفي اقبال بعضهم على بعض يتسامرون .

إنها الجنة في نعيمها ، فيها السرر المرتفعة التي توحى بالنظافة كما توحى بالطهارة ، والأكواب مصفوفة مهابة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد . والوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح ، والبسط والسجاجيد مبثوثة هنا وهناك للزينة والراحة سواء (فيها

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وزاد : (وذلك الظل الممدود) .

سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونارق مصفوفة وزرابي مبثوثة) .
وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباهاً في الأرض . وتذكر هذه الأشياء لتقريبها
الى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهي موكولة الى المذاق هناك .
للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق .

وهناك لا فضول في الحديث في الجنة ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها
صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي صوت السلام (جنات عدن التي وعد الرحمن
عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتياً . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولم يرقم فيها
بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) الجو سكون وهدوء
يغدره السلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمريين الأعباء والأدواء ،
والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية ، هناك في الجنة العالية
(في جنة عالية) ، عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية
المقامات . إنه جو السعادة والتنزه عن كل كلمة لاغية . وهذه وحدها نعيم . وهذه
وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو
وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقرة وفرقعة . وضجة وصخب ، وهرج
ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل
الندي في العبارة الموحية (لا تسمع فيها لاغية) وألفاظها تنسم الروح والندى وتنزلق
في نعومة ويسر ، وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم يناوون عن
الجدل واللغو هي طرف من حياة الجنة . يتهاون بها لذلك النعيم الكريم . يوم يحيون
في هدوء وسكون ، وفي ترفع وتنزيه عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل
مؤاخاة (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سلاماً سلاماً) .

حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة

في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويُسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمان .
فالجو كله سلام سلام .

فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل ، فهي حالة من
الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً) والرزق في هذه
الجنة مكفول لا يحتاج الى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من
التخلف أو النفاق . فما يليق الطلب ولا القلق في هذا الجو الراضي الناعم الأمين . فمن
شاء ورائة الجنة فالطريق معروف : التوبة والايان والعمل الصالح .

إن هذه الصور الحسية والمعنوية من النعيم والعذاب ترد في مواضع شتى من
القرآن . والله الذي خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، وما يصلح
لنعيمهم ولعذابهم .

والنفوس ألوان ، والطبائع شتى . تلتقي كلها في فطرة الانسان ، ومن ثم فصل
الله ألوان النعيم والعذاب ، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه الملائق بالعباد . وأي
فوز عظيم من يفوز بالنجاة يوم الهلاك ويستمتع بالمقام الأمين (إن المتقين في مقام أمين
في جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور
عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم
عذاب الجحيم . فضلاً من ربك . ذلك هو الفوز العظيم) .

فاذا انتقن الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم في مقام أمين ،
لا خوف فيه ولا فزع ، ولا شدة فيه ولا جذب ، ولا عتل ولا وصب ! بل هم
منعمون رافلون في جنات وعيون يلبسون من سندس — وهو الحرير الرقيق — ومن
استبرق — وهو الحرير السميك — ويجلسون متقابلين في مجالسهم يسمرسون ، فهم في سمر
والى سمر . من نعيم الى نعيم .

عن عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه قال : كنت أحب الحيل ، فقلت :

يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فقال : (إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كنت لك فيها فرس من ياقوت وله جناحان يطير بك حيث شئت^(١)) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ربيع الشمال ، فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فتقول لهم أهلهم ، والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً^(٢)) .
إنه النعيم من عطاء الله الكريم . وهم في الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون ويدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هنالك وقد ذاقوا الموت الأولى ، وغيرها لا يذوقون . وفضل الله عليهم أن وقاهم من عذاب الجحيم . فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضل ورحمة ، وأي فوز عظيم ...
فلا موت .. بل نعيم مقيم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت ، حتى يجعل بين الجنة والنار ، فيذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وأهل النار حزناً إلى حزنهم^(٣)) .

٤ — نساء أهل الجنة

يقول الله سبحانه : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به

(١) رواه الطبراني ورواته ثقات .

(٢) رواه مسلم .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة^(١) وهم فيها خالدون .

يقول ابن قيم الجوزية : (وجمع سبحانه في هذه البشارة نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ، ونعيم القلب وقرّة العين بعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه) .

والمؤمنون هناك في الجنة راغلون في ألوان من المتاع والحريز ، (إنا الذين آمنوا و عملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحملون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) ، والمؤمنون هناك للارتفاق حقاً راغلون في ألوان الحريز (هم وأزواجهم) من سندس ناعم خفيف ومن استبرق مخمل كثيف تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع ، متاع لا يخطر على قلب بشر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (من يدخل الجنة ينعم ، ولا يبأس ، ولا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر^(٢)) .

وعن عبد الله — يعني ابن مسعود — رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم ضوء القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دري في السماء ، لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى منخ سوقها من وراء لحومها وحليها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البضاء^(٣)) .

(١) المطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قدر وكل

اذى يكون من نساء الدنيا .

(٢) رواء مسلم .

(٣) رواء الطبراني بإسناد صحيح والبيهقي بإسناد حسن .

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، هذا هو فضل الله الكريم المنان (ولن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

فلنشهد الجنتين الأوليين ولننعمش فيهما لحظات : انهما ذواتا أفنان ، والأفنان الأغصان الصغيرة الندية فهما رياتنان . وماؤهما غزير ، وسهل يسير ، وفاكهتهما كثيرة وفيرة . وأهل الجنتين ما حالهم : متكئين على المخمل الحرير السميك . فكيف وهذه بطائن الفرش ، كيف بظاهرها إذا كانت تلك بطائنها ، وكل شيء قريب التناول لا يتعب فيها قطاف ، كلها السعادة والراحة والاطمئنان والجمال .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : (لينة ذهب ولينة فضة ، وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ، ولا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ^(١)) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن للمؤمن في الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهالوت يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً ^(٢)) .

(١) رواه أحمد والترمذي والبخاري والطبراني في الأوسط ، وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

ولكن هذا لا يستقصي ما في الجنة من رفاة ومتاع فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان) ، فهن " عفيفات الشعور والنظر لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسهن إنس ولا جان ، وهن " بعد هذا ناضرات لامعات (كأنهن " الياقوت والمرجان) وقد وصفهم الله سبحانه كذلك (وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للشمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تحدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . فمن متاع الى متاع لا ينتهي . عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب^(١) قوس أحدكم أو موضع قيده — يعني سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة الى الأرض للمأت ما بينها ريحاً ، ولأضاءت ما بينها ، ولنصفها^(٢) على رأسها خير من الدنيا وما فيها^(٣)) .

وقال رسول الله ﷺ (غدوة في سبيل الله أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة اطلعت على الأرض من نساء أهل الجنة لأضاءت ما بينها ولمأت ما بينها ريحاً ، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها^(٤)) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء ، ولكل منها زوجتان اثنتان يرى منغ سوقها من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب^(٥)) .

(١) القاب : المقدار .

(٢) النصف : الخمار .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في الجماع) ، قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك؟ قال : (يعطى قوة مائة^(١)) .
 ألا إنها الجنة (إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا) ،
 إن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة تتمثل حدائق وأعناب ، وكواعب وهن الفتيات
 الناهدات ، اللواتي استدارت ثديهن . أتراباً متوافيات السن والجمال . وكأساً دهاقاً
 متروعة بالشراب (وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهنبيض مكنون) ، وعندهم
 حور لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن واسعات بجيلات العيون !
 وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة لا تبتذله الأيدي ولا العيون .
 وذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعراً أن ربه يراه ،
 فبلغ بذلك مرتبة الاحسان كما وصفها رسول الله ﷺ فنالوا جزاء الاحسان من
 عطاء الرحمن .

هـ - أصحاب الجنة

يقول الله سبحانه : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم
 في ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) .
 ويقول سبحانه : (والذين آمنوا وعمالوا الصالحات - لا تكلف نفساً إلا
 وسعها - أوائلك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري
 من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .
 لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا أن تلسك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .
 هؤلاء هم الذين آمنوا وعمالوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم .

(١) أخرجه الترمذي واسناده حسن ، ورواه الدارمي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم .

هؤلاء هم يعودون الى جنتهم ! لانهم اصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته ، بعملهم الصالح مع الايمان ، جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللثيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله ﷺ (لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله) قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل^(١)) .

إن أصحاب الجنة هم الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق ، فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملاعهم الذلة (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . والتعبير يوحى بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله يضاف الى الجزاء المزيّد فيه .

إن أصحاب الجنة هم أصحاب القلوب المفتوحة ، ما إن تتلقى حتى تستجيب ، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة ، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه الى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات (سبحانه فكنا عذاب النار) .

هؤلاء هم الذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون في حذر وخشية ، في تطلع ورجاء ، هم أصحاب النفوس الطاهرة الذين يتورعون عن مقارفة الذنوب والفواحش

(١) أخرجه مسلم .

(الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش) . ونظافة السلوك من كبائر الاثم ومن الفواحش أثر من آثار الايمان الصحيح . وما يبقى قلب على صفاء الايمان وتقواته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للجنة وقد فارقه صفاء الايمان وطَمَسَتْهُ المعصية وذهبت بنوره .

هذه القلوب المفتوحة قد أزالَت العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق السكينة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها وتشبهها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فانها تجد الطريق الى ربها مفتوحاً وموصولاً . وحينئذ تستجيب بلا عائق . . (والذين استجابوا لربهم) تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها .

إن أصحاب الجنة هم الذين تهتز مشاعرهم ، وتلين قلوبهم لذكر الله (وبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ الذين إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم) ، وهؤلاء بعد تحرك الرجل في ضمائرهم ومشاعرهم تفيض أعينهم من الدمع (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) ، وفاضت أعينهم من الدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي مغموه . والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءة من التعبير إلا الدمع الغزير . وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفِي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدي مالا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العنيف .

يقول رسول الله ﷺ : (عينا لا تمسها النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله ^(١)) .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي

(١) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

تأثروا به ، لأنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق . إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً ، موقف الاستماع والمعرفة ، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر ، ثم الإسلام ، والشهادة لهذا الدين سلوكاً وعملاً وجهاداً لأقراره في الأرض والتمكين له في حياة الناس .

هؤلاء هم القائلون بالعزائم والتكاليف ، الخائفون من اليوم العبوس ، يبتغون وجه الله وحده (إنما نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) .

ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب ، من الحساسية والارهاق والتخرج ، والتطلع الى الكمال . وحساب العواقب . مهما ينهض بالواجبات والتكاليف . فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى ؛ وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به . وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ، ولكنهم بعد هذا كله : (يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) ، لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد أن بذلوا ما في طوقهم ، وهو في نظرهم قليل .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله (الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : (لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل ^(١)) .

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة ، ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله

(١) أخرجه الترمذي .

في كل شيء من حوله ، ومن تم يستشعر بالهبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقي الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفقه حقه عبادة وطاعة . ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا ، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة ، بهذه اليقظة وبهذا التطلع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة . لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة ، مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يُستدرج الى مصرعه بالطعم المغري . ومثل هذا الطير في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويطغيمهم الغنى ، ويلهمهم الغرور ، حتى يلاقوا المصير !

تلك اليقظة التي يفرضها الاسلام على قلب المسلم . والتي يستجيشها الايمان بمجرد استقراره في القلوب ، ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة . إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به . ومراقبته في السر والعلن ؛ وهي في حدود الطاقة الانسانية ، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيء (ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون) .

ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، لا يظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون ، ولا يبخسهم شيئاً مما يعملون ، وكل ما يعملونه محسوب في سجل (ينطق بالحق) ويبرزه ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين .

إن أصحاب الجنة هم أصحاب الشعور بخشية الله ، خشية تدفع الى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف . الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عارياً أمام الواحد القهار . والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره . فالذي يخشى ربه حقاً لا يملك أن يخطر في قلبه ظلاً لغيره مع خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد الى غيره معه . فهو أغنى الشركاء عن الشرك فيما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله . قال رسول الله ﷺ : قال الله

تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه^(١)) .

إن أصحاب الجنة هم المتقون الخائفون . المتقون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه في الدنيا ، وخوفها يوم القيامة . فمن اتقاء في العاجلة أمنه في الآجلة ، ومع الأمان في أفزع موطن يغمره بالانس والتكريم .

وقال ﷺ (قال الله عز وجل : لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له أمين ، فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة^(٢)) . وقد وصف رسول الله ﷺ أهل الجنة وأصحابها فقال : (عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه^(٣)) وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره^(٤))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير^(٥))

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ؛ والنبي وليس معه احد ، وربع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقل لي هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، رواه أيضاً أحمد في المسند والحاكم في المستدرک والبيهقي في السنن وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) أخرجه مسلم .

حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . قال بعضهم لعلمهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم فلعلمهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشرکوا بالله شيئاً وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ما الذي تخوضون فيه) ؟ فأخبره فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : (أنت منهم) . ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : (سبقك بها عكاشة^(١)) .

وقد جعل النبي ﷺ الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده فلا يسألون غيرهم أن يرقمهم ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطيير هو من تمام التوكل على الله كما في الحديث : (الطيرة شرك) .

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ (إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي ، فيقال : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل) .

وفي المسند عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : (يقال لصاحب القرآن اذا دخل الجنة اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه) .
عن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يدخل الجنة الجواظ^(٢) ولا الجعظري^(٣)) ، قال : ولا الجواظ الغليظ^(٤) .

وعنه رضى الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الجواظ : النوع ، وقيل السمين المختال في مشيته ، وقيل القصر البطين .

(٣) الجعظري : الفظ الغليظ .

(٤) أخرجه أبو داود واسناده صحيح .

ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل مُعتل^(١)
جواظ مستكبر^(٢))

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن في الجنة
مُغْرَفًا يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها) فقال أبو مالك الأشعري : لمن
هي يا رسول الله قال : (لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائماً والناس نيام^(٣)) .
وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أنا زعيم بيت في
رَبَضِ^(٤) الجنة لمن ترك المراء^(٥)) وإن كان محققاً ، وبيت في وَسْطِ الجنة لمن ترك
الكذب وإن كان مازحاً ، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه^(٦)) .

وقال ﷺ : (وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقْسِطٌ مُتَّصِدٌ موفق ، ورجل رحيم
القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال ..^(٧))

وأبواب الجنة كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول
المعاصي . قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : (من أنفق زوجين من ماله
في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب . فمن كان من أهل الصلاة
دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام ، ومن كان من
أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ،
فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دُعي . فهل يُدعى
أحد منها كلها قال : نعم وأرجو أن تكون منهم^(٨))

(١) المعتل : الغليظ الجافي .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) رواه الطبراني والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ، ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

(٤) رِبَضُ المدينة : ما حولها من العمارة .

(٥) المراء : الجدال .

(٦) أخرجه أبو داود وإسناده صحيح .

(٧) أخرجه مسلم .

(٨) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فإلي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ^(١) ؟ زاد في رواية وغرتهم ^(٢)) - فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلئ حتى يضع رجله وفي رواية حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط قط قط ، فهناك تمتلئ ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً ^(٣)) .

٦ - أحوال الناس في الجنة

يقول الله سبحانه (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون)
 إن السرور يشيع في أعطافهم وقسماتهم ، فيبدو عليهم الجور ، فإذا صحاف من ذهب وأكواب يُطاف بها عليهم ، وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفس التذاذ العيون ، وكالاً وجمالاً في التكريم . كما أن لهم الخلود : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدون فيها لا يبغون عنها حولاً) .
 إنهم خالدون في جنات الفردوس ، فهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال .

(١) السقط في الأصل : المزدري به .

(٢) الفر : الذي لم يجرب الأمور ، فهو قليل الشر منقاد ، والمعنى : أن من أثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبل أمور الدنيا ، فليس فيراً فيما قصد له ، ولا سقطاً ولا مدموماً بنوع من الدم .

(٣) متفق عليه .

(في ظلال وعيون) (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) .. آخذين من فضله وإنعامه جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة الله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : (إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين) ، فهنا وجوههم يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجدد ، وتحمد ما عملت فوجدت عقباً وخيراً . (وجوه يومئذ ناعمة لسهيا راضية) ، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ثم يراها بمثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنة من رخاء ومتاع ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء . (ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ، إن المشهد يتكشف عن نعيم مادي ملموس ونعيم نفسي محسوس . فهم في بعض المتاع ذي المظهر المادي الذي يلي بعض رغائب النفوس . وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن وذلك الأطمئنان فالجو كله يسر وراحة ونعيم ، (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) والذين آمنوا فهم هناك في الجنات تجري من تحتها الأنهار . وفصلت لباسهم من الحرير فوقها حلي من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله إلى الطيب من القول . وهداهم إلى صراط الحميد ، إنها نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وهم في هذه الجنات يألف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم ولكنهم يُكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقي أحبائهم ، (أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار)، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان .

روى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ايرفع ذرية المؤمن إلية في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه) ثم قرأ (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) ، قال : (مانقصنا الآباء بما أعطينا البنين^(١)) .

وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال : (إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول يارب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بالالحاق بهم ثم تلا ابن عباس : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) الى آخر الآية^(٢)) .

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم ، في حركة راحة غادية . فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والاكرام (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً) ، سلام من كل خوف ، ومن كل تعب ، ومن كل كد سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة . وهم يدخلون عليهم من كل باب ، يبلغونهم التحية العلوية . إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم ، فياله من تكريم ، فهم مشغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكرون . وانهم لفي ظلال مستطابة ، يستروحون نسيما ، وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم ، (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلامٌ قولاً من رب رحيم) . لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاؤون ، وهم ملاك محقق لهم فيه كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم ، (سلام) ،

(٢٤١) حادي الارواح لابن قيم الجوزية (٣٢٠) .

يتلقونه من ربهم الكريم ، (سلام قولاً من ربّ رحيم) .

ها هم المتقون يدخلون الجنات بسلام آمنين ، فهم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ونزع الله ما في صدورهم من غلّ ، في مقابل الحقد الذي يغلي به صدر ابليس لغوايتهم ولا يمسه فيها نصب ولا يخافون منها خروجاً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . ثم يُقال ، يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال : يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة . فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيقول هؤلاء قد عرفناه هو الموت الذي وُكِّلَ بنا فيُضجع فيذبح ذبحاً على السور . ثم يقال يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت^(١)) .

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون^(٢))

وعن جابر رضي الله عنه قال سئل نبي الله ﷺ ف قيل أينام أهل الجنة ؟ فقال النبي ﷺ : (النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون^(٣))

وهذا كله جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الكريم ، بعد أن نزع الله من صدورهم الغلّ :

(إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غلّ أخواناً على سرر متقابلين . لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين) . (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ) . فهم بشر وعاشوا بشراً . وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه ، وغل يغالبونه ويغلبونه ، ولكن تبقى في القلب منه آثار .

(١) رواه النسائي والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه ابن مردويه (حادي الارواح ٣٢٠) لابن قيم الجوزية .

(٣) رواه الطبراني .

قال القرطبي في تفسيره أحكام القرآن : قال رسول الله ﷺ (الغل على أبواب الجنة كمبارك الأبل قد نزع الله من قلوب المؤمنين) . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار ، فترف على الجو كله أنسام ، وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنازع والحصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف . وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب ، فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم .

هؤلاء لاخوف عليهم . فالسرور يشيع في أعطافهم وقسباتهم فيبدو عليهم الجبور فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم في الجنة ما تشتهي الأنفس وفوق شهوة الأنفس التذاذ العيون ، وكالاً وجمالاً في التكريم : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم مطهرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) .

إنه مشهد وديع أليف ، رضي جميل ، إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . والتكريم في كل كلمة ، وفي كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هي التي تجيء (غير بعيد) ونعيم الرضا يتلقاهم مع الجنة : (هذا ما تعدون لكل أتواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) فيوصفون هذه الصفة من الملاء الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أو أبون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، فيثبون إلى ربهم طائعين . ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير خروج (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) . ثم يؤذن في الملاء الأعلى ، تنويعاً بشأن القوم ،

واعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) ،
فهم اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم . فالزيد من ربهم غير محدود .

وإن عرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هبى لهم من نعيم رخي
رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتتعدد ألوانه ، مما يستجيش الحس الى
روح النعيم ويرده (إن المتقين في جنات ونعيم فأكهن بما آتاهم ربهم) ثم بعد ذلك
الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) ، وهذا
الرضا في نفوسهم عن ربهم . الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن انعامه عليهم . والرضا
بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح
الحالص العميق .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل
يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ،
فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا ما لم نعط
أحدًا من خلقك ؟ فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من
ذلك ؟ فيقول : أحيل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً (١) .

ويقول سبحانه : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو
الفوز العظيم) .

إن الجنة للقامة المطمئنة ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم ، وإن الجنة بكل ما فيها
من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم ، إن لحظة اتصال بالله .
لحظة شهود جلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقل هذه الأرض
ومومها القريبة . لحظة تثبت في أعماق القلب البشري شعاعاً من ذلك النور الذي

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

لا تدركه الأبصار . لحظة اشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله ، إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء ، ليتضاءل الى جوارها كل متاع ، وكل رجاء ، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟.

يقول الامام المحاسبي^(١) (.. فإن كنت من أهل العفو والتجاوز فتوهم إن تفضل الله عز وجل عليك بالعفو والتجاوز ممرّك على الصراط ونورك معك يسعى بين يديك وعن يمينك مببّض وجهك وقد فصلت من بين يدي الله عز وجل ، وأيقنت برضاه عنك وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتقين ، والملائكة تنادي سلّم سلّم ، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين ، تنادي وينادون : (ربنا أقم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ، فتدبر حين رأوا المنافقين طغى نورهم وهاج الوجل في قلوبهم فدعوا بتمام النور والمغفرة . فتوهم نفسك وقد انتهيت الى آخره فغلب على قلبك النجاة وعلا عليك الشفق ، وقد عاينت نعيم الجنان وأنت على الصراط ، فحقّ قلبك على جوار الله عز وجل واشتاق الى رضا الله حتى إذا صرت الى آخره خطوت بأحد رجلك الى العرصة التي بين آخر الجسر وبين باب الجنة فوضعتها على العرصة التي بعد الصراط ، وبقيت القدم الأخرى على الصراط ، والخوف والرجاء قد اعتليا في قلبك وغلبا عليك ، ثم ثنيت بالأخرى فجزت الصراط كله واستقرت قدماك على تلك العرصة ، وزلت عن الجسر بيدنك ، وحلّفته وراء ظهرك ، وجههم تضطرب من تحت من ير عليها ، وتثب على من زلّ عنه مغتازلة تزفر عليه وتنشق اليه ، ثم التفت الى الجسر فنظرت اليه باضطرابه ونظرت الى الخلائق من فوقه والى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها في رؤوسهم ،

(١) التوهم ص ٣٢ .

فطار قلبك فرحاً إذ رأيتَ عظيمَ ما نجاك الله منه ، فحمدتَ الله وازددت له شكراً
 إذ نجوت بضعفك من النار وخلصت النار وجسرهما من وراء ظهرك متوجهاً الى جوار
 ربك ، ثم خطوت آمناً الى باب الجنة قد امتلأ قلبك سروراً وفرحاً ، فلا تزال في ممرِكَ
 بالفرح والسرور حتى توافي أبوابها ، فاذا وافيتَ بابها استقبلك بحسنه ، فنظرت الى
 حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها ، وقلبك مستطير فرح مسرور متعلق
 بدخول الجنة حين وافيتَ بابها أنت وأولياء الرحمن . فتوهم نفسك في ذلك الموكب
 وهم أهل كرامة الله ورضوانه مبيضة وجوههم مشرقة برضا الله مسرورون
 مستبشرون ، وقد وافيتَ باب الجنة بغير قبرك ، وحرّ المقام ووهج تعب مامر بك ،
 فنظرت الى العين التي أعدها الله لأوليائه والى حسن ماها ، فانغمست فيها مسروراً لما
 وجدت من برد ماها وطيبها ، فذهب عنك بحزن المقام وطهرت من كل دنس وغبار ،
 فتوهم فرحة فؤادك لما باشر برد ماها بدنك بعد حرّ الصراط ووهج القيامة وأنت فرح
 لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتطهر لدخول الجنة والخلود فيها ، ثم تخرج منها في أحسن
 الصور وأتمّ النور . ثم تقصد الى العين الأخرى فتتناول من بعض آنيها ، فتوهم نظرك
 الى حسن الاناء والى حسن الشراب وأنت مسرور بمعرفتك أنك إنما تشرب هذا
 الشراب لتطهر جوفك من كل غلّ وجسدك ناعم أبداً ، حتى إذا وضعت الاناء على
 فيك ثم شربته وجدتَ طعم شراب لم تذوق مثله ، حتى إذا استكملت طهارة القلب
 والبدن واستكمل أجباء الله ذلك معك ، والله مطّلع يراك ويраهم ، أمر مولاك
 الجواد المتحنّ خزّان الجنة من الملائكة الذين لم يزلوا مطيعين خائفين منه مشفقين
 وحلّين من عقابه إعظماً له وإجلالاً وهيبة له وحذراً من نعمته ، وأمرهم أن يفتحوا
 باب جنته لأوليائه فانحدروا من دارها وبادروا من ساحاتها وأتوا باب الجنة فمدوا
 أيديهم ليفتحوا أبوابها ، وأيقنتَ بذلك فطار قلبك سروراً وامتألت فرحاً وممعتَ
 حسن صرير أبوابها فعلاك السرور وغلب على فؤادك ، فياسرور قلوب المفتوح لهم باب

جنة رب العالمين ، فلما فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان وطيب جري مائمهـا فنفتح وجهك وجميع بدنك وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع وكافورها الأصفر وعنبرها الأشهب وأرياح طيب ثمارها وأشجارها وما فيها من نسيما ، فتداخلت تلك الأراييح في مشامتك حتى وصلت الى دماغك وصار طيبها في قلبك ، فاض من جميع جوارحك ، ونظرت بعينك الى حسن قصورها وتأسيس بنيانها من طرائق الجندل الأخضر من الزمرد والياقوت الأحمر والدر الأبيض قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفائه ، فقد أكمله الله في الصفاء والنور ومازجه نور ما في الجنان ، ونظرت الى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فان لك فيها الزيادات والنظر الى وجه ربك ، فاجتمع طيب أراييح الجنة وحسن بهجة منظرها وطيب نسيما وبرد جوها ..

فتوهم نفسك إن تفضل الله عليك بهذه الهيئة فلو مت فرحاً لكان ذلك يحق لك حتى إذا فتحو بابها أقبلوا عليك ضاحكين في وجهك ووجوه أولياء الله معك ، ونادوكم سلام عليكم ، ثم أتبعوا السلام بقولهم : طبت فادخلوها خالدين ، فلما سمعت الإذن وأولياء الله معك بادرتم الباب بالدخول فكظمت الأبواب من الزحام ، فما ظنك بباب مسيرة أربعين عاماً كظيظه من زحام أولياء الرحمان فأكرم بهم من مزدحمين مبادرين الى ما قد عاينوا من حسن القصور من الياقوت والدر . فتوهم نفسك ان عفا الله عنك في تلك الزحمة مبادراً مع مبادرين مسروراً مع مسرورين بأبدان قد طهرت ووجوه قد أشرقت وأنارت فهي كاللدر ، فلما جاوزت بابها وضعت قدميك على تربتها وهي مسك أذفر ونبت الزعفران المونع والمسك مصبوب على أرض من فضة والزعفران نابت حولها فذلك أول خطوة خطوتها في أرض البقاء بالأمن من العذاب والموت ، فأنت تتخطى في ترب المسك ورياض الزعفران ، وعيناك ترمقان حسن بهجة الدر من حسن أشجارها وزينة تصويرها ، فينا أنت تتخطى في عرصات الجنان في رياض

الزغفران و كسبان المسك إذ نودي في أزواجك وولدائك وخدامك وغلماذك ' إن فلاناً
قد أقبل فأجابوا واستبشروا لقدومك كما يبشر أهل الغائب في الدنيا بقدومه ..) .

٧ - رؤية الله عز وجل :

إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة^(١)، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، يقول
الله سبحانه : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة إلى
ربها ناظرة) .

إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها، كما يعجز
الادراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة
لا تشبهها حالة . حتى لتتضائل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم .

هذه الوجوه الناضرة ، نضرها أنها إلى ربها ناظرة ، إلى ربها ، فأى مستوى من
الرفعة هذا ؟ أي مستوى من السعادة ؟ . إن روح الانسان لتستمتع أحياناً بلهجة من
جمال الابداع الالهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القموء . أو الليل الساجي .

(١) ان رؤية الله سبحانه هي الغاية القصوى في الدار الآخرة . عن أبي ذر الغفاري رضي
الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رايت ربك ؟ قال : نور أنى أراه
أخرجه مسلم .

وعن مسروق بن الأجدع رحمه الله قال : قلت لعائشة : « يا أمتاه ، هل رأى محمد ربه ؟
فقالت : لقد قَفَّ شعري مما قلت ابن أنت من ثلاث من حدثكن فقد كذب ، من حدثك أن محمداً
رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »
« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ومن حدثك أنه يعلم ما في
غدد فقد كذب ، ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » ولكنه رأى جبريل عليه السلام
في صورته مرتين » . وفي رواية قال : قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب
قوسين أو أدنى » قالت : ذاك جبريل عليه السلام ، كان يأتيه في صورة الرجل وأنه هذه المرة في
صورته ، فسَدَّ الأفق » . وفي أخرى « ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول « لا يعلم
الغيب الا الله » رواه البخاري ومسلم . (قَفَّ شعري) : قف الشعر : اذا قام في منابته . الغرة :
اختلاق الكذب .

أو الفجر الوليد . أو الظل المديد أو البحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض
البهيج أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الايمان الواثق . أو الصبر الجميل . الى
آخر مطالع الجمال في هذا الوجود ، فتغمرها التشوة وتفيض بالسعادة ، وتترف بأجنحة
من نور في عوالم مُجَنَّحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة ، وما فيها من ألم وقبح ،
وثقله طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء .

فكيف ؟ كيف وهي تنظر — لا إلى جمال صنع الله — ولكن إلى جمال ذات
الله ؟ ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مَدَد من الله . ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله ليملك
الانسان نفسه ، ويستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف ، ولا تتصور حقيقتها إدراك .
(وجوه يومئذ ناضرة) ، وما لها لا تنتظر ، وهي إلى جمال ربها تنظر ؟ إن
الانسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض ، من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو
جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو فعل جميل . فاذا السعادة تفيض من قلبه على ملاحظه ،
فيبدو فيها الوضاء والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكون . مطلقاً من كل
ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الانسانية ذلك المقام ، إلا
وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز عليه الخيال ! وكل
شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء
ماسوى النظر إلى الله .

فأما كيف تنظر ؟ وبأي جراحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ فذلك حديث
لا يخطر على قلب يمس طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني ، في القلب المؤمن ،
والسعادة التي يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق !

فما بال أناس يجرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفاضل بالفرح والسعادة؟ ويشغلونها
بالجدل !! إن إرتقاء الكينونة الانسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية
المحدودة ، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق

سيعز عليها أن تتصور - مجرد تصور - كيف يكون ذلك اللقاء .

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ، فهذا التطلع ذاته نعمة لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم .

فما بال أناس قد حجب قلوبهم المعاصي والآثام حجبها عن الاحساس بربها في الدنيا . وطمستها حتى اظلمت وعيت في الحياة ، (كلا منهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجهه الكريم ، وأن يُحَال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى ، التي لا مُتَّاح إلا لمن سَفَتَ روحه ورقَّتْ وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان ونهاية بائسة لانسان يستمد انسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فاذا حجب عن هذا المصدر فَقَدَ خصائصه كانسان كريم ، وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم (ثم إنهم لصالوا الجحيم) ومع الجحيم التأنيب وهو أمر من الجحيم ، (ثم يُقال هذا الذي كنتم به تكذبون) .

ثم هي الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماستها (ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يُفعل بها فاقرة) ، وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلاحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظن ، المحطمة للفقار . الفاقرة . وهي من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص ..

فهذه هي الآخرة التي يذرونها ويهملون ، ويتجهون إلى العاجلة يحبون بها ويحفلونها . ووراء هذا اليوم الذي تختلف فيه المصائر والجدود ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد من وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة !

إن رؤية الله سبحانه هي أعلى مرتبة في نعيم الآخرة وقد بَشَّر بذلك الرسول ﷺ :

عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دَخَلَ أهلُ الجنة الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدُكم ؟ فيقولون : أَلَمْ تُبَيِّضْ وجوهنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ وتنجينَا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى) زاد في رواية (ثم تلا هذه الآية (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ^(١))

قال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي أنبأنا أبو تيمعة قال : سمعتُ أبا موسى الأشعري يخطب الناس في جامع البصرة ويقول : إن الله يبعث يوم القيامة ملكاً إلى أهل الجنة فيقول : يا أهل الجنة هل أنجزكم الله ما وعدكم فينظرون فيرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون : نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا . ثم يقول الملك هل أنجزكم الله ما وعدكم ثلاث مرات فلا يفقدون شيئاً مما وعِدوا . فيقولون : نعم . فيقول : قد بقي لكم شيء . إن الله عز وجل يقول (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) والزيادة النازل إلى وجه الله تعالى ^(٢) .

وعن عكرمة قال : قيل لابن عباس كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال نعم ^(٣) .

وعن عمارة بن عبيد قال سمعتُ علياً يقول : (من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى في جنته ^(٤)) .

إن رؤية الله تبارك وتعالى هي الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، وتسابق إليها المتسابقون ، ومثلها فليعمل العاملون . إذا ناله أهل الجنة

(١) أخرجه مسلم والترمذي .

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية ص ٢٣٣ .

(٣-٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية ص ٢٦٨ .

نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً سألوا النبي ﷺ قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال رسول الله ﷺ : فإنكم ترونه كذلك ^(١)) .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : (إنكم سترون ربكم عياناً ، كما ترون هذا القمر لا تضامون ^(٢)) في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا ، ثم قرأ : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ^(٣)) .

إن هذه الرؤية العظيمة كانت دعاءً للرسول ﷺ وصحابته فكان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ^(٤)) .

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ علّمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال : (قل حين تصبح ليك اللهم ليك ، ليك وسعديك والخير في يديك ومنك

(١) أخرجه أبو داود وهو حديث صحيح .

(٢) لا تضامونه : المعنى : انكم ترونه جميعكم لا يظلم بعضكم في رؤيته أو لا يودحم بكم في رؤيته .

(٣) أخرجه البخاري مسلم والترمذي .

(٤) أخرجه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما .

واليك ، اللهم وما قلتُ من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيتك بين يديه ، ما شئتَ كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير ، اللهم وما صليتُ من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلماً وألحقني بال صالحين ، أسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدي علي أو أكسب خطيئة محيطة أو ذنباً لا تغفره ، اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأشهد وكفى بك شهيداً أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك . لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك وأشهد أن وعدك حق وأن لقاءك حق ، واللجنة حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور ، أشهد أنك إن تكلفني إلى نفسي تكلفني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي" إنك أنت التواب الرحيم^(١) .

إن أهل الجنة حين يرون ربهم عز وجل ينسوت ما هم فيه من النعيم ، فهو فيض ونعمة تغمر كل شيء : فعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أتاني جبريل وفي كفه كالمراة البيضاء يحمل فيها كالنكتة السوداء فقلت ما هذه التي في يدك يا جبريل ؟ فقال : هذه الجمعة ، قلت وما الجمعة ، قال لكم فيها خير كثير ، قلت وما يكون لنا فيها ؟ قال : يكون عيداً لك ولقومك من بعدك ويكون اليهود والنصارى تبعاً لك ، قلت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبداً فيها

(١) رواه أبو داود في سننه .

شيئاً هو له قسم إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخره له في آخرته ما هو أعظم منه ، قلت ما هذه النكتة التي هي فيها ؟ قال : هي الساعة ونحن ندعوه يوم المزيد . قلت وما ذاك يا جبريل ؟ قال : إن ربك اتخذ في الجنة وادياً فيه كئبان من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكراسي بكراسي من نور فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسي ويحف الكراسي بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجوهر ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكئبان ثم يتجلى لهم عز وجل فيقول أنا الذي صدقكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل كرامتي ، فسلوني فبسالونه حتى تنتهي رغبتهم فيفتح لهم في ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك بمقدار منصرفكم من الجمعة ثم يرتفع على كرسيه عز وجل ويرتفع معه النبيون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم وهي لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء وباقوتة حمراء وغرفها وأبوابها وأنهارها مطردة فيها وأزواجها وخدامها وثمارها متديلات فيها فليسوا بشيء بأحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا منه نظراً إلى ربهم ويزدادوا منه كرامة^(١) . يقول الامام المحاسبي (.. فلما أكلوا وشربوا ، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ، ثم رفع الحجب ؛ فبينما هم في ذلك إذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله ، فلما نظروا إليه وإلى مالم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذي لا يشبهه شيء من خلقه ، فلما نظروا إليه ناداهم حبيبهم بالترحيب فيهم وقال لهم : مرحباً

(١) حادي الارواح الى بلاد الافراح لابن قيم الجوزية ص ٢٥٢ ، يقول ابن قيم الجوزية « هذا حديث كبير مظيم الشأن رواه ائمة السنة وعلقوه بالقبول » (وجملة به الشافعي مسنده) فرواه عن ابراهيم بن محمد وذكر نحو الحديث ثم قال الشافعي انبأنا ابراهيم قال حدثني ابو عمران ابراهيم بن الجعد عن انس شبيبها به وزاد فيه اشياء ورواه محمد بن اسحاق) عن انس وقال فيه « ثم يتجلى لهم ربهم عز وجل حتى ينظروا الى وجهه الكريم » . وقد رواه عديد من الائمة . وقد جمع ابن أبي دؤاد طريقه .

بعبادي ، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة ، لأنهم يسمعون كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء . فتوهمهم ، وقد أطارقوا وأصغوا بسلامهم لاستماع كلامه ، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم ، فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباً بهم ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه ، فحيّاهم بالسلام فرّدوا عليه أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والاكرام .

فرحاً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي وخافوني في الغيب وقاموا مني على كل حال مشفقين ، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم أثرة لرضاي عنهم ، وقد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي تمنّوا عليّ ما شئتم فلو رأيتم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكركم ما كانوا عليه في دنياهم من رعاية عهده وحفظه ودوام خوفهم منه وقد استطاروا فرحاً لما شكّر لهم رعايتهم حقّه ، وحفظ منهم خوفهم ، ورحب بهم بحبة لهم ، إذ كانوا بذلك إياه في الدنيا يعبدونه ؛ استطارت قلوبهم فرحاً وسروراً إذ لم يفروا طوا في طاعته ولم يقصروا في مخافته ، فاغبطوا لما كانوا به لله في الدنيا يدينون من شدة خوفهم ورعاية حقه وحفظه ، فرّدوا إليه الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله ، أنهم قد قصدوا عما كان يحق له عليهم اعظماً له واستكثراً ، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربه واستماع كلامه ، فقالوا عند ذلك : وعزتك وجلالك وعظمتك وارتفاع مكانك ما قدرناك حق قدرك ، ولا أدّينا إليك كل حقك فآذنّا لنا بالسجود فقال لهم ربهم : إني قد وضعتُ عنكم مؤونة العبادة وأرحتُ لكم أبدانكم فطالما اتعبتُم الأبدان وأكنتُم لي الوجوه ، فالآن أفضتُم إلى كرامتي ورحمتي فتمنوا عليّ ما شئتم - وفي بعض الحديث أنهم إذا نظروا إليه خرّوا فيناديهم بكلامه تبارك وتعالى : ارفعوا رؤوسكم ، ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر -

فتوهم بعقلك نور وجوههم وما بداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا مليكهم ، وسمعوا

كلام حبيبهم ، وأنيس قلوبهم ، وقرّة أعينهم ، ورضا أفئدتهم ، وسكن أنفسهم ، فرفعوا رؤوسهم من سجودهم ، فنظروا إلى من لا يشبه شيء بأبصارهم ، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى الرضا والرفعة . فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الذي لا يقع عليه الأوهام ، ولا يحيط به الأذهان ، ولا تكييفه الفكر ، ولا تحده الفطن ، الأزلي القديم الذي حارت العقول عن إدراكه . فكلت الألسنة عن تمثيله بصفاته ، فهو المنفرد بذاته عن شبه الذوات ، المتعالي بجلاله على مساواة المخلوقين ، فسبحانه لا شيء يعادله ، ولا شريك يشاركه ، ولا شيء يريدّه فيستصعب عليه أو يعجزه إنشاؤه ، استسلم لعظمته الجبارون ، وذلّ لقضائه الأولون والآخرون ، نفذ في الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون ، وبما لو كان كيف كان يكون ، فأحاط بالأشياء علماً ، وسمع أصواتها سمعاً ...

فلما سرّ أولياء الله برؤيته وأكرمهم بقربه ونعم قلوبهم بمناجاته ، واستماع كلامه ، أذن لهم بالانصراف إلى ما أعدّ لهم من كرامته ونعيمهم ولذاتهم ، فانصرفوا على خيل الدرّ والياقوت على الأسرّة فوقها الحبال ترف وتطير في رياض الجنان . فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عز وجل وسمعت كلامه كيف ضاعف حسنها وجمالها ، وزاد ذلك في إشراقها ونورها .. فلو رأيت وجوههم وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم .. فأعظم به من مجلس وأعظم به من جمع .. فكن إلى ربك مشتاقاً وإليه متعباً .. وبالله التوفيق وإليه المصير ، والجنة مثوى المؤمنين وثواب المتقين وسرور المحزونين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (١) .

* * *

(١) التوهم ص ٦٣ .

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

المؤمنين واليوم الآخر

١ - الأسوة الحسنة

لقد عني القرآن بمشاهد القيامة ، البعث والحساب ، والنعيم والعذاب ، عناية واضحة . فلم يعد ذلك العالم الذي وعده الله الناس ، يعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً . وعاش المسلمون في ذلك العالم عيشة كاملة . رأوا مشاهدته وتأثروا بها ، وخففت قلوبهم تارة ، واقتشعرت جلودهم تارة وسرى في نفوسهم الفزع مرة ، وعادوهم الاطمئنان أخرى ، ولاح لهم من بعيد لفع النار ، ورفقت إليهم من الجنة أنسام او من ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود ، وكانوا ينتقلون بحسبهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ومن أرض إلى أرض ، في هذه الحياة المشهودة المحسوسة ، ولم يكن ذلك العالم مستقبلاً موعوداً في حسبهم ، وإنما كان واقعاً مشهوداً .

عن حنظلة بن الربيع الأسدي رضي الله عنه وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال : لقيني أبو بكر ، فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال : قلت : ناقد حنظلة ، قال سبحانه الله ما تقول ؟ قال نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا

رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافسنا^(١) الأزواج والأولاد والضيعات^(٢) ، ونسينا كثيراً . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت نأفق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « وما ذاك » ، قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي التذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات^(٣)) .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لشابٍ من الأنصار : (كيف أصبحت يا حارثة) قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً قال : (انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة) قال : يا رسول الله : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمت نهارى وكأني بعرش ربي نارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها . قال عليه الصلاة والسلام : (أبصرت فالزم ، عبدٌ نور الله الإيمان في قلبه) .

لقد عاش المسلمون في خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض في القرآن ، لقد كانوا يوقنون أنه في يوم القيامة لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

إن استعراض مشاهد القيامة في القرآن أمر عجيب مخيف ؛ إنها رحلة الحشر والحساب والجزاء ، وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون ، لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع للندير .

(١) عافسنا : عالجنا ولاعبنا .

(٢) الضيعات : جمع ضيعة وهي الصنامة والحرفة .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي .

إن وزن الدار الآخرة في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا .. (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) (والآخرة خير لك من الأولى) .. نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . وإلما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهديها فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بغوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفرق من بين يديها وتناهى ؟ والشر يتجمع والباطل يطغى ؟ .

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين في الآخرة ، وإنها خير للذين يتقون ، ويعفون ، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين .

لقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة . عاشوا مشاهد الآخرة فعلاً وواقعاً . فلم تكن في نفوسهم وعداً أو وعيداً يتلقونها من مستقبل بعيد . إنما كانت هذا وذلك واقعاً تشهد قلوبهم وتحسه وتراه ، وتتأثر وترتعش وتستجيب لمراه . ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول ؛ وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بذلك الواقع الأخروي ، الذي كانوا يعيشونه ويمجّون به وهم بعد في الحياة ! وهكذا ينبغي أن يتلقى المسلم وعد الله .

إن أمر يوم القيامة أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً ، مشاهدته ترجف له القلوب والله — سبحانه — يقسم على وقوع هذا الحادث لا محالة :

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) . فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً . والأمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضععه ويفعل به الأفاعيل ، قال الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر بن زيد العبدي . قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمرّ بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : (والطور .. حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حمارة . واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه . رضي الله عنه .. وعمر سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله ﷺ - يصلي بها المغرب . وعمر يعلم ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً وحساً مفتوحاً ، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت ، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها الدنية المباشرة ، التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتدخلها وتعمقها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ﷺ - فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر رضي الله عنه حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ، فتبرز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ، وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ..

إن نفس المؤمن هي النفس اللوامة المتيقظة الحائرة المتوجسة التي تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى لذكرها الله مع القيامة : (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة يحسب الإنسان ألنّ مجمع عظامه) .

إن نفس المؤمن هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور ، والذي يكذب ويتولى دون حساب لنفسه ودون تلوهم ولا تحرج ولا مبالاة ! يقول الحسن البصري : (إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردتُ بأكلتي ؟ ما أردتُ بجديتي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه) .

إن أمر الآخرة لعجيب عظيم يقول سبحانه - : (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .. إنه مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه ، وليس بهم إلا التطلع لما يجزيه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولي ولا نصير .

إنه مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي أن يكفهم عن أي عمل لا يرضي الله .

وإن علة التطاول والتكذيب ، والغفلة عن الحق الواضح ، والانطماس ، أن تغطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الإثم والمعصية : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) والقلب الذي يمد على المعصية ينطمس ويظلم ، ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويججبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلسد ويموت .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت^(١)) .
ولفظ النسائي : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن

(١) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي حسن صحيح .

هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

قال حذيفة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تُعَرَّضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً ^(١) ، فأَيُّ قلب أُشْرِبها ^(٢) نكت فيه نكتة سوداء ^(٣) . وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر : أسود مُرْبَاداً ^(٤) ، كالكور مجخياً ^(٥) ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه ^(٦) ..)

ويقول ميمون بن مهران : (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه ، فتوى قلب المؤمن مجلى مثل المرأة ، ما يأتية الشيطان من ناحية إلا أبصره . وأما الذي يتتابع في الذنوب فإنه كلما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه ولا يبصر الشيطان من حيث يأتية) .

(١) (كالحصير عوداً عوداً) قال الحميدي : في بعض الروايات (مرض الحصير) والمعنى فيها : أنها تحيط بالقلوب كالحصير المحبوس ، وقوله عوداً عوداً : أي مرة بعد مرة ، تقول : عاد يعود عودة وعوداً .

(٢) أشربها : أشرب القلب هذا الأمر : إذا دخل فيه وقبله وسكن إليه ، وكأنه قد شربه .

(٣) أي أثر فيه أثر أسود وهو دليل السخط ولذلك قال في حالة الرضى : نكت فيه نكتة

بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين ، أي على قسمين .

(٤) الذي في لونه ربة ، وهو بين السواد والغبرة .

(٥) المجخى : المائل عن الاستقامة والاعتدال هاهنا .

(٦) أخرجه مسلم .

٢ - بين الخوف والرجاء

لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلاً وواقعاً . عاشوا مع الآخرة واقعاً محسوساً .. لقد كانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . كما أحسّ عليه الصلاة والسلام برهبة هذا الأمر وقوته حتى أنه روي عنه أنه قال بعد أمر الله له في سورة هود .. (فاستقم كما أمرت) روي عنه مشيراً إلى هذا الأمر (شيبتي هود) .

عن ابن عباس رضي الله عنها قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : أراك شيبت ، فقال : شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت^(١) .. وفي رواية : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله : أسرع إليك الشيب ، فقال : (شيبتي هود وأخواتها : الواقعة وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت) .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ؟ قال المسلمون : يا رسول الله ! فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا^(٢)) .

إن الاستقامة هي الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة والنظر في كل أمر إلى الآخرة . والقرآن الكريم يضرب

(١) أخرجه البيهقي (حياة الصحابة ج ٢ ص : ٦٨٦) كذا في البداية ج ٦ ص : ٥٩ .

(٢) رواد الترمذي وقال حسن . كذا في البداية ج ٦ ص : ٥٦ .

مثلاً للاستعلاء على عَرَّض الحياة الدنيا في أزهى صورهِ ، يضرب مثلاً للآخرة حين يراها المؤمن أو المؤمنة مثلاً خالداً للنعيم الذي لانعيم غيره يقول سبحانه : (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) .

فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العَرَّض فحسب بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاء تستعِذ بالله منه ، وتفلت من عقابله ، وتطلب النجاة منه !

إن آيات القرآن الكريم تنذر وتبشر لهذا اليوم الريب .. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) .. وهو تعبير مجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، كفيل بأن يوقفه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً ، ونصيبه من البرضئلاً ؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً ، ولا يكف عن النظر والتقلب .

لقد عمل القرآن عمله في تربية الجماعة المسامة حتى أتت بالعجب العجائب ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً ، وكانت الآخرة في حِسِّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه ، فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت وهم لا يظلمون . وكان هذا هو سرُّ تقواه وخشيته (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

لقد كانوا يحسون الآخرة ويعيشون فيها فعلاً بشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لاريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت وجعهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد . وخوفهم من هول هذا اليوم المزلزل الرعب .

أخرج الحاكم وقال : صحيح الإسناد والبيهقي من طريقه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن فتي من الأنصار دخلتته خشية الله فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت فذكر لرسول الله ﷺ فجاءه في البيت ، فلما دخل عليه اعتنقه النبي ﷺ وخرّ ميتاً . فقال النبي ﷺ : جهّزوا صاحبكم ! فإن الفرق ^(١) فلذ ^(٢) كبده ^(٣) .

وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن قدامة عن حذيفة رضي الله عنه فذكر نحوه ، وفي حديثه فأتاه النبي ﷺ فلما نظره اليه الشاب قام فاعتنقه وخرّ ميتاً ، فقال النبي ﷺ : جهّزوا صاحبكم ! فإن الفرق من النار فلذ كبده ، والذي نفسي بيده لقد أعاده الله منها ، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه ^(٤) .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) . تلاها رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فخرّ فتي مغشياً عليه فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك فقال رسول الله ﷺ : يا فتي ! قل : لا إله إلا الله ، فقالها فبشّره بالجنة . فقال أصحابه يا رسول الله ! أمين بيننا ؟ فقال : أو ما سمعتم قوله تعالى (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ^(٥)) .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشتكى فدخل النبي ﷺ يعوده ، فقال : كيف تجدك يا عمر ؟ قال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمع الرجاء والخوف في قلب مؤمن إلا

(١) الفرق : الخوف .

(٢) فلذ : قطع .

(٣) كذا في الترغيب والترهيب ج ٥ ص : ٢٢٣ .

(٤) كذا في الكنز ج ٢ ص : ١٤٤ .

(٥) كذا في الترغيب ج ٥ ص : ١٩٤ .

أعطاه الله الرجاء وآمنه الخوف (١) .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن الرومي قال : بلغني أن عثمان رضي الله عنه قال : (لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيها يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيها أصير (٢)) .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة قال : قال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : (لوددت أني كبش يذبني أهلي فيأكلون لحمي ويحسّون مرقى ! . قال : قال عمران ابن حصين رضي الله عنه : لوددت أني كنت رماداً على أكمة تقتسفي الريح في يوم عاصف (٣)) .

وأخرج أبو نعيم عن عامر بن مسروق قال : قال رجل عند عبد الله رضي الله عنه : (ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين : أكون من المقربين أحب إليّ ، قال : فقال عبد الله : لكن هنا رجل ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث — يعني نفسه) . وعنده أيضاً عن الحسن قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لو وقفت بين الجنة والنار فقل لي : اختر نخيرك من أيها تكون ، أحب إليك أو أن تكون رماداً ! لأحببت أن أكون رماداً (٤)) .

وأخرج أبو نعيم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولا تقاررتن على فرشكم ! لوددت أن الله عز وجل خلقتني يوم خلقتني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها (٥)) .

(١) كذا في الكنز ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الحلية ج ١ ص ٦٠ وأخرجه أيضاً أحمد في الزهد عن عثمان مثله ، كما في المنتخب

(ج ٥ ص ١٠) .

(٣) كذا في المنتخب ج ٥ ص ٧٤ وأخرجه ابن سعد ج ٣ ص ٤١٣ عن قتادة عن أبي عبيدة

نحوه . وعند ابن سعد ج ٤ ص ٢٦ أيضاً عن قتادة .

(٤) « الحلية ص ١٣٣ ج ١ » .

(٥) الحلية ج ١ ص ١٦٤ .

وأخرج أبو نعيم عن حزام بن حكيم قال : قال أبو الدرداء رضي الله عنه :
(لو تعلمون ما راؤون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستطلون
فيه ولخرجتم إلى الصعدات ^(١) تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددتُ أني
شجرة تعضد ثم توكل ^(٢)) .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقال : (لوددتُ أني هذه
السارية ^(٣)) .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه أنه كان إذا دخل
الفراس يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول : (اللهم ! إن النار أذهبت مني النوم ؛
فيقوم يصلي حتى يصبح ^(٤)) .

وعند أبي نعيم عن عمر رضي الله عنه قال : (لو نادى مناد من السماء : يا أيها
الناس ! إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً خُفّت أن أكون أنا هو ، ولو نادى
مناد : أيها الناس ! إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا هو ! ^(٥))
إنهم يتوجهون إلى الله في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف
من عذاب الله والرجاء في رحمته . والخوف من غضبه والطمع في رضاه . والخوف من
معصيته والطمع في توفيقه .. (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

والتعبير القرآني يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة ، حتى
لكأنها مجسّمة ملموسة .. (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً
وكانوا لنا خاشعين) .

(١) الطرق .

(٢) الحلية ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) السارية : الاسطوانة ، أخرجه ابن سعد ج ٤ ص ١٢

(٤) الحلية ج ١ ص ٢٦٤ .

(٥) الحلية ج ١ ص ٥٣ .

إنها الصور المشرفة الوضيئة الحساسة الشفيفة . تدعوه سبحانه خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً في رضوانه وثوابه (وادعوه خوفاً وطمعاً) .

يقول الإمام الغزالي : (ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أميناً في الآخرة ، ولست أعني بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينيك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فما هذا من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجاشئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف ينعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته ؛ وأبعد من رقة النساء خوف الحقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنتُ بالله اللهم سلم سلم ، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه . فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه ، فأنسى يغني عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه ^(١)) .

ويقول الغزالي : (إن الرجاء والخوف جناحان بها يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بها يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن رروح الجنان إلا أزمة الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف ^(٢)) .

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٦٥٢ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٧٧ .

٣ — حقيقة الرجاء وفضيلته

يقول الإمام الغزالي : (الرجاء هو ارتياح لا انتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخراط أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء . قال عليه السلام : (الأحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة) . وقال تعالى : (فختلف من بعدهم خلف ووتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) .

فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يندم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حتم .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عند التآدي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة بين النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط .

والخوف ليس بضدّ الرجاء بل هو رفيق له ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعيم بمناجاته والتلطف في التملق له .

واعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبه لهم ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت ، قال تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) :

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى :
يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالي . يا ابن
آدم ، لو أتيتني بقراب^(١) الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك
بقرابها مغفرة^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (قال الله عز وجل :
أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . الحديث^(٣)) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (حسن الظن من حسن
العبادة^(٤)) .

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول :
(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل^(٥)) .
وعن حيان أبي النضر قال : خرجت عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت وائلة بن
الأسقع وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى وائلة بسط يده وجعل يشير إليه ،
فأقبل وائلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفي وائلة فجعلها على وجهه ، فقال له وائلة :
كيف ظنك بالله ؟ قال : ظني بالله والله حسن ، قال : فأبشر ، فإني سمعت رسول الله
ﷺ يقول : (قال الله جل وعلا : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيراً فله ، وإن
ظن شراً فله^(٦)) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال :

-
- (١) قراب الأرض : ما يقارب ملاءها .
(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه .
(٥) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .
(٦) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(كيف تجددك ، قال : أرجو الله يا رسول الله ، ولإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف (١)) .

متى يكون الرجاء ؟

يقول الامام الغزالي : (اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة . وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضرب بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متأنطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها ، فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميده عن الوسط ، وهذا الزمان (١) زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تقادياً ، قال علي كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي في الكبرى . قال الحافظ اسناده حسن ، وقال النووي : اسناده جيد .

(٢) زمان الغزالي كان قبل الف عام تقريباً فكيف بزماننا نحن الذي لم يبق للإسلام في القلوب إلا اسمه ؟ .

الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله . وما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى : (قل يا عباد الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) وقال عز وجل (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) .

وقال النبي ﷺ : (إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار^(١)) . وفي رواية (لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد^(٢)) .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (لو لم تذبوا خلق الله خلقاً يذنبون ليغفر الله لهم^(٣)) وفي لفظ آخر (لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم) .

قال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منها .

وفي الحديث (أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويذره ، فكان يقول : دعني وربي ، أبغضت عليّ رقيباً ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك ، قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته^(٤)) .

(١) أخرجه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد .

٢ - حقيقة الخوف

يقول الامام الغزالي : « اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال ﷺ : « والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له (١) » وقال « والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٢) » وكذلك قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ثم إذا اكملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب : ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات :

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يُعَذَّبْ يوم القيامة (٣) »
وعن أبي ریحانة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله ، وذكر عيناً ثالثة (٤) » .

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترى أعينهم النار : عين حُرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفّت عن محارم الله (٥) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غَضَّتْ عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين تخرج منها مثل

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس .

(٢) رواه الشيخان من حديث عائشة .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه أحمد واللفظ له ، والنسائي والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٥) رواه الطبراني ، ورواه ثقات .

رأس الذباب من خشية عز وجل (١) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق في سبيل الله ، وأما الأثران ، فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله عز وجل (٢) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ النار رجل بكى من خشية الله ، حتى يعود اللبّن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم (٣) » .

وعن ابن عباس رضي الله عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عيان لاتمسها النار : عين بكى من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله (٤) » .

وآثار الخوف على الجوارح يكفها عن المعاصي وتقيدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . . « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

فبذلك تحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مُستوعب الهمم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له مُشغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضيعة بالأنفاس واللحظات ومواخضة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مغالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه

(١) رواه الاصبهاني .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح والنسائي وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن قريب .

فقلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وهكذا كانت حال جماعة من الصحابة والتابعين .

وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الصالح عن المحظورات ورعاً^(١) .

« والورع له أربع مراتب : الأولى وهو الاحتراز عن الحلال الظاهر » اتق المحارم تكن أعبد الناس » . الثانية : ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال ﷺ « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(٢) .

الثالثة : ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام .

قال ﷺ « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة بما به بأس »^(٣) .

وذلك مثل التورع من التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤذي إلى مقارفة المحظورات . الرابعة :

ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى

ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل^(٤) ، فهو لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله

ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو

الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً .

إذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم

العفة ، وهو كف عن مقتضي الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل

(١) أحياء علوم الدين ج ٤ : ١٦٥ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

(٣) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي .

(٤) أحياء علوم الدين ج ١ ص : ٢٥ .

محذور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحذور والشبهة جميعاً ، ووراءه اسم الصديق والمقرب ^(١) .

درجات الخوف :

يقول الإمام الغزالي : « الخوف هو سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بها رتبة القرب من الله تعالى ، والخوف له قصور وله افراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قلبل الجدوى ضعيف النفع . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فانك إن قلت « لا » كفت ، وإن قلت « نعم » كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل واعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وأغلب المخاوف على اليقين خوف الحاققة ، فان الأمر فيه مخطر وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يُزاد فيهم ولا ينقص » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يُزاد فيهم ولا ينقص وليعملن

(١) أحياء علوم الدين ج ٤ : ١٩٥ .

أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يُقال كأنهم منهم بل همهمهم، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة، وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل همهمهم، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة، السعيد من سعة بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله، والأعمال بالخواتيم^(١) .

وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال : (ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وقال عز وجل (وخافون إن كنتم مؤمنين) . فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان ؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه . وقال أبو سلمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

عن خارجة بن زيد رضي الله عنه أن أم العلاء — امرأة من الأنصار — بايعت النبي ﷺ، أخبرته : أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي منه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمك ؟ فقلت : بأي أنت وأمي يا رسول الله، فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري — وأنا رسول الله ما يفعل بي ؟ قالت : فوالله لأزكي أحداً بعده يا رسول الله^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه البخاري .

والسلام : ثم فابعث بعث النار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة) قال : فأبلس القوم وجعلوا يكون (١) .

فالبكاء ثمرة الحشية فقد قال تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً) وقال تعالى (يكونون ويزيدهم خشوعاً) وقال عز وجل (أمنن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامعون) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الامام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه (٢)) .

وروي عن زيد بن أرم رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله يجم أتعني النار ؟ قال (بدموع عينيك ، فإن عيناً بكثت من خشية الله لا تمسها النار أبداً (٣)) . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك (٤)) .

هـ - الرحمة الالهية

إن الله سبحانه هو المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكن - فضلاً منه ومِنَّة - كتب على نفسه الرحمة . كتبها بارادته ومشيتته ، لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها

«٢١» متفق عليه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والاصبهاني .

(٤) رواه الترمذي وابن أبي الدنيا ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

عليه مقترح ، ولا يقتضيها منه مقتضى - إلا ارادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة - وهي الرحمة - قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة .. والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقومات التصور الاسلامي ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضرراء .

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة وسنحاول أن نقف قليلاً أمام هذا النص القرآني العجيب : (كتب على نفسه الرحمة) وقد تكرر وروده في موضع آخر .. (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ..

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل .. تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده .. تفضله - سبحانه - بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة .. مكتوبة عليه .. كتبها على نفسه ، وجعلها عهداً منه لعباده ، بمحض ارادته ومطلق مشيئته ، وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها ، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه - سبحانه - على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يُبلِّغُوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ؟ وأن يبلِّغُوا بكلمات منه سبحانه يحملها اليهم رسوله ؟ من هم ؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفاضل من خلق الله الكريم ؟ ! وإن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ، كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه ! ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاء ، ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليلبغ شيئاً في تصويره ، وإن كان القلب البشري مهيباً لتذوقه ، لا لتعريفه ! وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي

يُكوّن جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية ، وعلاقة العباد بها ، وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف .. ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ، وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا تملك أن تتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ، ولكننا نذكر منها لمحات في مجالها الكبيرة .

لأنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الانساني الكريم ، بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الانسان على كثير من العالمين . وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للانسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الانسان في مجبوحته منه في كل لحظة من لحظات حياته . وتتجلى في تعليم الله للانسان ، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ، وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإحياجات الكون ومعطيائه . هذا العلم الذي يتناول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاته وإرسال الرسل اليه بالهدى ، كلما نسي وضلّ ، وأخذ به بالحلم كلما لجّ في الضلال ، ولم يسمع صوت النذير ، ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله ، وحلم الله وحده هو الذي يسعته .

... وتتجلى في تجاوز الله - سبحانه - عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة الرحمة على نفسه بمثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب . وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة بعد ذلك إن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة .. وكله من فضل الله .. فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه ، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والاقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ، فتصل به ، ويعرفه ، ويطمئن إليه — سبحانه — ويأمن في كنفه ، ويستروح في ظله . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها ، فضلاً على وصفها والتعبير عنها . فلننظر كيف مثل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما :

أخرج الشيخان بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق — وعند مسلم : لما خلق الله الخلق — كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي) وعند البخاري في رواية أخرى (إن رحمتي غلبت غضبي) .

وأخرج الشيخان — بإسناده عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جعل الله الرحمة مئة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) . وأخرج مسلم بإسناده عن سلمان الفارسي — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله مئة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة) . وله في أخرى : (إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة) .

وهذا التمثيل النبوي الموحى ، يقرب الإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى . . ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتعلّما ويعجب لها، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة، والضعف والمرض، وبالأقرباء والأوداء والأصحاب، وبرمة الطير والوحش بعضها على بعض — ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب — ثم

يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمت الله سبحانه .. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما . وكان رسول الله ﷺ لا يني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى :

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله ﷺ سبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها ، إذ وجدت صبياً في السبي ، فأخذته فالزقته ببطنها فارضته . فقال ﷺ : (أترون هذه المرأة طارحة ولداً في النار ؟) قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : (فإله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها) . وكيف لا وهذه المرأة إنما ترحم ولدها من فيض رحمة واحدة من رحمت الله الواسعة .. ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحى ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ، ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعاً ، ولتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وعم يتعاملون بها ، كاتذوقها في معاملة الله لهم بها من قبل .

أخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : (الراحمون يرحمهم الله تعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) . وأخرج الشيخان والترمذي عن جرير رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ﷺ : (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) .

ولم يكن ﷺ يقف في تعليمه لأصحابه - رضوان الله عليهم - عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء . وأن المؤمنين مأمورون بأن يتخلقوا بأخلاق الله ، وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حيّ تحلةً بخلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها :

أخرج مالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله

ﷺ : (بينا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلثب يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفّه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له) قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : (في كل كبد رطبة أجر) .

وفي أخرى : «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقتها (أي خفها) فغفرت لها به » .
وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه - رضي الله عنه - قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرش (أو تفرش) - (أي ترخي جناحها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ﷺ قال : (من فجع هذه بولدها ؟ ردوها ولدها إليها) . ورأى قرية غل قد أحرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار) .

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :
(قرصت نملة نبياً من الأنبياء . فأمر بقرية النمل فحرق . فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟) .

وهكذا علم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاوتهم للرحمة . . أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمت الله الكثيرة ؟ !
إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار - فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لحظة ، وكل حالة ، وكل وضع ، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تحلى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد

الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة .. فهو في كنف ودود ، يستروح ظلالة ، مادام لا يبعد عنه في الشرود !

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حسّ المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجري على المعصية - كما يتوهم البعض - إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي تجربته الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الايمان الحقيقية ! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجئون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم ، أو المغفرة ، أو الرحمة .. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية !

ومن هذه الرحمة المكتوبة، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه . ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه - بعباده من الناس ، فقد خلقهم لأمر ، واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ، ولم يتركهم سدى . ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته - فيعطيهم جزاء كدّهم إليه ، ويعطيهم أجر عملهم في دار الدنيا . فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ، إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها .. كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أمثالها، والأضعاف لمن يشاء ، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء .. كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضاً .. (قل : لمن مافي السموات والأرض ؟ قل : الله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع .

يدرك ضعف هذا المخلوق فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف ، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير .. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ، مسك بالعروة لم ينقطع به الحبل ، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه ، والحبل في يده ، ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بعصيته .. (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) . بالسماحة هذا الدين ! إن الله سبحانه لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته — سبحانه وتعالى — معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا : إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين (الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) . . . والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها ، من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . مرتبة (المتقين) .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، ألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، ألا يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء .. وفي عبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله ، والاستسلام له في النهاية ، فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

انه لا يغفل في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يلقيه منبوذاً حائزاً في التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب .. إنه يطمعه في المغفرة ، ويدله على الطريق ،

ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطواته المتعثرة ، وينير له الطريق ، لينشئه إلى الحمى الآمن ، ويثوب إلى الكنف الأمين .. شيء واحد يتطلبه ألا يحف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي . ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل .. فسيطلع النور في روحه من جديد ، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبث البذرة الهامدة من جديد . إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط — لا سواه في الدار .. سيروح آبقاً شاردأ لا يثوب إلى الدار أبداً . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يبدأ حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود ! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب الثقل رفرقة ، وبجانب النزوة الحيوانية أسواقاً ربانية . فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود ، ويربت عليه في لحظة العثرة ليلحق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول : (ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة ^(١)) .

والإسلام لا يدعو — بهذا — إلى الترخص ، ولا يبعد العائر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو يقلل عثرة الضعف ، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياة ! فالمغفرة من الله — ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ — تمجبل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة في وجوههم الأسوار ! ..

(١) رواه أبو داود والترمذي والبخاري في مسنده من حديث عثمان بن راقد ، وفي مسنده

صحابي مجهول ولكن ابن كثير في تفسيره صححه . وقال : « حديث حسن » .

وهكذا يجمع الاسلام بين الهتاف للبشرية الى الآفاق العلا ، والرحمة لهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها . إن الاسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخطائات ، ولا يطردنهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين قائلين ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه ، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم — متى أخلصوا فيها — حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .. (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيماً) .

إن التوبة التي يقبلها الله ، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزتها الندم من الأعماق ، ورجها رجاً شديداً حتى استفاقت فتأبّت وأتابت ، وهي في فسحة من العمر ، ومجبوحة من الأمل ، واستجدت رغبة حقيقية في التطهر ، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد .. والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب .. وهناك ما يشبه الاجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى — طال أمدّها أم قصر — ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم .. والذين يتوبون من قريب : هم الذين يتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت ، ويدخلوا في سكراته ، ويحسوا أنهم على عتباته . فهذه التوبة حينئذ هي توبة الندم ، والانخلاع عن الخطيئة ، والنية على العمل الصالح والتكفير .. وهي إذن نشأة جديدة للنفس ، وبقظة جديدة للضمير .. (فأولئك يتوب الله عليهم) يمنع عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ، ولا يطردنهم أبداً وراء الأسوار ، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحتمى الآمن والكنف الرحيم .

إن الله — سبحانه — لا يطارد عباده الضعاف ، ولا يطردنهم متى تابوا إليه وأنابوا . وهو — سبحانه — غني عنهم ، وما تنفعه توبتهم ، ولكن تنفعهم هم أنفسهم ،

وتصلح حياتهم وحياء المجتمع الذي يعيشون فيه . ومن ثم يفسح لهم في العودة الى الصف
ثابئين متطهرين .

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال :
(لاني تبتُ الآن) .. فهذه التوبة هي توبة المضطر ، لجئت به الغواية ، وأحاطت به
الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ، ولا فسحة
لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ، لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً
في الحياة ، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه .. والتوبة إنما تقبل لأنها
الباب المفتوح الذي يلجج الشاردون الى الحى الآمن ، فيستودون أنفسهم من تيه
الضلال ، وتستودهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان ، ليعملوا صالحاً
- إن قدر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب - أو ليعلموا - على الأقل - انتصار
الهداية على الغواية . إن كان الأجل المحدود ينتظرهم ، من حيث لا يشعرون أنه لهم
بالوصيد (ولا الذين يموتون وهم كفار) .. وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة
من وشيجة ، وضيّعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة .

إن القرآن يفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ، وتطمع كل
مذنب تائب في العفو والقبول .. (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله
يمجد الله غفوراً رحيماً) .

إنه - سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر
منيب .. والذي يعمل سوء يظلم غيره . ويظلم نفسه . وقد يظلم نفسه وحدها إذا
عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه .. وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين
في كل حين ، ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه ثابئين . هكذا بلا قيد ولا شرط
ولا حجاب ولا بواب ! حيثما جاءوا ثابئين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً .

الفہرست

الصفحة		الصفحة	
٨٠	٥ - سكرات الموت	٣	المقدمة
٨٤	٦ - فتنة القبر وعذابه		
	الباب الثالث		الباب الاول
	اشراط الساعة وعلاماتها		طريق الآخرة
٩٧	١ - علم الساعة	١٣	١ - أهمية الآخرة في
١٠٣	٢ - أشراط الساعة وعلاماتها		التصور الاسلامي
١٠٣	٣ - في المسيح والمهدي عليها السلام	١٦	٢ - حقيقة الآخرة وأثرها في
١٠٧	٤ - في الدجال		النفس الانسانية
١٢٤	٤ - في الفتن والاختلاف أمام	٢٤	٣ - قدرة الله على الحياة الأخرى
	القيامة	٣٢	٤ - فردية التبعة
١٣٧	٥ - طلوع الشمس من مغربها	٣٩	٥ - فرصة النجاة
١٣٩	٦ - الدابة والدخان	٤٧	٦ - بين الغفلة والهوى
١٤٣	٧ - في قرب مبعث النبي ﷺ		الباب الثاني
	من الساعة وخروج الكذابين،		الموت
	وخروج النار		
١٤٤	٨ - أشراط متفرقة	٥٣	١ - حقيقة الموت في التصور
	الباب الرابع		الاسلامي
	الأحوال في الكون يوم القيامة	٥٩	٢ - رهبة الموت
١٤٧	١ - نفخة الصور	٦٥	٣ - الأمل القاتل
		٧٤	٤ - ذكر الموت

الصفحة		الصفحة	
٢٧٤	٣ - أحوال الناس في جهنم	٢	٢ - الأهل في الكون يوم القيامة
٢٧٨	٤ - هيئة أهل النار	١٥٥	آ - أحوال الأرض والجبال
٢٨٥	٥ - طعام أهل النار	١٥٨	ب - أحوال السماء يوم القيامة
٢٨٩	٦ - شراب أهل النار	١٦١	٣ - يوم الحشر
٢٩٧	٧ - اغواء وتبرؤ وعذاب	١٧٠	٤ - أحوال الناس في يوم الحشر
٣٠٠	٨ - حسرة وألم	١٨٢	٥ - استجواب مرهوب وشهادة الحق
	الباب السادس		
	نعيم الجنة	١٨٥	٦ - الحساب
٣٠٧	١ - صفة الجنة	١٩٠	قاعدة الحساب والجزاء
٣١٦	٢ - طعام أهل الجنة	١٩٢	حساب وعرض
٣١٧	١ - شراب أهل الجنة	١٩٩	قضاء عادل
٣٢٤	٤ - نساء أهل الجنة	٢١١	٧ - طلب الفداء
٣٢٨	٥ - أصحاب الجنة	٢١٣	٨ - الميزان
٣٣٦	٦ - أحوال الناس في الجنة	٢٢٣	٩ - رقابة الله
٣٤٥	٧ - رؤية الله عز وجل	٢٢٩	١٠ - تسجيل وإحصاء دقيق
	الباب السابع	٢٣٣	١١ - الصراط
	المؤمنين واليوم الآخر	٢٤١	١٢ - الشفاعة
		٢٤٨	١٣ - الخوض
٣٥٤	١ - الأسوة الحسنة		الباب الخامس
٣٦٠	٢ - بين الخوف والرجاء		عذاب النار
٣٦١	٣ - حقيقة الرجاء وفضيلته		
٣٧٠	٤ - حقيقة الخوف	٢٥٣	١ - صفة جهنم
٣٧٥	٥ - الرحمة الالهية	٢٥٩	٢ - أهل النار

تطلب جميع منشوراتنا من

الشركة المتحدة للتوزيع

مبانيات - شارع سعودي - بناية صدي وصفاة
هاتف: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص ب ٧٤٦ - رقباء، يوشندرا